الآداب

سنة على رحيل سماح: كجناح الطيرِ أو أسمى

AL ADAB 2022
عدد خاص، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٢

◄ سماح المثقَّف المُلتزم
◄ محرّر اللُّغة وراويها
◄ يا رفيق
◄ رسائل

سماح إدريس

١٩٦١-٢٠٢١

AL ADAB 2018
مؤسّسها: سهيل إدريس
صاحباها: سهيل إدريس وسماح إدريس
هاتف/فاكس: ٧٩٥١٣٥ ١ ٠٠٩٦١ / ٨٦١٦٣٣ ١ ٠٠٩٦١
https://al-adab.com
عدد خاص، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٢

الآداب

رئيس التحرير
سماح إدريس (١٩٩٢ ـ ٢٠٢١)

المديرة المسؤولة
عايدة مطرجي إدريس

هيئة تحرير العدد
رنا إدريس
عبادة كسر
ناي إدريس
هشام صفي الدين
يسري الأمير

ساهم في الإعداد
رامي سلامة
ربيع بركات
مايا مجذوب

مصمّم الغلاف
رائد شرف

إخراج
ميشلين الخوري

الطباعة
شركة مطبعة سليم دبوس

نشأت مجلة *الآداب* عام ١٩٥٣ على يد د. سهيل إدريس، وكانت وتبقى سجلًّا بارزًا لحركة الإنتاج الثقافيّ العربيّ. صدرت بصيغة ورقيّة حتى نهاية العام ٢٠١٢، وعادت بصيغة إلكترونيَّة في نهاية صيف العام ٢٠١٥.

تهدف المجلة إلى نشر الإبداع العربيّ، والإسهام في تنشئة وعي نقديّ متحرّك، وإلى دعم قضايا التحرّر والحريّة والوحدة في الوطن العربيّ.

قالوا عن سماح إدريس:

◀ ومن سماح نتعلم أنّ التفكير النقدي الحقيقي هو تحرّري الطابع وثوري الدافع. هكذا يكون الفرق بين المثقّف الحقيقي، كثائر، والمثقّف المزوّر، كأداة في مشاريع الخراب الخارجية.
سيف دعنا، جريدة الأخبار

◀ وانفجر جسده المريض النحيل في بيروت ثم صارت له حياة جديدة، ولم يغادر الميدان، ما زال يقاتل ويعلم ويحرض أكثر من «الأحياء،» لأنّ ثمة أرواحًا تحلق الآن في سماء بيروت لم تتعب من المعركة.
خالد بركات، جريدة الأخبار

◀ كيف لـ *الآداب* أن تكمل دونك. كيف للغة أن تستقيم دون تصويباتك الطريفة لأخطائها الشائعة. أشعر بالصغر وأنا أكتب عن رحيلك، وهل يرحل من يمتلك قلبًا لم تهدأ نار حبه لفلسطين يومًا؟
ندين باخص، رصيف ٢٢

Al-Adab @adabinf al-adab.com adabmag

الفهرس

الافتتاحية ..... هيئة تحرير العدد

سماح المثقّف المُلتزم

٨ البوصلة ..... سماح إدريس
١٠ عن الأمل الواقعيّ ..... سماح إدريس
١٢ المثقَّف المفرد بصيغة الجمع ..... فيصل درّاج
١٤ مجلَّة الآداب في كَنَفِ سماح إدريس: ضوءُ البَيْت وأفقُ العالم ..... رلى الجردي
٢٥ عروبة سماح إدريس في إنسانيَّته ..... خريستو المرّ
٢٨ سماح إدريس في مرآة رئيف خوري: المبدأ والمنهج ..... هشام صفي الدين
٣١ سماح إدريس والمقاطعةُ: من شعارٍ وفكرة إلى توثيق وعمل ..... هشام البستاني
٣٤ موقع المثقَّف بين الجماهير والسلطة ..... أميرة سِلمي
٣٨ الرائد في دراسات الثقافة السياسيَّة ..... محمد جمال باروت
٤١ المقاطعة والخيار الثالث في الانتفاضات العربيَّة ..... علاء اللامي
٤٤ آداب سماح إدريس: إيقاد الفكر ومقارعة التفاهة ..... بيسان طي
٤٧ اعتبر فلسطين قضيَّته وقضيّة كلّ عربي ..... حوار مع صلاح صلاح

محرِّر اللّغة وراويها

٥٤ عن أزمة اللُّغة العربيَّة ..... سماح إدريس
٥٨ السياسة في أدب الأطفال والناشئة العرب: عودٌ على بدء ..... سماح إدريس
٦٠ صاحبُ المقام العالي: علّمني كيف أمحو كي أكتب ..... وداد طه
٦١ سماح إدريس كما عرفته ..... فرج الأعور
٦٣ على تواصل ..... يزن الحاج
٦٤ عن سماح وله ..... فاطمة شرف الدين
٦٥ حكايات ولد من بيروت: الخيار اللغويّ الجريء ..... ماتيلد شافر
٦٩ المحرِّر الساحر الذي آمن بالشباب ..... مهدي زلزلي
٧٠ الكاتب كالطِّفل وناشره كأبيه ..... أسامة جلالي

الفهرس

يا رفيق

٧٤ برفقة سماح: بين نيويورك ولندن وبيروت ..... وين ـ جين أويان
٨٠ خلطة سماح إدريس السحريَّة ..... شوقي بزيع
٨٢ رحل رافعًا راية فلسطين وثقافة المقاومة ..... رشاد أبو شاور
٨٤ صديقي سماح: الرّفيق والأمثولة ..... أحمد دلال
٨٦ بيروت سماح إدريس: النضال المستمرّ والحوار المتجدِّد ..... مالك أبي صعب
٨٨ تركنا ونحن بأمسّ الحاجة إليه ..... منير شفيق
٨٩ قصَّتي مع سماح إدريس ..... جوزيف مسعد
٩١ على دين فلسطين ومذهب العروبة ..... أحمد بهاء الدين شعبان
٩٢ سماح... ألا تيأس ولو قليلًا؟! ..... نصري الصايغ
٩٤ الرثاء عن بُعد ..... هشام صفي الدين
٩٦ رحيلك مجحف... لكن، ما أجملك! ..... شربل نحاس
٩٧ الرفيق الذي رحل باكرًا ..... شوقي عطية
٩٨ آفاقُ سماح الرحبة ..... رانية المصري
٩٩ الرّجل الكتيبة الذي قاوم الهزيمة بالإبداع ..... غسان بن خليفة
١٠٠ رسالة إلى سماح ..... علوية صبح
١٠١ خير جليس في الغربة ..... نجيب صفي الدين
١٠٢ المناضل الصلب والأديب المرهف ..... لبيب قمحاوي
١٠٣ قصيدتان إلى عُبادة وسماح ..... خريستو المرّ
١٠٤ رسالة الأسرى في رثاء سماح إدريس ..... الرفاق في سجون الاحتلال

من الأحبّة

١٠٥ ..... رائدة إدريس
١٠٧ ..... ناي إدريس
١٠٨ ..... سارية إدريس
١١٠ ..... عُبادة كَسَر
١١٢ رسالتان من الأمين العام للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين والمناضل جورج عبدالله

الافتتاحية

سنة على رحيل سماح: كجناح الطيرِ أو أسمى

لأوّل مرّة منذ تأسيسها سنة ١٩٥٣، تصدُر مجلّة *الآداب* مُجرّدةً من الجناحَين اللذين حلّقت بهما عاليًا في آفاق الفكر والفنّ، من أدب وشعر ونقد وبحوث: الأب المؤسّس سهيل إدريس، والابن المُجدِّد سماح ادريس. سنة ٢٠٠٨، رحل الأب بعد أن استودع *الآداب* في عهدة الابن سنة ١٩٩٢. وعى سماح، ومنذ البداية، ثِقَل المسؤولية المُلقاة على عاتقه. لقد وُلدت *الآداب* سهيل ادريس من رحم المدّ القومي العربي في أوائل الخمسينيّات، فساهمت في تظهير المكنون الجماليّ لجيل بأكمله من الكُتّاب في الفكر السياسيّ والنقد الأدبيّ والإبداع الشعري. وساهمت المجلّة كذلك في تشكيل الوعي الجمعيّ لشرائح واسعة من القُرّاء، على امتداد الوطن العربي. وإن كان الدور الطليعيّ الذي أدّاه إدريس الأب (بالشراكة مع زوجته عايدة مطرجي إدريس) محوريًّا في نجاح المشروع المغامرة، فإنّ العصر الذي واكب لحظة التأسيس كان سندًا لا سندانًا للمجلّة، والبيئةَ التي رعَت مرحلة التكوين كانت حاضنةً لا متحاملةً. شكّلت *الآداب* حينها صدًى لجيل الخمسينيّات والستينيّات. وهو، كما وصفه سماح، جيلٌ متدفّق الحماسة، شديد الثقة بالنفس، مفعمًا بالأمل، يعتزّ بالانتصارات ويعاند الهزائم، يُقدّس الكلمة ويشخَص نحو المستقبل. أمّا *آداب* سماح إدريس، فقد أبصرت النور في أوائل التسعينيّات على وقع عاصفة الصحراء الهوجاء في العراق، واتّفاق أوسلو المشؤوم في فلسطين؛ وعلى تجذُّر الأنظمة الاستبداديّة بحلّة نيوليبراليّة في المنطقة العربيّة، وانهيار المعسكر الاشتراكيّ في العالم، وإعلان نهاية التاريخ لمن لا يلتحق بالرَّكْب الأميركيّ. وهو ما حدا بسماح، عند تسلّمه دفّة التحرير آنذاك وهو في مقتبل الثلاثينيّات، إلى التساؤل عن مصير جيله الذي «يُواجه مستقبلًا يجهد في أن يُدبِر عنه.»

لكنّ مَن عَرف سماح يوقن أنّه لم يهوَ البكاء على الأطلال؛ فهو لا يسأل كي يتململ، بل كي يتحدّى. وعليه، لم يخترِ الركون الى إرث المجلّة العريق رغم اعتزازه به، بل انبرى يحوك لها ثوبًا أكثر حداثةً وأشدّ التزامًا، أهدابه تداعبُ الأرض وطوقه يلتحف السماء. وبين الأرض والسماء، صاغ سماح، وبدعم من أسرته ورفاقه ورفيقاته، فضاءً فكريًّا وفنيًّا للثوابت من غير جمود، ومتمرّدًا على الشوائب من غير حدود. فأعلن التزام المجلّة في عهده بالموقف القوميّ العروبيّ، لكن مع تجنّب المزالق التي، وبحسب سماح، وقعت فيها أثناء عهدها الأوّل، كالعاطفيّة القوميّة الجامحة والتعصّب الشوفينيّ العِرقيّ، والتي أدّت في بعض الأحيان الى التغاضي عن مبدأ حرّية التعبير. في المقابل، تبنّى سماح وبحماس، خطّ *الآداب* الداعم للقضيّة الفلسطينيّة بكلّ أوجه نضالاتها، بما فيها الكفاح المسلّح والمقاومة الشعبيّة ولاحقًا المقاطعة المدنيّة، وذلك في سبيل تحريرها من البحر إلى النهر. وناصر سماح المقاومة المسلّحة في لبنان بشتّى تيّاراتها اليساريّة والقوميّة والإسلاميّة من دون استحياء، ومن منطلق العداء الوجوديّ للكيان الصهيونيّ، غير آبهٍ بشعبيّة تلك الخيارات من عدمها، وبخاصّة عند مثقّفي البترودولار. لكنّها مناصرة لم تخلُ من النقد اللاذع وإن البنّاء، والذي عَكَس ثقافة الالتزام لا الإلزام التي آمن سماح بها، وأسهب في شرحها على صفحات المجلّة. كما برع سماح في تقديم ملفّات بحثيّة رصينة تخطّت بأشواط المعايير البحثيّة، إن وُجدت، في *آداب* العهد الذي سبقه. وتناولَت مواضيع تقدّميّة، كالعلمانيّة والاشتراكيّة والمساواة الجندريّة والهويّات الإثنيّة في الوطن العربيّ والعنصريّة في الغرب، عبْر مقاربات نقديّة. لم تأتِ هذا الرصانة على حساب سلاسة اللغة وحداثتها؛ فسماح أنهى التردّد الذي شاب *الآداب* لعقود تجاه قصيدة النثر، وفتح الباب واسعًا للقصّة القصيرة، وجَهد في تبسيط اللغة، وشجّع أسلوب التشويق من غير إسفاف والإيجاز من غير تسطيح، وذلك تماشيًا مع الإيقاع السريع للحياة

العصريّة. كما مارس تحريرًا لغويًّا تعدّى التدقيق اللغويّ الروتينيّ الذي يطغى على مفهوم التحرير في غالبيّة الصحافة العربيّة، ليشمل مناقشة الأفكار المطروحة مع الكاتب/ة، وصياغة النصّ وتركيب الجمل. وقد شهدت *الآداب* نقلةً نوعيّةً في المضمون والشكل في عهدها الثالث، أي مع صدورها إلكترونيًّا سنة ٢٠١٥، فزادت من انخراطها في الصراعات الفكريّة السياسيّة، واستخدمت طرق التواصل الاجتماعيّ لمضاعفة قرّائها، وتكيّفت مع الواقع أثناء جائحة كورونا لتُطلق ندواتٍ افتراضيّة حول قضايا الساعة.

باختصار، ضجّت *الآداب* في عهد سماح إدريس بالحياة، وعكست تجربة عصره بانتصاراته وانكساراته وتناقضاته. ولم تكن مرآةً راكدةً لزمن التأسيس تُعانِد حاضرَها. فهي، وإن بدتْ عالقة في الماضي في ذاكرة بعض كتّابها أو قرّائها من الجيل الأول، فذلك لأنّهم لم يخلعوا عنهم عباءة الأب المؤسّس على الرغم من حبّهم لسماح. وإن صُوِّرت خشبيّة في مخيّلة بعض نقّادها من جيل سماح، فلأنّهم لم يكلّفوا أنفسَهم عناء التبحّر في نتاجها، بسبب بغضهم له ولما يمثّله من مبادئ ومواقف تخلّوا عنها فتخلّت عنهم. وإن كانت *الآداب* قد عبّرت عن لسان حال سماح ونبض قلبه، فهي لم تختصر مسيرته النضاليّة والأدبيّة؛ تصدّرت فلسطين لائحة أولويّاته منذ سني مراهقته في مجال النضال السياسيّ المباشر. فقبْل أن يصبح اسمه مرادفًا لحركة المقاطعة، نشط سماح على مدى سنوات في الحركة الطلابيّة في بيروت ونيويورك، وفي المقاومة الشعبيّة ضدّ قوّات الاحتلال الإسرائيليّ في لبنان، قبل اجتياح ١٩٨٢ وبعده. ولم يُثنه اهتمامه بالمقاطعة في الألفيّة الثانية عن المشاركة في الحراك الشعبيّ في ٢٠١٥ و٢٠١٩، من خلال التظاهر والتنسيق بين بعض القوى التغييريّة الوطنيّة التي رأى في وحدتها ضمانة لصون الانتفاضة. وفي المجال الأدبيّ، أصدر سماح كتابين في النقد لم ينالا حقّهما من التداول، وأربعَ رواياتٍ للناشئة، وإحدى عشرة قصّة مصوّرة للأطفال، وعشراتِ الدراسات والمقالات والكتب المترجَمة. وعمِل بلا كللٍ ولأعوام، على استكمال معجم عربيّ - عربيّ ضخم، لم يتمكّن من إنجازه قبل وفاته.

لقد خطفته المنيّة في عزّ عطائه ومن دون مقدّمات، فأظهرت الفاجعة حجم الخسارة التي لم تَطَل أسرته وأحبّاءه ورفاقه فحسب، بل طيفًا واسعًا من الكتّاب والفنّانين والإعلاميّين والنشطاء، وعموم الناس كبارًا وصغارًا من المتابعين لنشاطات سماح وكتاباته. وقد سارع العديد منهم إلى تكريمه وإنصافه في مماته، بعد أن همّشه الإعلام السائد في حياته، وتجاهلته السلطةُ التي لم يستجْدِ وُدَّها يومًا.

هذا العدد من *الآداب* عن سماح، وله. هو في آنٍ، رسالةُ حبّ وشهادةٌ للتاريخ. نتناول في العدد الجوانب المتعدّدة والغنيّة لشخصيّة سماح ومسيرته الثقافيّة والنضاليّة، بأقلام من تابعوا وشاركوا في هذه المسيرة عن قُرب. وقد آثرنا نشْر ما لم يُنشر من قبل في الصحف وعلى الإنترنت، إفساحا في المجال لمن لم يتسنَّ له بعد إلقاء التحيّة، وإثراءً لما قيل وكُتب في وداعه. وقُمنا بتبويب هذه المساهمات ضمن ثلاثة محاور، هي على التوالي: المثقّف الملتزم، ومحرّر اللّغة وراويها، ويا رفيق. وأرفقنا في المحورين الأوّل والثاني مختارات من كتابات سماح. وختمنا العدد بكلمات من الأحبّة ألقيت أثناء مناسبة تكريمه بُعيد رحيله، ورسائل من الأسرى الأبطال، قادة ومجاهدين، بعثوا بها أثناء مرضه أو بعد رحيله.

تداخلت هذه المحاور مع بعضها البعض في حياة سماح، وفي عيون من عاصره. ولا عجب في ذلك؛ فالإنسان، كالقضيّة، لا يُجزّأ. وسماح كان إنسانًا قضيّةً، وكانت *الآداب* خيمته الأولى والأخيرة. ما هو مصيرها من بعده؟ هل يُسدل الستار على هذا الصرح الفكريّ العريق، في زمن باتت الحاجة إلى منبر مستقلّ وملتزم أكثر إلحاحًا من أيّ وقتٍ مضى؟ لا نملك جوابًا قاطعًا. ولا نخفي عليك أيّها القارئ وأيّتها القارئة أنّ أسبابًا عديدة تحول دون استئناف صدور المجلّة في المستقبل القريب، وربّما البعيد. لكنّنا نستلهم الأمل الواقعيّ من سماح، وقولَه في افتتاحيّته الأخيرة: « قد نتأخّر في الإصدار الثقافيّ... وقد نتعثّر. وقد نسقط. لكنّنا سنحاول دومًا أن ننهض ونواصل. ليس لأنّنا أبطال...[بل] لأنّنا ببساطة، لن نرضى بأن نهدي الأوغاد والمرتزقة والعملاء والخونة والسارقين متعة الرقص على جثثنا وأحلامنا.» ونحن نقول: قد لا ينبت لـ *الآداب* أجنحةً جديدةً لتحلّق بها إلى حين، لكن مهما طال الانتظار، لا خوف على *الآداب* من ألسِنة الحُسّاد وندوب الدهر؛ فبِفضْل سهيل إدريس، ومن ثمّ سماح إدريس، لـ *الآداب* إرثٌ منيعٌ يحميها.

هيئة تحرير العدد

سماح المثقّف المُلتزم

٨ البوصلة ..... سماح إدريس

١٠ عن الأمل الواقعيّ ..... سماح إدريس

١٢ المثقَّف المفرد بصيغة الجمع ..... فيصل درّاج

١٤ مجلَّة *الآداب* في كَنَفِ سماح إدريس: ضوءُ البَيْت وأفقُ العالم ..... رلى الجردي

٢٥ عروبة سماح إدريس في إنسانيَّته ..... خريستو المرّ

٢٨ سماح إدريس في مرآة رئيف خوري: المبدأ والمنهج ..... هشام صفي الدين

٣١ سماح إدريس والمقاطعةُ: من شعارٍ وفكرة إلى توثيق وعمل ..... هشام البستاني

٣٤ موقع المثقَّف بين الجماهير والسلطة ..... أميرة سِلمي

٣٨ الرائد في دراسات الثقافة السياسيَّة ..... محمد جمال باروت

٤١ المقاطعة والخيار الثالث في الانتفاضات العربيَّة ..... علاء اللامي

٤٤ *آداب* سماح إدريس: إيقاد الفكر ومقارعة التفاهة ..... بيسان طي

٤٧ اعتبر فلسطين قضيَّته وقضيّة كلّ عربي ..... حوار مع صلاح صلاح

البوصلة[1]

منذ بداية الأزمة السوريّة سنة ٢٠١١ اتُّخذتْ فلسطينُ محورًا بارزًا للجدال بين مختلفِ الفرقاء السياسيين. أنصارُ النظام السوريّ اعتبروا أنّ حمايتَه جزءٌ من حمايتها، وأنّ إسقاطَه يَهدف ـ من ضمن استهدافاتٍ أخرى ـ إلى إسقاطها وإسقاطِ المقاومة وفكرةِ المقاومة ضدّ العدوّ الإسرائيليّ. بعضُهم طَرح شعارَ «فلسطين هي البوصلة،» ولكنّ غالبيّة أقوالِه وتصرّفاتِه منذ اندلاع الأزمة أظهرتْ أنّ شعارَه الفعليَّ أخْرى بأن يكون «النظام هو البوصلة.» وفي المقابل، اعتَبَرَ معارضو النظام أنّ فلسطين ـ شأنَ شعاراتِه الأخرى كالقوميّة والاشتراكيّة والممانعة ـ قناعٌ لستر تسلّطه وفسادِه، واتّضحَ مِن خطابهم أنّ بوصلتَهم الفعليّة هي «إسقاطُ النظام.»

الجدالُ بين طرفَي النزاع، وحلفائهما العربِ من الجانبيْن، مفهومٌ وطبيعيّ؛ ففي كلّ نزاعٍ تَحشد الأطرافُ المتنازعةُ ما أمكنها من حججٍ ووقائعَ (وتصوّراتٍ واختلاقاتٍ) لتعزيز موقفِها. ما لا نراه مقبولًا أو صحّيًّا في الجدل الثقافيّ ـ السياسيّ الراهن، من موقعنا كمنخرطين في القضيّة الفلسطينيّة، هو أن تؤخَذَ فلسطينُ، بما هي فكرةُ تحرّرٍ وانعتاقٍ من الظلم الإسرائيليّ والدوليّ، بجريرةِ أيِّ ظالمٍ أو فاسدٍ، أكان سوريًّا أمْ فلسطينيًّا أمْ غيرَ ذلك.

بتعبيرٍ آخر: إذا كان «فرعُ فلسطين» في دمشق قد اشتُهر بالتوقيف والتعذيب، فينبغي ألّا يفضيَ ذلك إلى مماهاته بفلسطينَ نفسِها! ذلك لأنّ مماهاةً كهذه عبثيّةٌ وظالمةٌ وغبيّة، وهي ـ بدلًا من أن تسرِّع في خلاص الشعب السوريّ من أزمته المتمادية (المتعدّدةِ الوجوه) ـ تَخْلقُ خصومةً غيرَ ذاتِ معنًى ولا فائدةٍ بين سوريا وفلسطين، أو بين حريّةِ الأولى وتحرّرِ الثانية.

❖ ❖ ❖

وعلى صلةٍ وثيقةٍ بالسطور السابقة، فإنّنا لا نفهمُ مغزى إجراء المقارنات السقيمة بين أعدادِ ضحايا النظام السوريّ في صفوف السوريين واللبنانيين والفلسطينيين، وأعدادِ ضحايا الصهيونيّة في صفوفِ هؤلاء (وغيرِهم)، للخلوص إلى أنّ النظامَ السوريَّ أسوأُ من العدوّ الإسرائيليّ؛ وكأنّ على أنصار النظام انتظارَ المزيدِ من الجرائمِ الإسرائيليّةِ الضخمة «ليتأهّلوا» لدخولِ المرحلة الأولى من المباراة الوحشيّة!

خطورةُ هذه المقارنات لا تقتصر على التقليل من هوْلِ الجرائمِ الإسرائيليّة المستمرّة منذ العام ١٩٤٨، بل تتعدّى ذلك لكي تصيرَ سلاحًا إضافيًّا في أيدي أنصارِ العدوّ في العالم من أجل تبيان خطأ الدعوة إلى مقاطعة إسرائيل، «المتسامحةِ» جدًّا، في رأيهم، مع الفلسطينيين، مقارنةً بنظام الأسد، الذي هو أَوْلى ـ بحسب هذه المقارنات ـ بالمقاطعةِ والعقابِ العالميّيْن، هو وحلفاؤه في إيران ولبنان بشكلٍ خاصّ.

كما أنّ مباراةَ الأرقام تفيد عربَ التطبيع، الباحثين عن مادّةٍ إضافيّةٍ في أطروحتهم (العلنيّةِ اليوم)، لتنصيب إيران و«الشيعة» عدوًّا مكانَ إسرائيل: فما المانعُ من اللقاءِ بإسرائيل، بل التحالفِ معها أيضًا، وهي «أهونُ

(١) مجلة الآداب، https://tinyurl.com/mpdkfx29

الشرّيْن» في كلّ حال، إذا كانت ستخلّصُنا من ظلمِ الأسد وإيران وحزبِ الله والحشدِ الشعبيّ العراقيّ و«الشيعة»...؟

بيْد أنّ مباراةَ الأرقام هنا تُغفل حقيقةَ السياسات الإسرائيليّة، التي تتعدّى السيطرةَ على حدودِ فلسطين الجغرافيّة لتكون طليعةَ الهيمنةِ الإمبرياليّة على مقدّرات الوطن العربيّ بأكمله، نفطًا وغازًا بشكل خاصّ. مباراةُ الأرقام تحوِّل الكيانَ الصهيونيَّ من عدوٍّ وجوديّ، تاريخًا وحاضرًا ومستقبلًا، إلى حليفٍ تكتيكيٍّ (في الحدّ الأدنى) لمواجهةِ عدوٍّ داخليٍّ وإقليميٍّ «أشرسَ» و«أوْلى» بالمواجهة الحاليّة.

❖ ❖ ❖

ختامًا، فلسطين ينبغي ألّا تكون غطاءً للاستبداد العربيّ، مثلما أنّ الاستبدادَ العربيَّ ينبغي ألّا يكون ذريعةً للتطبيع مع إسرائيل (والتخلّي الكامل عن فلسطين). تحرير فلسطين ليس حذلقةً خطابيّةً نتمترس وراءها لقمعِ خصومِنا الداخليّين، والاستبدادُ الداخليّ ليس رايةً برّاقةً نرفعُها كلَّ دقيقةٍ فيما نحن ماضون إلى التحالفِ «التكتيكيّ» مع إسرائيل.

المسألة هنا ليست مساواةَ مستبدٍّ بمحتلّ: فمعاداةُ الاستبداد (في أيِّ دولة) ينبغي أن تنحصرَ بنظامٍ محدّدٍ ومؤسّساتٍ محدّدة وشخصيّاتٍ محدّدة؛ أمّا معاداةُ الاحتلال، وخصوصًا إذا كان ذا طبيعةٍ تهجيريّةٍ وإحلاليّةٍ وعنصريّة شأنَ الاحتلال الإسرائيليّ، فمرتبطةٌ بمعاداةِ كيانٍ كاملٍ ـ جيشًا، وأجهزةً أمنيّةً، واقتصادًا، وسياحةً، وإعلامًا، ومهرجاناتٍ فنّيّةً، ومؤتمراتٍ ثقافيّةً، ويمينًا، و«يسارًا» (زائفًا)، وجامعاتٍ بُنيتْ على أرضٍ مسروقةٍ «طُهِّرتْ» من شعبِها الأصليّ لصالحِ أشتاتٍ من العالم لا تمتّ إلى الأرض المغتصَبة إلّا بصلةِ الغيْبِ أو الخرافة.

المسألة، ببساطة، قديمةٌ حدَّ الملل، ولكنْ يتوجّب تكرارُها كلَّ حين: أنّ الحريّةَ في الداخل، والتحرّرَ من الخارج، عمليّتان متلازمتان ومترابطتان، ولا تحلّ إحداهما مكانَ الأخرى تحت ذريعةِ «المعركة» أو «الأولويّة» أو «الواقعيّة» أو أيّةِ ذريعةٍ أخرى. «البوصلة» وصفةٌ للتضليل حين تشيرُ إلى التحرّر من الاستبداد «بأيِّ ثمن،» ولو كان الثمنُ حربًا داخليّةً طويلةً لا تُبقي حجرًا على حجر، أو كان الثمنُ تحالفًا مع المجرم الإسرائيليّ العنصريّ. ولكنّ «البوصلة» التي تشير إلى فلسطين على حساب كلّ قضيّةِ حقٍّ أخرى ليست بوصلةَ الأحرار وأنصارِ العدالة الحقيقيّة، ولا بوصلةَ القوميين العروبيين التقدّميين؛ ففلسطين ليست أرضًا يَلزمُ تحريرُها من محتلّيها فحسب، وإنّما هي أيضًا عنوانٌ لمقاومة العسفِ والاحتلالِ والعنصريّةِ في العالم، وهي ـ بشكلٍ أكثر تحديدًا ـ عنوانٌ لمستقبلٍ عربيٍّ تتضاءل فيه أشكالُ الظلمِ كافّةً.

٢٠١٦/٧/٣١

بيروت

عن الأمل الواقعي[1]

إلى الصديق خالد إبراهيم الراهب

يحلو لكثيرٍ من الناشطين العرب، واليساريّين بشكل خاصّ، أن يَقتبسوا من المفكّر الشيوعيّ الإيطاليّ أنطونيو غرامشي عبارةً شهيرةً كان قد اقتبسها بدوره من رومان رولان: «تشاؤمُ العقلِ... تفاؤلُ الإرادةِ.» وكان غرامشي قد استخدم تلك العبارةَ أثناء سجنه الفاشيّ المديد (١١ عامًا)، من دون أن يكونَ لديه كبيرُ أملٍ في إطلاق سراحه.

لكنْ، هل مِن مبرِّرٍ لتشاؤم عقولِ العرب؟ وهل مِن مبرّرٍ لتفاؤلِ إرادتهم؟ فلنبدأْ أوّلًا بتشاؤم العقل.

هل لتشاؤم العقل مسوِّغاتٌ عربيّة؟ بالتأكيد. فلا شكّ في أنّنا نعيشُ (أو بالأحرى نموتُ) في سجنٍ أسوأَ من سجنِ غرامشي، لكونِه محاطًا بمحتلّين أجانبَ وناهبين نيوليبراليّين وإرهابيّين أصوليّين «أمميّين» ومستبدّين وفاسدين وطائفيّين داخليّين. ولا شكّ في أنّ إمكانيّةَ الفرار من هذا السجن تزدادُ صعوبةً. صحيحٌ أنّ «الربيع العربيّ» كَسَرَ حاجزَ الخوف من السلطات البوليسيّة، لكنّ تلك كانت البدايةَ فحسبُ في معظم الحالات؛ إذ ما لبثتْ أن حلّتْ مكانَ هذه السلطات أصوليّاتٌ مخيفةٌ، وشُرّعتِ الأبوابُ أمام الاحتلالِ الأجنبيّ وعمليّاتِ النهبِ والتقسيم والحروبِ الداخليّةِ المروِّعة؛ بل يمكن القولُ إنّ «الربيع» المذكور لم يتخلّصْ أحيانًا من تلك السلطات أصلًا لأنّها سرعان ما عادت تحت مسمَّياتٍ مختلفة أو ضمن تحالفاتٍ جديدة.

وفي ما يخصُّ «قضيّةَ العرب المركزيّة،» فإنّ فلسطين لم تعد مركزيّةً ولو على مستوى الخطابِ الرسميّ العربيّ (المنافقِ بدءًا وأبدًا). بل لم تعد فلسطينُ مركزيّةً على مستوى خطابِ كثيرٍ من فصائل «المعارضة» العربيّةِ المشغوفة ـ على حين غرّةٍ في بعض الحالات ـ بالديمقراطيّة ولو على حساب السيادة الوطنيّة، وبالعروبةِ ولو على حساب ملايينِ العرب، وبنبذِ العداء للاحتلال الأجنبيّ ولإسرائيل بذريعة «الأولويّات» المحلّيّة العاجلة.

وأمّا الإنتاجُ الثقافيّ والاستهلاكُ الثقافيّ والإنتاجُ العلميّ العربيّ، وغيرُ ذلك ممّا يعتبرُه البعضُ حجرَ الزاوية في رقيّ أيِّ أمّةٍ من الأمم، فلا جدالَ في أنّها في تراجعٍ مريع، سبق أن فصّلنا ظواهرَه وأسبابَه المحتملةَ في غير مقالٍ أو مقابلة.

لسنا في هذه السطور القليلة في معرض بسْط مسوِّغات التشاؤم العربيّ؛ فهي أكثرُ من أن تُحصى، وما عرضناه ليس إلّا بضعَ مؤشّراتٍ دالّةٍ على بؤس الواقع العربيّ بشكلٍ عامّ، علمًا أنّنا لم نتطرّقْ إلى بواعثِ تشاؤم قد تكون أكثرَ دلالةً: كارتفاع البِطالة، وانخفاضِ معدّلات النموّ الاقتصاديّ، وازديادِ معدَّلاتِ الفقر، وتواصلِ «نزيف الأدمغة،» وانتشارِ الشعوذة والمشعوذين، وتفاقمِ حالات الكره المذهبيّ والإثنيّ. ولسنا، في المقابل، في صدد تعدادِ بعضِ المؤشّرات الإيجابيّة المضادّة، وعلى رأسها: تجدّدُ حركة الاحتجاج الشعبيّ الأصيل في غير قطرٍ عربيٍّ (تونس، مصر، ...)، وفشلُ التطبيع الشعبيّ مع العدوّ في كلّ الأقطار العربيّة بلا استثناء (بما في ذلك داخل «أمِّ الدولِ المطبِّعة،» قطَر)، وبروزُ حالاتٍ إبداعيّةٍ شابّةٍ على مستوى الإنتاج القصصيّ والروائيّ بشكلٍ خاصّ (نتلمّسُها بوضوحٍ كناشرين ومحرِّرين)، وتصاعدُ حركة المقاطعة العالميّة للسياسة الإسرائيليّة وللمؤسّسات

(١) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/yduym4v4

الداعمة للكيان الصهيونيّ. ما تهمّنا الإشارةُ إليه هنا هو أنّ تشاؤمَنا المطلق هو أحدُ الأسباب التي أوصلتنا إلى ما نحنُ عليه من بؤسٍ على صعدٍ كثيرة. بمعنًى آخر: تشاؤمُنا «العقليّ،» حين لا يرى في المشهدِ العامّ إلّا الظلامَ والانسدادَ العميميْن، سيَسْتتبِعُ على الأرجح نكدًا وسوداويّةً عميميْن، فقعودًا كاملًا عن النضال، ليصيرَ هو ذاتُه (أي التشاؤمُ العقليّ) جزءًا لا يتجزّأُ من قوى التكبيلِ والتعويقِ والاضطهاد التي تحيطُ بسجننا و«تَحْرسُه» وتؤبِّدُه.

❖ ❖ ❖

ماذا عن تفاؤل الإرادة الآن؟ ماذا نقول عن أولئك الذين لا يكلّون ولا يملّون من التظاهرِ والاعتصام وكتابةِ البيانات ورشقِ الحجارة والتعرّضِ للضربِ والتعذيبِ على يدِ الاحتلال أو أنظمةِ العسفِ العربيّة، وما بدّلوا تبديلًا؟ ماذا نقول عن أسرى يقبعون في السجونِ العربيّة أو الإسرائيليّة أو الأوروبيّة (أمثال جورج إبراهيم عبد الله) منذ ثلاثة عقودٍ كاملة لأنّهم رفضوا أن يتعهّدوا أمام جلّادِهم بأن «يَعْقلوا» و«يتوبوا» عن طلبِ الحقّ والحريّة والعدالة لشعبهم؟ أنقول إنّهم مجانين؟ متهوّرون؟ رومانسيّون لا ينتمون إلى عصور الواقعيّة والتعقّل السائدة؟

سنقول، في كلّ الأحوال، إنّهم استثناءاتٌ مشرِّفةٌ في الواقع العربيّ الراهن، أيْ إنّهم الآن لا يَعْكسون (بالمعنييْن: التمثيل والقلْب) حالَ الركودِ أو التراجعِ في غالبيّة الدوائر الشعبيّة والسياسيّة العربيّة. أمّا «سوادُ الناس،» فلكي يتملّكَهم «تفاؤلُ الإرادة» الغرامشيُّ، فإنّهم يحتاجون إلى إنجازاتٍ على أرض الواقع، وإلّا بات تفاؤلُهم محضَ تضليلٍ ذاتيٍّ يذكِّر بالشعارات المستهلَكة عن «حتميّةِ الانتصار» أو «انبلاجِ الفجر بعد الليلِ مهما طال.» بل إنّ تفاؤلَ الإرادة، المجرّدَ من المعرفةِ الجيّدةِ بالتاريخ وتجاربِه الناجحة ومعوّقاتِ الانتصار وعواملِ الانتصار، قد يغدو عائقًا دون هذا الانتصار، وحجرَ عثرةٍ أمام التفكيرِ النقديّ والقراءةِ الموضوعيّة. تفاؤلُ الإرادة من دون عقلٍ يقظٍ سيكون تفكيرًا رغبويًّا لا يُسْمن ولا يُغْني من جوع، وَصْفةً «أخلاقيةً» للثباتِ على الصراط السياسيّ المستقيم (political correctness).

❖ ❖ ❖

شخصيًّا كنتُ وما أزال متشائمًا، ولكنّني كنتُ وما أزال أعتقدُ أنّ عدالةَ الأهداف تستلزمُ ما قد يتخطّى التفاؤلَ والتشاؤمَ أحيانًا. لذا حوّرتُ، منذ أكثر من عقدٍ، شعارَ غرامشي، بل جعلتُه مبدأً يهدي حياتي كعاملٍ في الشأنيْن الثقافيّ والسياسيّ: «تشاؤمُ العقل... عدالةُ القضيّة.» فعدالةُ القضيّة التي نناضلُ من أجلها (وهي، بالنسبة إليّ، تحريرُ فلسطين في الدرجة الأولى) جديرةٌ بكلِّ الجهدِ والوقتِ والمال، بغضِّ النظر عن تشاؤمِنا أو تفاؤلِنا. ولطالما ربطتُ هذه المقولةَ المحوَّرةَ بقول الإمام عليّ «لا تستوحِشوا طريقَ الحقّ لقلّةِ سالكيه» ـ وهو قولٌ كثيرًا ما ردّده حكيمُنا الغالي الدكتور جورج حبش كلّما ادلهمّ الظلامُ. لكنّني مقتنعٌ اليوم بأنّ هذه «الخلطة» الفكريّة نخبويّةٌ جدًّا، بمعنى أنّها لا تقدِّم حوافزَ كافيةً لانخراط سوادِ الناس في معترَكِ النضال. وإنّني لأحسبُ أنّ معظمَ الناس لا يكفيهم «تفاؤلُ الإرادة،» ولا الإيمانُ بـ«عدالة القضيّة،» لكي يبذلوا الغاليَ والنفيسَ من أجل هذه القضيّةِ أو تلك، بل يحتاجون أولًا إلى أن يثقوا بقدرتِهم على التغيير، وأن يتوفّروا ثانيًا على قادةٍ يثقون بوعيهم وإخلاصِهم ونزاهتِهم وحنكتِهم وطُولِ نفَسهم، وأن يعوا ثالثًا (وهذا هو الأمرُ الأهمُّ في مجرى حديثنا) أنّ ثمّة «أملًا واقعيًّا» في انتصارهم في نهايةِ المطاف، أملًا يستندُ إلى القراءةِ المعمّقةِ لتجاربنا وتجاربِ حركاتِ النضال العالميّة، وإلى التحليل الحاذقِ والمركّب، فيَشعروا أنّ تضحياتهم لن تَذهبَ هدرًا... أو لحشوِ جيوبِ «قائدٍ» انتهازيٍّ فاسد.

هنا تصبح مهمّةُ الناشطين والمثقفين الميْدانيّين والعضويّين حاسمةً: أن يقدّموا إلى الناس مثلَ هذا «الأملِ الواقعيّ،» المستندِ إلى حقائق الأرضِ والتاريخ، لا إلى السذاجةِ «النضالويّة» الزائفة. عندها، سيتقدّم الناسُ، بثقةٍ أكبرَ وجسارةٍ أصلبَ، نحو ساحاتِ التغيير الحتميّ.

٢٠١٦/٤/١٧
بيروت

المثقَّف المفرد بصيغة الجمع

فيصل دراج*

سماح إدريس في جامعة كولومبيا

لا شيء يَثْقُل على القلب مثل رحيل مفاجئ لإنسان بادلناه الثقافة، وعلّمناه وتعلّمنا منه. ولا شيء يبعث في الروح كآبةً عاريةً، مثل غياب صديق عزيز يصغرنا عمرًا، لم نرَه منذ زمن.

بيني وبين سماح فرق في العمر، يقارب العقدين. لم أرَه منذ عشر سنوات وأكثر، وإن كنّا تبادلنا، غير مرّة، حديثًا هاتفيًا، دافئ النبرة قليل الكلمات. كنّا نصطدم، في الحالين، بفعل: كان، البارد القاسي القارض الأسنان الذي يلتحف بحكايات كثيرة، وبذكريات متداخلة الوجوه.

لا أذكره، بعد فعل كان، إلّا شابًّا نحيل القامة، تمسك يدُه بفتاة صغيرة، ربّما كانت طفلتَه، أو مخلوقًا جميلًا حسبته ابنة له. ولا أذكره إلّا وبدا بهاجسٍ سياسيّ، أو ثقافيّ ـ سياسيّ، يسائل عالَمًا عربيًا كلما ظنّنا أنّه تقدّم، أسرع راجعًا إلى الوراء.

التقيته، للمرّة الأولى، في دمشق، في نهاية ثمانينات القرن الذي مضى، جالسًا في فندق أميّة، إلى جانب الراحل عبد الرحمن منيف. كان مشدود القامة، مقتصدًا في الكلام. يتحدّث عن رئيف خوري، لبنانيّ جميل آخر، ويعلن أنّه بصدد إعداد دراسة عنه، أو ربّما رسالة جامعيّة. كان الحديث عندي عن رئيف، ولا يزال، حديثًا عن النور والتفاؤل والثقة بالمستقبل. وكانت **دار الآداب**، وبرعاية من سهيل إدريس، قد نشرَت كتاب رئيف **الأدب المسؤول**؛ كلمتان نظيفتان استعملهما رئيف حين ترجم، في زمن أوغل في البِعاد،

* ناقد وكاتب وباحث فلسطينيّ.

كتابًا للسوفيتيّ أندريه جدانوف، وكان عَلَمًا في ماضيه المندثر.

التقيت سماحًا ثانية، في دمشق، يتكلّم عن مجلّة *الآداب* ورغبته بتطويرها، وتجديد مواضيعها. وعن ضرورة تحويلها إلى «منبر ثقافيّ عروبيّ،» يعالج «قضايا الأمّة» بلغة واضحة تفتقد إلى الأقنعة: تتجرّأ على الثقافيّ العربيّ المسيطر، وتأتي بجديد نقديّ. كان ذلك قبل ثلاثين عامًا، وقبل أن تختبرنا الحياة بمآسٍ متوقّعة وغير متوقّعة، يتوسّطها عراق كئيب الأقدار، عبثَ بذاته وعبثَ غيره به. وقضيّة فلسطينيّة كَبَتْ ولم ينتبه «فلسطينيّون» إلى كَبوَتِها، ووقعَت في ما لا يجوز أن تسقط فيه. وفي وسط الحديث، كان سماح حاملًا أشواقَه وأحلامه، ووجوهًا من النزق متعدّدة، محرّضًا مؤمنًا. دفعني، ودفع غيري، إلى كتابة منتظمة في *الآداب*، حتّى غدت الملجأ الركين، الذي أنشر فيه ما لا أستطيع نشرَه في مواقع أخرى.

كان يقتات، بتصميم كبير، بالسياسة. ويوزّع عليَّ أشياء من هذا القوت الذي كنت أزدرده تارة براحة، وأخرى بصعوبة؛ ذلك أنّني كنت تآلفت مع إيقاع «النكبة،» قبل زمن طويل.

كان سماح يسمح لنا، وقد غدا مديرًا فعليًا لمجلة *الآداب*، أن نلجأ إلى كلمات: الحرّيّة والتبعيّة والاستبداد والفساد والعطن والركود واغتيال الأرواح والأفكار... كما نريد. وكنت أتسلّح بإحباطي، وأرثو القضيّة الفلسطينيّة كما أشاء. أعطى سماح القضيّة حيّزًا واسعًا في مجلّته، وطّده بمقالات كان يترجمها، وبأقلام فلسطينيّة من المنفى الصغير، والمنفى الكبير، ومن «عرب الـ٤٨» وفلسطينيّي الضفّة. وبمساهمات من إدوارد سعيد الذي كان أستاذ سماح في جامعة كولومبيا.

كان سماح سياسيَّ المنظور حين استعاد ذكرى رئيف خوري. وسياسيَّ المغترَب وهو يتحدّث عن إدوارد سعيد. وسياسيّ النظر وهو يدافع عن «فَلسطِينِه» التي لها فلسطينيّوها الموزَّعون على إيمان ومصالح، ومصالح إيمانيّة أيضًا. وهو في كلّ ذلك مواصلٌ حرارة شبابه العروبيّ، ومستأنفٌ قناعات والده سهيل الذي شطّ في أحلامه، في روايته الأولى **الحيّ اللاتيني**، وواجَهَ الحضارة الأوروبيّة «المتداعية» بحضارةٍ بديلة، ناصعة، تخلقها الأرواح العربيّة القوميّة.

أذكره اليوم، وسأذكره، مثقّفًا وطنيًّا عربيًّا، بسيط الهيئة مشتعل الروح. يرصد نكبات عربيّة لا تنتهي، وكتابات عالميّة عن التحرّر، واجتهاداتٍ عربيّة تحاذر الاستسلام، و«كتابات نظريّة» فلسطينيّة، تَعرفُ من أين تبدأ ولا تعرف إلى أين تنتهي. نشر لي سماح كتابيّ الأوّل عن الشأن الفلسطينيّ، **بؤس الثقافة في المؤسّسة الفلسطينيّة**، ولم يكن مرتاحًا إلى كتابٍ آخرَ لي نشرَهُ، هو رواية **التقدّم واغتراب المستقبل**؛ قال: كان من الواجب أن تفتح نافذةً على الأمل، ذلك أنّك تردّد: خُلقَ الأملُ لهؤلاء الذين لا أمل لهم. أجبته: إنّني فقدت الأمل المريح، واكتفيت بآمال اليائسين. أجاب غاضبًا: هذا كلام يجب أن نرفضه. ما زلتُ أحاول رفضَه معتقدًا أنّ في روح الشباب ما يهزم تداعي الشيوخ، ولقد غدوتُ شيخًا. لذا، لا أرى، ولن أرى، سماحًا إلّا شابًّا، يواجه كلّ تساؤل غير سياسيّ بحكمة سياسيّة، توحّد بين النظر والعمل. ويحتفي بفضيلة العمل ويتساهل في المردود؛ فالمثقّف الوطنيّ نقدٌ وتنسيقٌ واستنهاضٌ في التحديد الأخير، يتعامل مع الصحيح لا مع المفيد، كما كان يقول.

كان سماح مفردًا بصيغة الجمع، كما يُقال، يهجس بقضايا ثقافيّة تحرّريّة متعدّدة. سألته مرّةً: ألن تضيفَ إلى أطروحتك الجامعيّة التي عالجَت حرّيّة الكتابة والرقابة السلطويّة؟ أجاب بضحك أقرب إلى السخرية: عندي المجلّة، وفكرة عن أدب للأطفال، وعندي «القاموس» الذي يستهلك جزءًا كبيرًا من وقتي. كلّ ذلك يحتاج إلى عمل دقيق لا استعجال فيه. وعندي موضوع «العروبة الجديدة» الجدير بحوار طويل. كان يشير إلى «أيديولوجيا قوميّة عربيّة سقطت،» أو أُسقطت، أصابها الكُساح ولن تقف إلّا على قوائم فكريّة مختلفة.

أذكر بوضوح، تعامله مع الكتب التي تنشرها دار الآداب، وحرصه على «تعشيب النصّ» من الأخطاء اللغويّة والنحويّة، إذ كان في عمله ناقدًا ومحرّرًا وناشرًا ومسؤولًا عن «رسالة الكتابة.» أذكر حيرته أمام بعض الروايات: هل تُنشر كما أنتجها صاحبها، أم تحتاج إلى بعض الاختصار؟ كان يردّد أنّ دور النشر الغربيّة لديها وظيفة «المحرّر» الذي يتعامل مع النصوص لا مع أصحابها.

رحل سماح في زمن ثقافيّ عربيّ عصيب، نحتاج فيه إلى أمثاله. خلّف وراءه «مجلّة لها رسالة،» ودار نشرٍ تدافع عن قضيّة، و«تاريخًا ثقافيًّا لآل إدريس» جديرًا بالاحترام والاستمرار.

يقول الأفارقة: حين يرحل عجوز تغيب معه مكتبة. آثر سماح أن يرحل شابًّا، وترك وراءه مكتبة متواترة التناسل. لم ترحل معه مكتبةٌ، إنّما فقدنا صديقًا وصداقة، لا يعوّضان؛ صديقًا ما زلتُ أتخيّله شابًّا وإلى جانبه طفلة تشبهُهُ، تنظر إلى الشمس.

عمّان

مجلَّة الآداب في كَنَفِ سماح إدريس: ضوءُ البَيْت وأفقُ العالم

رلى الجردي*

في عام ١٩٩٢، تبوَّأ سماح إدريس منصب رئاسة تحرير مجلَّة *الآداب*، بعد عامين من أفول الحرب في لبنان، وحلول سِلمٍ لم يُخمِد عللَ الانقسام، أو يحقّق آمالَ جيلين في بناء دولة علمانيَّة ذاتِ ثقافةٍ تقدّميَّة وطنيَّة ومجتمع عادلٍ. وكان سهيل إدريس، مؤسّسُ المجلّة ورئيس تحريرها قبله، قد رسم معالم الطَّريق، وعايدة مطرجي، مديرتها، قد أذكتها بحكمتها، هي التي عرفت أثمان الحريّة الثقافيّة الشاقّة. لقد حمل سماح هذا الإرث الثقافيّ العريق لِيُضيفَ إليه تجاربَ عميقةً متفاوتةً: أوَّلًا، كمفكِّر يساريّ عربيّ انخرط باكرًا في العمل السياسيّ الكفاحيّ في لبنان؛ وثانيًا، كأديبٍ وصحفيٍّ ملتزم، كانت مجلَّة *الآداب* وبعدها دار الآداب، تجسيدين وإنْ مختلفين لهذا الالتزام؛ وثالثًا، كأكاديميّ نال الدكتوراه في دراسات الشرق الأوسط (مع تخصّص في الأدب العربيّ) من جامعة كولومبيا في نيويورك، ليتعرّفَ خلال سنوات الدراسة إلى شرائح نضاليَّة متنوّعة وسط صراعٍ محتدم ضدّ الصهيونيّة والتمييز العنصريّ؛ ورابعًا، كأبٍ لابنتين كَبُرَ معهما شغفُه بأدبِ الأطفال، وبالكتابة لهنّ ولهم.

صقلَت هذه التجارب مواهبَ سماح الشخصيَّة، وحاكت على مدى عقود ثلاثة (١٩٩٢ ـ ٢٠٢١) تطلّعاتِ *الآداب* وعلاقاتها بكاتباتها وكُتّابها وقُرّائها وقارئاتها ومحبِّيها، ما صنع منها «البيت» الذي لجأ إليه سماح واهتدى بضوئه في اتّخاذ المواقف، ومواجهة الخصومات. و*الآداب* كانت ترسم أفقها العالميّ من خلال بحوث ونصوص أدبيّة وفنيّة وفكريّة مترجمةٍ من لغات أجنبيّة إلى العربيّة. وأدّت تجارب سماح الشخصيّة والفكريّة في نيويورك، إلى اهتمامه بتراثات شمال أميركا المقاومة للعنصريّة والاستعمار[1]، فكانت هذه التراثات من أكثر النُّجوم سطوعًا في سماء المجلّة. مرّت المجلّة بأربع حقبات تحت إشراف سماح، نستطيع أن نميِّزَها بوضوح. وقد عكست تحوّلات أساسيّة في طبيعةِ مقالاتها الفكريّة ـ السياسيّة، وتوجّهاتِها الأدبيّة والفنيّة، وكذلك هيئتَيْها الورقيَّة والإلكترونيّة.

برايتن برايتنباخ، «پورتريه ذاتيّ مقنَّع» (١٩٩٠)
الآداب ١٩٩٧

النَّقد والإبداع، ١٩٩٢ ـ ٢٠٠٠

«نبضُ الشارع الثقافيّ هو عصب المجلَّة الثقافيّة الفاعلة: لكنّ هذا النّبض لا يخلو من فَوَرانٍ، وسِبابٍ، وضيق صدرٍ بالجديد، وتكلُّس عند القديم، وتنطُّح، ومغالاة، وسوء استعمال للمراجع، وجهل باللُّغات الأجنبيّة (ولا سيّما الإنكليزيّة). وفي المقابل ثمّةَ جانبٌ آخر مِن «المشهد الثقافي» يمثِّله الكُتّابُ المغرَقُون في الخضوع للنظريّات النقديّة الغربيّة، وفي نبذ كُلّ ما عداها، وإشعارِك بالغباء إن لم تمتثل لكلِّ حرف خطَّه هابرماس أو دريدا أو ادوارد سعيد.» [2]

سماح إدريس

* دَرَستْ علمَ الإنسان في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وأنهت دراسة الدكتوراة في التاريخ الإسلاميّ والأدب العربي المعاصر في جامعة يال في أمريكا سنة ١٩٩٨. تعمل أستاذةً للتاريخ الإسلاميّ في جامعة ماكغيل في مونتريال منذ سنة ٢٠٠٤. لها ديوانان: **غلاف القلب** (٢٠١٣)، و**كليلى أو كالمدن الخمس** (٢٠١٥). حصلتْ على عدّة منح علميّة وجوائز، منها جائزة «رتبة شرف لأفضل أطروحة دكتوراه» و«التفوق المبكّر في الإنجاز الثقافيّ.» صدرت لها رواية **الكثافة** (دار نلسن)، وروايتا **في علبة الضّوء** و**مئة رعشة** (دار الآداب). حصلت روايتها في علبة الضّوء على جائزة خيرالله للإبداع الفني في الرواية، واختيرت قصيدتها النظرة للقائمة القصيرة لجائزة مونتريال العالمية للشعر ٢٠٢٢.

انطلقت *الآداب* حاملةً همومًا متناقضة، أهمّها نقد أشكال الالتزام السياسيّ ـ الثقافيّ السالفة، وصياغة ركائز بديلة لها.[٣] وسعَت المجلّة إلى تشريح عدد من القضايا المحوريّة، كأصول الاستبداد داخل الأوطان العربيّة، وقيمِ النّظام العالميّ المهيمنة، من إلحاقيّةٍ للشعوب الضعيفة، وتفتيتٍ للأطراف، وتعزيز للعنصريّة الصهيونيّة. من هنا، أحيَت *الآداب* مقالاتٍ قديمة،[٤] تذكّر بالثابتين؛ تلك القلاع الثقافيّة التي لا تلين أمام العاصفة، مثل رئيف خوري[٥] وغسّان كنفاني[٦] وسهيل إدريس[٧] وغالب هلسا[٨] وحسين مروّة.[٩] وأضافت آخرين وأخريات إلى هذه اللائحة، مثل نوال السّعداوي[١٠] ورضوى عاشور[١١] وناجي العليّ[١٢] الذي وصفه سماح بأحد الغائبين الأحياء. ولعلَّ مقال رئيف خوري الذي هاجم فيه بعض «علّات» الأدب الملتزِم،[١٣] يكشف عن رؤية سماح ذاتِها حول ضرورةِ الاهتداء بالإبداع الحقيقيّ والصّدق، بعيدًا عن الالتزام المُبتذَل والخاوي. ومن باب تعميقِ أبعاد الالتزام الأممية، عُنيَ سماح بترجمةِ عددٍ كبير من المقالات الفكريّة والسياسيّة من الإنكليزيّة إلى العربيّة، ومنها «حقّ الاختلاف: برايتن برايتنباخ... يواجه نلسون مانديلا!»،[١٤] ومقال لِنَعوم تشومسكي حول مجازر صبرا وشاتيلا بالتّعاون مع أيمن حنّا حدّاد،[١٥] ونصّ لِكورنل وِست[١٦] رافق ملفَّ «ثقافةِ السّلام والعنف والتحرّر الوطنيّ.»

ارتبطت بعضُ الملفّات الأدبيّة بالملفّات السياسيّة للأقطار العربيّة، مثل الملفّ المتعلّق بالعراق «المحاصَر بالجوع والعطش والإرهاب» سنة ١٩٩٢ وسنة ١٩٩٩.[١٧] في الوقت ذاته، كرَّست *الآداب* ملفّات مستقلّة منها للأدب المغربيّ الحديث، احتوت على أعمال لِلطيفة باقا ومحمد برادة وعبد الفتاح كيليطو وعبد الكريم برشيد وغيرهم/هنّ. وأخرى للأدب السّعوديّ الحديث، فقَدّمت قراءةً في مجموعتيّ أميمة الخميس وبدريّة البشر القصصيّتين.[١٨] كما نشرت *الآداب* ملفًّا حول الأدب الموريتانيّ الحديث، بمساعدة الروائيّ موسى ولد ابنو،[١٩] وآخر حول الحركة الأدبيّة في الإمارات.[٢٠] وحملت أغلفتُها صورَ منشورات الدّار، حيث أطلقَت رئيستها رنا إدريس تجاربَ روائيّة فريدة في لبنان والعالم العربيّ.[٢١]

شرّعت *الآداب* كذلك أبوابها لِمساراتٍ تجريبيّة في القصّة القصيرة،[٢٢] واقتفت النتاج المسرحيّ، نصًّا وإخراجًا. وإذ نشرت عددًا كبيرًا من القصائد، لم تفرض رؤيةً شعريّة محدّدة. لكنّ مقالاتها حول «إشكاليّة قصيدة النثر،» عكست انفتاحًا على رؤى إبداعيّة لفظت المتكرِّر المألوف. وحافظ سماح على دور *الآداب* كإحدى المرجعيّات في النّقد الأدبيّ، إذ تحدّث عن انهيار الثوابت القديمة، وظهور أعمال بارزة تتحدّى التجنيس.[٢٣] وحاول استكتاب البعض في مهمّات نقديّة لِقصائد *الآداب*، فكان يفلح أحيانًا ويخفق أحيانًا أخرى، لأسباب عديدة تتعلّق بالمشهد الثقافيّ ـ السياسيّ، والذي أدّى إلى تضاؤل التجديد النقديّ المنفتح على إبداعات ما بعد الحداثة، والمتحرّر من المرجعيّات الأحاديّة

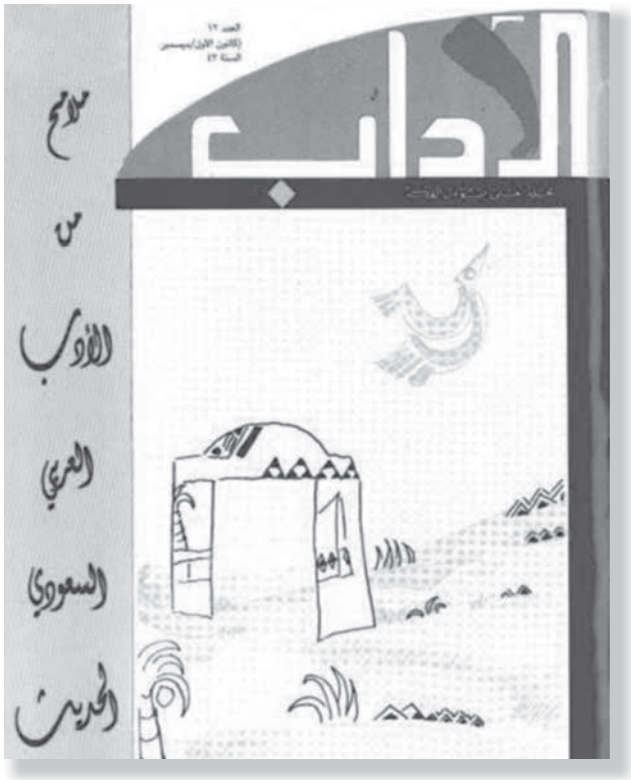

الآداب، العدد ١٢، سنة ١٩٩٥

السابقة. في هذا السياق، عُنيت *الآداب* بنشر مقالات حول علاقة الإبداع والنّقد بالتحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة،[٢٤] كما تناولت التجارب الشعريّة والأدبيّة خلال الحرب اللبنانيّة.[٢٥] وكذلك التراث الأدبيّ المصريّ والحداثة؛ فبحثَ خيري شلبي في أدب الروائيّ عادل كامل وصدامه مع اللّغة.[٢٦] واستقطبَت التجليّاتُ المتناقضة للحداثة أقلامًا عديدة، نوّهت بالجديد في العلاقات اللغويّة وتجسيد عناصر الزمان والمكان.[٢٧] وانبثقت على صفحات *الآداب* أيضًا آراء متضاربة حول «تزكية» أدونيس لِلوهابيّة، وتلميعِه للاستشراق، وحياده غير الحياديّ تجاه ثقافة الاستعمار.[٢٨]

وأولت *الآداب* مؤتمراتِ اتّحادِ الكتّاب العرب الاهتمامَ، كما اتّحادِ الكتّاب اللبنانيّين الذي كان سهيل إدريس أحد مؤسّسيه؛ فاستنكرت حالةَ الشّلل التي أصابت الاتّحاد من جرّاء التبعيّة والتناحر المذهبيّ.[٢٩] وتصدّى سماح في افتتاحيّاته للرّقابة الحكوميّة في لبنان، وتهديدات زعماء الطوائف، شاجبًا وقفَ برنامجين تلفزيونيّين لِسمير قصير وزاقين قيومجيان، مؤكّدًا بأنَّ من يدعم معارضة «مدروسة» ويمنع غيرها، يبرّر القمع والظلم.[٣٠] كما تقاسم مع أهل «البيت،» أي أسرة الآداب، هموم المجلّة والثقافة بمجملها، وما تواجهانه من مصاعب نتيجة غياب الحريّة وإغلاق «الأسواق العراقيّة والليبيّة والجزائريّة،» وارتفاع أجور الشحن والاستكتاب، واصفًا استقلال *الآداب* الماديّ والفكريّ بأنّه ليس «متعة مطلقة» كما يظنّ البعض، بل «عذاب شديد.»[٣١]

الآداب، العدد ٨/٧،
سنة ٢٠٠٢

إيتيل عدنان، «**شاطئ أصفر، سماء حمراء**،» زيت على قماش، ١٩٧٤
الآداب، ٢٠٠٤

التَّجريب الإبداعيّ، الرَّقابة، والاستعلاء الثَّقافيّ: ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٨

«في الأحزاب كنّا ندحشُ دحشًا، في كلّ وثيقة نُصدرها، شيئًا عن المرأة، والبيئة، والمعوَّقين، والديمقراطيّة، لكي لا يظنَّ الآخرون أنّنا متخلِّفون... فترتاح ضمائرُنا عَلَنًا، قبل أن نَقْمعَ نساءَنا، ونوسِّخَ الحدائقَ العامّةَ، ونصفَّ سيّاراتنا في الأماكن المخصّصة للمعوَّقين، ونغتالَ خصومنا بالمؤامرات.»[٣٢]

سماح إدريس

تُعتبر هذه الحقبة من أبهى حقبات *الآداب*، إذ قدّمت دراسات نوعيّة وملفّات نادرة، تخلّلها جهد فريد في التّرجمة. وتصدّى سماح في مقاله الشهير «من الحُفرةِ إلى الحُفرة،»[٣٣] للاستعلاء «الثقافيّ» على أدب الأطفال، راسمًا رؤيته الخاصّة لتراثٍ أدبيّ ـ لغويّ يبتعد عن الزَّيْف والطبقيَّة. انعكست هذه الرؤية في سلسلة من الكتب البديعة التي ألّفها للأطفال، وكان يخطّ آخر سطور قصّته الأخيرة قبل أيّام من رحيله. وذهب سماح بعيدًا في عرض مواضيع مهمّشة وشائكة؛ وبمساعدة يسري الأمير، سُلّط الضّوءَ على تجربة مجلّة **شعر** وما انبثق عنها من مفاهيم وأنماط شعريّة،[٣٤] والمعارك الدّائرة حول المعايير النظريَّة، وعمليّة تقويم «الشّعر الحرّ» و«قصيدة النثر.»[٣٥] واستكمالًا لهذا الجهد الرّائع، عرضت *الآداب* «أزمة الشّعر العربيّ،» (بل أزمة مفاهيم النّقد وآليّاته)؛ فعزا البعض «الأزمة» إلى الأمّيّة والثقافة الشفاهيّة ورقابة السلطة.[٣٦] أمّا الشاعر السّوري محمد ديبو فأكّد أنّنا أمام نماذج مدهشة من الشعر، لكنّها تفتقر إلى الدّعم الثقافيّ المستقلّ.[٣٧]

وحملت صفحات *الآداب* نقاشات مثيرة حول «الحداثة القديمة الجديدة» في النصوص الشعريّة المعاصرة.[٣٨]

دأبت *الآداب* على ربط قضايا التحرّر الفلسطينيَّة،[٣٩] بحركات النّضال اليساريّ العربيّ والعالميّ. فإلى جانب التعليم والاقتصاد والبيئة في لبنان،[٤٠] تناولت البعد الأخلاقيّ والسيّاسيّ للمقاومة الفلسطينيّة المسلّحة،[٤١] والنشاط الثقافيّ والإبداعيّ في الجليل والمثلّث،[٤٢] ومسار المقاطعة.[٤٣] وكرّست ملفّات ثمينة للإصلاح الدّيني،[٤٤] واليسار العربيّ، والطائفيّة والعلمانيّة.[٤٥] فتحدّث أحمد الخميسي عن «وحش الطائفيّة في مصر،» ونصري الصّايغ عن «سيكولوجيّة الإنسان الطائفيّ.» وأفردت *الآداب* أيضًا ملفّات تتناول العروبة والأكراد،[٤٦] والأمازيغ.[٤٧]

وإذ واكبت *الآداب* النتائج الهزيلة التي حصدها اليسارُ اللّبناني في الانتخابات سنة ٢٠٠٨، كتب سماح بأنّ اليسار خسر المعركة «المبدئيّةَ» قبل أن يخوض المعركةَ الفعليّة، وأنّه (سماح)، وبرغم وقوفه في صفِّ المقاومة، لا يرى فارقًا كبيرًا بينها وبين الموالاة، من ناحية غياب العمل الجّاد على بناء الدولة والتأسيس للعلمنة الشاملة، وتَبنِّي الحقوق المدنيّة للفلسطينيّين/ات في لبنان.[٤٨]

وتصدّت *الآداب* لِلرّقابة العربيّة على الإبداع الأدبيّ والسينمائيّ والفنّي،[٤٩] خصوصًا النّسائيّ.[٥٠] فنشرت دراسات أدبيّة متفرّقة،[٥١] ومقالات نقديّة حول الرّواية في تونس،[٥٢] وفلسطين ولبنان،[٥٣] والعراق.[٥٤] ومن أبرز الملفّات المنشورة، «أقنعة الفرنكفونيّة»[٥٥] الذي أعدّته كيرستن شايد، طارحةً فيه الأسئلة حول أفكار اليمين

فاطمة شَرفي، «غولف،» فن تركيبيّ، ١٩٩٢

الآداب، ٢٠٠٤

اللبنانيّ، والهيمنة الأميركيّة الثقافيّة والفنيّة.[٥٦] أمّا في ما يخصّ المشهد الشِّعريّ والقصصيّ والمسرحيّ، فقد ازدادت النّصوص كمًّا ونوعًا؛ فعرضت صفحات *الآداب* قصصًا مميّزة،[٥٧] للنساء فيها حظّ كبير،[٥٨] وعددًا من القصائد التي تخطّت مفردات وأنماط «القديم الحديث.»[٥٩] وبرزت مقالات شيّقة حول السِّينما والڤيديو في لبنان،[٦٠] والفنّ التَّشكيلي العربيّ في حوض شرق المتوسّط،[٦١] والفنّ التشكيليّ العراقيّ،[٦٢] والفلسطينيّ (بين عرب ١٩٤٨).[٦٣] وصدر مقال غنيّ لِسونيا ميشار الأتاسي حول فن إيتيل عدنان،[٦٤] وآخر حول أعمال ڤيرا تماري وپاتريسيا تريكي ونجيب بلخوجا ورنا بشارة وأشرف الزمزمي وعبد القادر الرّسام وغيرهم/هنّ.[٦٥] وفي معرِض حديثنا عن الفنّ، تجدر الإشارة إلى تصاميم حاتم الإمام وفادي باقي وريم الجندي لأغلفة *الآداب* خلال هذه الحقبة، وكذلك دور ميشلين خوري وحاتم إمام في إخراج المجلّة.[٦٦] وقبل انقضاء هذا العقد، ودّع سماح «بابا الدكتور سهيل إدريس» بمقال مؤثّر، جمع جلَّ ما آمن به الأب والابن، بأسلوب سماحيّ بامتياز، مبكٍ مضحكٍ، حانقٍ حانٍ،[٦٧] فعرف أهل «البيت» كيف لوّنت المجلّةُ والدّارُ حياةَ عائلة إدريس، ومَدَّتاها ببهجةِ الثقافة والإبداع، وكذلك بِمشقّةِ رعايتهما.

الانتفاضات العربيَّة في أبعادها الإنسانيَّة والأدبيَّة والفنِّية: ٢٠٠٩ ـ ٢٠١٢

«ما يجري في سوريا من اعتقالٍ وكبتٍ وقتلٍ وتعذيبٍ لا يُمكنْ تبريرهُ ولا السكوتُ عنه، أيًّا كانت الذرائع. أولًا، لا يمكن التسليمُ بأنّ البديل من النظام الحاليّ سيكون (بالضرورة) فوضى مطلقةً، أو نظامًا سلفيًّا، أو تطبيعًا مع العدوّ الإسرائيليّ.»[٦٨]

سماح إدريس

خلال أربع سنوات عاتية، وجدَت *الآدابُ* نفسها أمام سلسلة من أبهى الانتفاضات العربيّة وأقساها (بخاصّة السوريّة التي استولت على تفكير سماح، كما قال، أو كادت)،[٦٩] ما جعلها موادّ للعديد من المقالات الطليعيّة،[٧٠] والملفّات الفنيّة،[٧١] والأعمال القصصيّة.[٧٢] أمّا الإعلانات التي ظهرت على أغلفة **المجلّة** فقد عكست نشاطًا غير معهود في الدّار تحت إشراف رنا، وروّجت لإصدارات بهيّةٍ. وكان حضور القصَّة القصيرة في المجلّة أقوى من القصيدة،[٧٣] فعكس تنوّعًا في تقنيّات السرد وفنّه، كما في «عبور» لِرانية مأمون،[٧٤] و«المسيح العراقيّ» لِحَسن بلاسم،[٧٥] و«الحياة مكتوبة مرّتيْن» لِطارق إمام،[٧٦] و«قصّتان» لِهشام البستاني،[٧٧] و«صوفيا لورين» لِاستبرق أحمد،[٧٨] وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وبلورَ سماح في مقاله «ليس بالممانعة وحدها تحيا سوريا،»[٧٩] رؤية نضاليَّة كسرت طوق الثنائيّات البائسة والاشتباك المجانيّ، بين دعم الانتفاضة السورية مقابل القلق على قوّة ردع المقاومة وتحرير فلسطين.[٨٠] وتناولت ملفّات *الآداب* تحت إشرافه الانتفاضات والديمقراطيّة في سوريا،[٨١] وفي تونس ومصر[٨٢] والبحرين.[٨٣] وأولت المواطنةَ والديمقراطيّةَ في العراق اهتمامًا، تجلّى في مقال لعبّود سلام حول اللغة والذات والوطن،[٨٤] وآخر لِنوفة عماد خدّوري حول النسويّة بين العراق والغرب.[٨٥] في الوقت ذاته، واكبت *الآداب* الحَراكَ

وائل اللادقي، فن فوتوغرافيّ
الآداب، ٢٠١٦

ربيع الأمين، صورة الغلاف
الآداب، ٢٠١٥

الشعبيَّ في لبنان كاشفةً عن تناقضات الأهداف والمفاهيم حول الطائفيّة بين صانعي/ات الحَراك.[٨٦]

مقاومة التَّمييز الجندريّ والتَّطبيع والوباء، ٢٠١٥ ـ ٢٠٢١

«أنشر [لآخرين] لأنني أعجزُ عن الكتابة أحيانًا، أو لأنّني أقرأ مادّةً تعبِّر عمّا كنتُ سأقولُه بنفسي فإذا بها تقوله بجَمالٍ أكبر أو قوّةِ إقناعٍ أعظم... أَنشر (وأكتب)... كي أُسهم في «نشرِ عرْضِ» القامعين المنافقين وتجّار المرأة والوطنِ والدين... أَنشر (وأكتب) كي تعْرف ابنتاي الصغيرتان أنّ العربيّةَ لم تتحوّلْ (بعدُ) إلى ديناصورٍ منقرضٍ على شاشات حاسوبهما الصغير... أَنشرُ وفاءً وحبًّا لمن اعتَبروا النشرَ جزءًا متمِّمًا لعملهم في الكتابة والثقافة والسياسة، فعانوا الرقابةَ وإتلافَ الكتبِ والنفي والتهميشَ... ثمّ غادرونا وهم يخشوْن أن يلتفتوا إلى الوراء.»[٨٧]

سماح إدريس

ودَّعت الآداب بمزيج من الحزن والعزم حياتها الورقيَّة سنة ٢٠١٥، لتحلّق في آفاق إلكترونيَّة ممتعة. تزامن هذا الحدث مع عهدها الثالث الذي حمل عنوان: «ما يمكثُ في الأرض ويحلِّق نحو السماء.» وعكسَ هذا العهد تضافرَ الجهودِ لتحقيق العديد من الإنجازات؛ فتمّت أرشفة الآداب الإلكترونيّة من سنة ١٩٥٣ إلى ٢٠١٢، بمساعدة أحمد دلّال وفريق مكتبة «يافث» في الجامعة الأميركيّة في بيروت. وتمّ إطلاق عدد أكبر من التَّجارب النوعيَّة، في مجال القصّة القصيرة (العربيّة والمترجمة) وأدب اليوميّات، والشّعر، والمسرح، والحوارات، والندوات، والفنّ. وتمّت كذلك الإحاطة بنِتاج العرب الفكريّ والإبداعيّ في الاغتراب، وتقديم الأقصر والأعمق بين المقالات والآراء النقديَّة. وقد رافقت الملفّاتِ ولائمُ بصريّة، من صور فوتوغرافيَّة ولوحات، وتصاميم غرافيكيّة ورسوم كاريكاتوريّة. وفتح سماح ويسري الأمير البابَ على نقاشات كان لها أصداء بعيدة على صفحات التواصل الاجتماعيّ. وساهم في إنجاح هذه الانطلاقة لقمان محّو، وعبادة كسر، وإيلي كحّالة، وبسمة شبّاني، وهشام صفيّ الدّين، وغادة شرف الدّين، وأحمد قمح، وجويس صوايا، ورحاب جعفر.[٨٨]

وصل أهل «البيت،» إلى موقعهم الإلكترونيّ الواحد، فاتّضحت ألوان البيت المتنوّعة والمتضاربة، وتسنّى للكثيرات/ين أن يتعرّفوا إلى سماح في لحظات حماسته وحنقه وفرحه. وكان سماح ضنينًا بـ«أهله» وصادقًا حتّى الإزعاج، يحبُّ الجدال الذي يكثّف الفكرةَ ويبلورها لنا وله. هكذا قدّم لنا في افتتاحيّته نقدًا ذاتيًّا حول موضوع التحرّش، فَعزا عدم تصدّيه له سابقًا إلى غياب التخصّص. وذكر أنّ نور صفيّ الدين، المُشرفة الجديدة آنذاك على صفحة الآداب جعلته يستنتج بأنَّ الاختباء وراء «التخصّص» يخلق «سلطة ثقافيّة» تحجب آلام النّاس وآمالهم.[٨٩]

طوّرت الآداب في هذه الحقبة معالجاتها لِقضايا المرأة والمفاهيم الجندريّة، وعُنيت أكثر وأكثر بالتّرجمة، وإعلام الحَراك الثوريّ وما بعده، والحالة الإسلاميّة. فنشرت ملفّات حول «الجنسانيّة،» و«الجسد والجنس: السلطة والمقاومة» أعدّت بعضها جنى نخّال.[٩٠] وأفردَت المجلّة ملفًّا غنيًّا لِنوال السّعداوي بمناسبة رحيلها في آذار من سنة ٢٠٢١.[٩١] ويجدر الذّكر أنّ سماح كان يخطو في السنوات الأخيرة نحو كتابةٍ تبتعد عن هيمنة الفعل والوصف المذكَّرَيْن، فَطلبَ من أهل «البيت» على الفيسبوك، اقتراحات وآراء في هذا الشأن.

رائد شرف
الآداب، ٢٠١٧

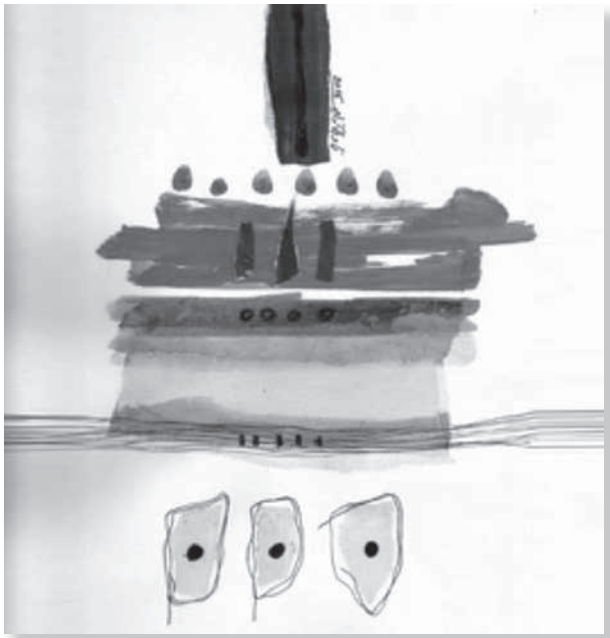

ناديا فليح، وسائط مختلطة، ٢٠١٥،
الآداب، ٢٠١٦

وتتبّعَت *الآداب* هواجسَ اللّغة العربيّة،[٩٢] ومسارات الترجمة وسياساتها،[٩٣] بل كيفيّة رسم الصّلات بين المقاومَتَيْن السياسيّة واللغويّة؛ إذ اعتبر سماح اللّغةَ إحدى حلبات الصّراع ضدّ التدمير الدّينيّ التكفيريّ عبر المكتبات المحروقة والآثار المنهوبة، خصوصًا في العراق وسوريّا وسابقًا في الجزائر.[٩٤] وتصدّت *الآداب* لأشكال التّطبيع، منها في مجالَيّ التربية والتعليم في لبنان، واللذين أعدّ لهما سماح ملفًّا بالتعاون مع عبادة كسر ومحمد محسن وعلي خليفة.[٩٥]

وتناولت *الآداب* الإعلام والحَراك الثوريّ، وإعلام ما بعد الرّبيع العربيّ،[٩٦] فبحثت في المرجعيّات النظريّة والمفاهيميّة للإعلام في مواجهة السلطات المستبدّة في العراق وسوريا وتونس. كما نشرت مقالات هامّة حول الإسلام السياسيّ.[٩٧] وانبثقت فيها مقالات تجمع بين التحليل النظريّ والبحوث الميدانيّة، فسلّطت الضّوء على النزوح السّوريّ،[٩٨] والحَراك المدنيّ في لبنان،[٩٩] ومأساة اليمن،[١٠٠] وقضايا الأكراد،[١٠١] وانتفاضة تشرين العراقيّة.[١٠٢] ونُشرت شهادات وذكريات لِلقائد ماهر اليماني، أحد ملهمي سماح في مسيرته النضاليّة.[١٠٣] ومن أبرز الملفّات الأخرى ما اختصّ بجائحة كورونا التي هدّدت العالم، والنّزاعات المحتدمة حول العدالة الاجتماعيّة ـ الاقتصاديّة والحريّة الفرديّة،[١٠٤] وكذلك آثار الوباء على التعليم.[١٠٥] وعرضت *الآداب* نقاشات علميّة وتاريخيّة وفكريّة وسوسيولوجيّة في مقالات متنوّعة، مثل «جنسانيّة هاملت،» و«أور السّومريّة،» و«إنسانيّة داعش!،» و«إعمار بيروت،» و«عبء النّساء الذّهنيّ،» وأبعاد «قصعة الكسكس.»[١٠٦]

وبرزت على صفحات *الآداب* خلال هذه الفترة أيضًا، ملفّات أدبيّة رائعة،[١٠٧] تحمل نصوصًا مترجمة خاصّة من أميركا اللاتينيّة،[١٠٨] وتجارب شعريَّة اتّسم بعضها بعناصر فنيّة متطوّرة.[١٠٩] أمّا القصص القصيرة، فعكست تأمّلات فلسفيّة واجتماعيّة، وإشكاليّة العلاقة بين الذات والمجتمع، وبين الإنسان والوطن.[١١٠] ومن الناحية التقنيّة، نجد في بعض هذه القصص ما يتداخل مع اليوميّات والمذكّرات،[١١١] وما يتخطّى التّنميط،[١١٢] مثل أعمال رافي ميناس (سوريا).[١١٣]

وتنسج قصصٌ أخرى صلات بين الشِّعر واللوحة واللقطة مثل أعمال وثيقة القباطي (اليمن)[١١٤] وعثمان بالنائلة (تونس)[١١٥] على سبيل المثال لا الحصر. وحول المسرح، نُشرت حوارات مع عدد من الفنّانين،[١١٦] وأعمال لِسيف الدّين بنزيد وعلاء كوكش،[١١٧] ومقال عن طبيعة الحركة المسرحيّة في الجليل.[١١٨]

في ختام هذا المقال، أعود إلى سماح في رحلة إشرافه الثريّة الملوّنة والصّاخبة على *الآداب*، لأقول إنّه كان يدركُ سحرَ الكلام وسحرَ الصّمت معًا، فكنّا نسمع صوته في الافتتاحيّات قويًّا محفّزًا، ضاحكًا غاضبًا، نحسّ به هامسًا من وراء الملفّات الفكريّة والأدبيّة، راعيًا لإيقاعاتها المتفاوتة، ومُهذِّبًا لِما يصبو إليه أهلها، ما ينمّ عن صدق التزامه بالحريّة الفكريّة والإبداعيّة. وإن كان الموت قد خطفه من *الآداب* ومنّا، فإنّه لم ينل من إرثه الثقافيّ ـ النضاليّ المتشعّب، إرثٍ ستحمله أخته وابنتاه ورفيقاته ورفاقه على أكتافهم وفاءً له و*للآداب*، إحدى مناراتنا الفريدة في لبنان والعالم العربيّ.

مونتريال

الهوامش

(١) انعكس الاهتمام بهذه التراثات في ملفّات متنوّعة (مقارنةً باهتمام سهيل إدريس بالتراثين الفرنسيّ والفرانكفونيّ) مثل:
https://al-adab.com/volume/2006-v.54/07-08
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2007_v55_10-11_0073_0089.pdf
ومقالات منها، لِأنابَل بواسييه وتود پورترفيلد وجيسيكا وينغر ولقاء حواري مع جول بيْنن وجون جوردان:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0084_0088.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0049_0051.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_05-06_0031_0043.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0052_0056.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_01-02_0081_0086.pdf

(٢) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1995_v43_05-06_0002_0003.pdf

(٣) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1992_v40_04-05_0002.pdf
سماح إدريس، «تجديد العهد،» ص. ٥٥ ـ ٥٧.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_05_0054_0057.pdf

(٤) سماح إدريس، «ذاكرة الآداب: رسالة الآداب،» ص. ٥٤ ـ ٥٧.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_05_0054_0057.pdf

(٥) بعض مقالات رئيف خوري فترة إشراف سهيل إدريس:
https://al-adab.com/author/3662-خوري،20%رئيف،1968-201912%
https://al-adab.com/article/1955 -مناظرة-رئيف-خوري-وطه-حسين-الآداب،-أيّار

(٦) https://al-adab.com/isdarat/25760
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1992_v40_07-08_0068_0069.pdf;
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_03-04_0096_0103.pdf
https://al-adab.com/article/09-07-2016-غسّان-كنفاني-في-الآداب-ملفّ
18-07-2017, https://al-adab.com/article/الأعمى-والأطرش-واقتلاع-الأولياء

(٧) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_05_0054_0057.pdf

(٨) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1962_v10_03_0042_0046.pdf
https://al-adab.com/volume/1980-v.28/02-03

(٩) https://al-adab.com/author/3557-1987-1910; مروة،-حسين
https://al-adab.com/volume/1988-v.36/01-02
طلب منّي سماح سنة ٢٠١٩ مقالًا يتعلّق ببعض الأفكار التي تبادلتها معه حول حسين مروّة وأدونيس. هنا الرابط:
29-03-2019, https://al-adab.com/adabupdated/article/انشطاريّة--حسين-مروّة-الإبداع،-الحداثة،-وما-يتعدّى-التقزّمَ-والأسبقيّة

(١٠) نوال السعداوي، «ذكرياتي عن ثورة يوليو» ص. ٣٣ ـ ٣٧.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1992_v40_09-10_0033_0037.pdf;
ومقال آخر لها: https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1992_v40_12_0019_0020.pdf
من الأمثلة مقالان لِجان طنّوس وعبد الله خليفة:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_01_0058_0060.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2005_v53_01-02_0090_0095.pdf
تصدّت الآداب مثلًا لِمحاولة محاكمة نوال السعداوي بتهمة الارتداد عن الإسلام.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_05-06_0014.pdf
هنا رابط مقالات شيرين أبو النّجا، وخلود نديم الدمشقي، ورلى الجردي، ورانية مرعي ود. نهلة عبده:
https://al-adab.com/desc-file/57340-في-رحيل-نوال-السعداوي

(١١) ومن الأمثلة مقالان لصبري حافظ ويمنى العيد:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1996_v44_07-08_0037_0046.pdf
https://al-adab.com/volume/2003-v.51/09-10

(١٢) «ناجي العلي: سحر الكرامة،» ص ٤٧ ـ ١٠٥.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_09-10_0047_0105.pdf

(١٣) رئيف خوري، «أدب «الالتزام»،» ضمن «ذاكرة الآداب» لسماح إدريس، ص. ٥٦ ـ ٥٧.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_05_0054_0057.pdf

(١٤) «برايتن برايتنباخ يواجه...نلسون مانديلا» تقديم وتعريب سماح إدريس، ص. ٤٧ ـ ٦١.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1997_v45_01-02_0046_0061.pdf
وترجم سماح مقالًا لِنورمان فنكلستين حول «التطهير الإعجازيّ للأرض،» ص. ٢ ـ ١٠.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_11-12_0002_0010.pdf

(١٥) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_07-08_0029_0048.pdf

(١٦) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2000_v48_07-08_0008.pdf

(١٧) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1992_v40_04-05_0002.pdf

https://al-adab.com/volume/1995-v.43/12
https://al-adab.com/volume/1999-v.47/07-08
(١٨) https://al-adab.com/volume/1995-v.43/12
(١٩) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1997_v45_03-04_0035.pdf
(٢٠) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_01-02_0051_0054.pdf
(٢١) نشرت المجلّة مثلًا فصلًا من رواية **الفم الكرزيّ** لِحنّا مينا، و**فوضى الحواس** لأحلام مستغانمي، ومقالات حول روايات حنان الشّيخ.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_01-02_0014_0019.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_07-08_0004_0009.pdf
https://al-adab.com/volume/2000-v.48/07-08
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_01-02_0103.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_05_0054_0057.pdf
(٢٢) من الأمثلة هذه الملفّات المتعلّقة بالقصّة القصيرة سنة ١٩٩٣ و١٩٩٧ و ١٩٩٩.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_01_0067_0068.pdf
https://al-adab.com/archive-years/1997-v.45
https://al-adab.com/archive-years/1999-v.47
https://al-adab.com/volume/1999-v.47/03-04
(٢٣) https://al-adab.com/volume/1999-v.47/05-06; https://al-adab.com/volume/1999-v.47/07-08
فخري صالح، «الحساسيّة الجديدة والكتابة عبر النوعيّة: مشكلة التجنيس الأدبي (عند روائي وناقد تجريبيّ)،» ص. ٧٠ ـ ٧٤.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1997_v45_05-06_0070_0074.pdf
(٢٤) https://al-adab.com/archive-years/1993-v.41.
(٢٥) يمنى العيد، «حداثة الكتابة ـ خراب المدينة،» ص. ٤٣ ـ ٤٧.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1992_v40_04-05_0043_0047.pdf
(٢٦) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1993_v41_03-04_0009_0019.pdf
(٢٧) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1997_v45_05-06_0070_0074.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_01-02_0051_0054.pdf
(٢٨) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1995_v43_03-04_0022.pdf
https://al-adab.com/volume/1995-v.43/05-06
(٢٩) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1998_v46_01-02_0004_0007.pdf
(٣٠) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1999_v47_05-06_0002_0005.pdf
(٣١) سماح إدريس، «الاستقلالات،» ص. ١ ـ ٣.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_1995_v43_05-06_0002_0003.pdf
(٣٢) سماح إدريس، «ثقافتنا الجديدة» ص. ١.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_11-12_0001.pdf
(٣٣) سماح إدريس، «من الحفرة إلى الحفرة،» ص. ١، ١٢٠.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0001.pdf
(٣٤) https://al-adab.com/volume/2001-v.49/09-10
(٣٥) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_09-10_0069_0077.pdf
(٣٦) انظري وانظر إلى مقالات لسمر علّوش، صلاح حسن، ممدوح رزق، عبد الهادي سعدون، مهدي التمامي، وأديب حسن محمّد،
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2008_v56_07-09_0079_0083.pdf
(٣٧) محمد ديبو، «الشعر حيٌّ يرزق!،» ص. ٦٨ ـ٧٠.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2008_v56_07-09_0067_0070.pdf
(٣٨) انظري وانظر إلى مقال محمد توفيق الصواف، والمواقف النقديّة منه:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_05-06_0033_0043.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_07-08_0127.pdf
(٣٩) https://al-adab.com/volume/2001-v.49/05-06
https://al-adab.com/volume/2001-v.49/07-08
وعنيت الآداب بدراسة شخصيّات فلسطينيّة، فكرّست ملفًّا لإدوار سعيد: https://al-adab.com/volume/2003-v.51/11-12
وأكثر من ملفّ لمحمود درويش مثل: https://al-adab.com/volume/2008-v.56/10-11
(٤٠) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2007_v55_05-06_0004_0009.pdf
https://al-adab.com/volume/2007-v.55/10-11
(٤١) https://al-adab.com/volume/2002-v.50/01-02
(٤٢) https://al-adab.com/volume/2003-v.51/07-08
(٤٣) https://al-adab.com/volume/2008-v.56/01-03
https://al-adab.com/volume/2008-v.56/04-05
(٤٤) https://al-adab.com/archive-years/2009-v.57
(٤٥) https://al-adab.com/archive-years/2006-v.54

https://al-adab.com/archive-years/2007-v.55

(٤٦) «ندوة: العلاقات العربيّة ـ الكرديّة،» إعداد فاروق حجي مصطفى، ص. ٦٤ ـ ٦٩.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_03-04_0064_0069.pdf

(٤٧) https://al-adab.com/volume/2005-v.53/01-02

(٤٨) سماح إدريس، «اليسار اللبنانيّ والانتخابات: الأبيض لونًا من ألوان التغيير!» ص. ١، ١٢٦ ـ ١٢٨.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2009_v57_07-08_0001.pdf

(٤٩) https://al-adab.com/volume/2004-v.52/07-08 حول الرقابة في سوريا ومصر:
https://al-adab.com/volume/2002-v.50/07-08
https://al-adab.com/volume/2002-v.50/11-12
https://al-adab.com/volume/2004-v.52/01-02

(٥٠) https://al-adab.com/volume/2003-v.51/09-10

(٥١) نعطي أمثلة على التجديد والتفاوت في أشكال ومضامين القصّة:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2006_v54_10-12_0127_0129.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2007_v55_03-04_0004_0009.pdf

(٥٢) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_01-02_0082_0085.pdf

(٥٣) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_01-02_0077_0081.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_01-02_0099_0102.pdf

(٥٤) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_03-04_0040_0096.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_07-08_0007.pdf

(٥٥) كيرستن شايد، «أقنعة الفرنكفونيّة: ملف،» ص. ١٧ ـ ٤٤.
https://al-adab.com/volume/2001-v.49/09-10

(٥٦) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_09-10_0017_0044.pdf

(٥٧) وعلى سبيل المثال لا الحصر:
(حماري وأنا)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_07-08_0091_0094.pdf
(الرؤوس)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_09-10_0109_0111.pdf
(القبّة)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_09-10_0128_0129.pdf
(قبر بلا تفاصيل)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_01-02_0060_0063.pdf
(حصاريّات)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_07-08_0040_0043.pdf
(حبّة البندق)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_03-04_0023_0024.pdf
(رقصة التنّورة)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_07-08_0044_0048.pdf
(عبدو)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2005_v53_03-05_0078_0082.pdf
(قصّة قصيرة)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2006_v54_01-02_0026_0027.pdf
(نذهب إلى البحر)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2007_v55_03-04_0032_0035.pdf
(التأشيرة)، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2007_v55_10-11_0059_0061.pdf

(٥٨) من الأمثلة:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_03-04_0032_0036.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2002_v50_09-10_0124_0125.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_05-06_0074_0075.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_05-06_0020.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_07-08_0087_0090.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_05-06_0020.pdf

(٥٩) على سبيل المثال لا الحصر:
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_03-04_0008_0010.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_07-08_0061.pdf

(٦٠) «عدم الفهم بذكاء ورهافة: تجارب لبنانيّة في السينما والڤيديو والتجهيز،» ملف من إعداد وتقديم: جلال توفيق، ص. ١٨ ـ ٧٥.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2001_v49_01-02_0018_0076.pdf
وملفّات أخرى حول السّينما لِجوانا حاجي توما وخليل جريج، ترجمة رنا نوفل.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_03-04_0082_0088.pdf

(٦١) https://al-adab.com/volume/2003-v.51/11-12

(٦٢) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0068_0073.pdf

(٦٣) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_07-08_0039_0042.pdf

(٦٤) سونيا ميشار ـ الأتاسي، «إعادةُ إدراج الذات في الشرق الأوسط،» ص. ٨٩ ـ ٩٣.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0089_0093.pdf

(٦٤) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0040.pdf
وهناك مقال أنابَل بواسييه، «رهانات الفنون التشكيليّة التونسيّة المعاصرة،» ترجمة نيكول الحاج، ص. ٨٤ ـ ٨٨.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2004_v52_01-02_0084_0088.pdf

(٦٦) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_09-10_0002.pdf
(٦٧) سماح إدريس، «بابا الدكتور سهيل إدريس،» ص. ١ ـ ٣، ١٨٦ ـ ١٩٢.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2008_v56_01-03_0001_0003.pdf
(٦٨) «ليس بالممانعة وحدها تحيا سوريا (إلى الأصدقاء محمد ديبو وعمر كوش وضياء الدين دعمش، المعتقلين حتى هذه اللحظة، وما بدّلوا تبديلا)،» ص. ١، ١٠٢ـ ١٠٤
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_04-06_0001.pdf
(٦٩) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0001.pdf
(٧٠) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0001.pdf
https://al-adab.com/volume/2011-v.59/04-05
(٧١) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2012_v60_winter_0103_0115.pdf
(٧٢) انظر وانظري إلى الروابط:
https://al-adab.com/volume/2009-v.57/09-10;
https://al-adab.com/volume/2010-v.58/01-03;
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0025.pdf
https://al-adab.com/volume/2011-v.59/04-05;
(٧٣) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0034_0036.pdf; https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0030_0032.pdf
(٧٤) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0041_0042.pdf
(٧٥) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0033_0035.pdf
(٧٦) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0047_0048.pdf
(٧٧) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0026_0028.pdf
(٧٨) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0045_0046.pdf
(٧٩) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_07-09_0001.pdf
(٨٠) سماح إدريس، «فضّ الاشتباك بين الأولويّات،» ص. ١.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2012_v60_summer_0001.pdf
(٨١) انظري وانظر مثلًا إلى مقالات محمد ديبو وحازم أحمد حسني ومحمد رامي عبد المولى ومالك أبي صعب ود.جمال واكيم.
https://al-adab.com/volume/2011-v.59/10-11
وقبل سنة، مقال هشام صفيّ الدّين، «فلاحو سوريا: صُنّاعٌ للتاريخ أمْ أداةٌ له؟،» ص. ٢٣ ـ ٢٨.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2010_v58_06-08_0023_0028.pdf
(٨٢) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0089_0091.pdf
ومقالان حول تونس لياسين الحاج صالح وميشال كيلو
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0062_0064.pdf
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0065_0067.pdf
(٨٣) https://al-adab.com/volume/2012-v.60/03
(٨٤) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0017_0021.pdf
(٨٥) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0022_0026.pdf
(٨٦) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_04-06_0058_0061.pdf
وانظري وانظر أيضًا إلى مقال د. عمر نشّابة، «المحكمة الخاصة بلبنان: شرطٌ مسبّقٌ لإحقاق اللاعدل؟» ص. ١٠ ـ ١٥.
https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2011_v59_01-03_0010_0016.pdf
(٨٧) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2008_v56_12_0001.pdf
(٨٨) https://al-adab.com/article/15-10-2015-الآداب-في-عهدها-الثالث-ما-يَمكث-في-الأرض-ويحلّق-نحو-السماء
(٨٩) https://al-adab.com/article/20-08-2018-التحرش-ضد-الاختصاص-ـــ-مقدمة-ملف
(٩٠) https://al-adab.com/article/17-01-2017-الجنسانيّة-ضرورة-الحديث-عمّا-لا-نتحدّث-عنه-ملفّ
ونشرت *الآداب* نقاشات الندوة التي أدارتها جنى نخّال وشاركت فيها رانية المصري وسينتيا الخوري وبسّام موسى.
https://al-adab.com/article/17-01-2017-ملفّ-كيف-يقولب-النظامُ-الرأسماليّ-البطريركيّ-علاقتَنا-بالجنس،-مفهومًا-وممارسةً-وكلامًا؟
(٩١) https://al-adab.com/article, 19-03-2018/السعداوي-مناضلة-نسوية-شرسة-لكنها-ليست-بلا-إشكاليات
https://al-adab.com/article/09%9D%-السعداوي-الهيمنة-الذكورية،-والنضال-النسوي-بين-العُرْي-والحجاب
https://al-adab.com/article/هكذا-تكلّمت-السعداوي
(٩٢) https://al-adab.com/desc-file/12768-92%ملفّ-اللغة-العربيّة-والسياسات-اللغويّة-المشلولة-82%مع-التركيز-على-الحالة-المغربيّة, 15-01-2016
(٩٣) https://al-adab.com/article, 06-07-2021/الترجمة-سياسات،-ومستويات،-وقضايا-إشكالية
https://al-adab.com/article/17-11-2017-عن-أزمة-اللغة-العربيّة
(٩٤) https://al-adab.com/article/17-11-2017-عن-أزمة-اللغة-العربيّة
https://al-adab.com/article/30-12-2019-رحلتي-مع-العربية-موج
(٩٥) https://al-adab.com/article/10-02-2020-التطبيع-في-التربية-والتعليم-في-لبنان-1-ملف-جلسة-الافتتاح
(٩٦) https://al-adab.com/article/05-07-2019-إعلام-ما-بعد-الربيع-العربي-2
(٩٧) https://al-adab.com/isdarat/52188, 30-04-2019

الحالة-الإسلامية-%82ملف-%A3%92%2-السنة-اليوم-10-10-2019, https://al-adab.com/desc-file/53270

(٩٨) النزوح-السوريّ-24-12-2015, https://al-adab.com/desc-file/12729

(٩٩) الحراك-المدنيّ-في-لبنان-04-02-2016, https://al-adab.com/desc-file/14147
وملف: https://al-adab.com/releases/50063
د-نهوند-القادري-عيسى-لـ-الآداب-الحراك-اللبناني-والإعلام/21-11-2019, https://al-adab.com/article

(١٠٠) أيّ-مصير-ينتظر-اليمن؟ 81-30-6102, https://al-adab.com/desc-file/19858

(١٠١) الأكراد-التاريخ-ورهانات-الواقع-ـ-ملف/30-01-2019, https://al-adab.com/article
أعدّ الملف بشّار لقّيس وساهم فيه ثائر ديب وعقيل محفوض وكمال شاهين ومحمد سيّد رصاص ومنير الحمش وهادي حطيط.

(١٠٢) انتفاضة-تشرين-العراقية-هل-خسرتْ-إيرانُ-العراقَ-كشعب؟/21-11-2019, https://al-adab.com/article

(١٠٣) القائد-ماهر-اليماني-27-03-2019, https://al-adab.com/desc-file/51745

(١٠٤) عيد-العمّال-نحو-عالم-أقلّ-وباءً/01-05-2020, https://al-adab.com/article
كورونا-بين-غياب-العدّالة-الاجتماعية-وخطاب-الحرية-الليبرالية/https://al-adab.com/article

(١٠٥) التعليم-في-زمن-الكورونا-29-10-2020, https://al-adab.com/desc-file/57182

(١٠٦) ومنها: ذعرٌ-في-باريس-إنسانيّة-داعش/25-11-2015, https://al-adab.com/article
تطريز-على-حواشي-الطعام/15-01-2016, https://al-adab.com/article
إعادة-إعمار-بيروت-هل-ينقلب-السحرُ-على-الساحر؟/18-03-2016, https://al-adab.com/article
عبءُ-النساء-الذهنيّ/21-02-2019, https://al-adab.com/article
بابا-الفاتيكان-في-أور-السومرية-ما-حقيقة-الوعد-الإلهي-لإبراهيم؟-2-من-2/06-07-2021, https://al-adab.com/article

(١٠٧) الرواية-الموريتانيّة-إمكانات-السرد-الضائعة-ملفّ/ 23-04-2017, https://al-adab.com/article

(١٠٨) ترجمة/https://al-adab.com/desc-category
وانظري وانظر أيضًا إلى قصيدتين لوانغ جوه چن ترجمتهما مي عاشور من الصّينيّة إلى العربيّة.
قصيدتان5-/27-03-2017, https://al-adab.com/article

(١٠٩) أذكرُ على سبيل المثال لا الحصر:
الجاز/18-03-2016, https://al-adab.com/article
جوقة/18-03-2016, https://al-adab.com/article
إله-الأحلام/04-04-2016, https://al-adab.com/article
بالونة/04-05-2016, https://al-adab.com/article
تصفيفة-مغايرة-لأرواح-الموتى/31-07-2016, https://al-adab.com/article
قصائد-0/04-05-2016, https://al-adab.com/article
يُرفرفُ-عاريًا/17-02-2017, https://al-adab.com/article

(١١٠) من الأمثلة (وهي لا تحيط بكل ما نُشر في هذه الحقبة):
24-12-2015, https://al-adab.com/article/DNA
بعْدَ-الفراق/04-02-2016, https://al-adab.com/article
أحلامٌ-قابلةٌ-للتقشّف/21-12-2016, https://al-adab.com/article
حمار-البدويّة-والمختار/24-04-2017, https://al-adab.com/article
ـبُ-ليـل-%D9%90طاح/14-08-2017, https://al-adab.com/article
حَجَرا-النرْد/24-04-2017, https://al-adab.com/article
لصّ-ثلاثيّ-الأبعاد/10-10-2017, https://al-adab.com/article
الحياة-طويلًا/25-07-2018, https://al-adab.com/article
الطائرة-الثالثة/25-01-2019, https://al-adab.com/article
لا-أعياد-في-هذه-المدينة/30-09-2020, https://al-adab.com/article
في-طابور-البنزين/18-07-2021, https://al-adab.com/article
في-تمام-السادسة-وخمس-دقائق/29-07-2021, https://al-adab.com/article

(١١١) مذكّرات-رجلين/03-02-2016, https://al-adab.com/article
سياحة-سوداء/17-04-2016, https://al-adab.com/article

(١١٢) تأكّدنا-من-أنّكَ-حامل/15-01-2016, https://al-adab.com/article
بيروت-صفر-واحد-ـــ-قصة-سورياليّة/28-02-2016, https://al-adab.com/article
على-طُرُق-لالون/25-04-2019, https://al-adab.com/article

(١١٣) -34359رافي%20ميناس/2016-2017, https://al-adab.com/desc-author

(١١٤) قصص-سريعة/16-01-2017, https://al-adab.com/article

(١١٥) وجهي-الذي-لا-يَعرفني-قصص-سريعة/17-07-2017, https://al-adab.com/article

(١١٦) حوار-مع-منذر-مصري-لا-أستطيع-مغادرةَ-الأغنية/12-03-2018, https://al-adab.com/article

(١١٧) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2005_v53_11-12_0020_0027.pdf

(١١٨) https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2003_v51_07-08_0043_0048.pdf

خريستو المرّ

عروبة سماح إدريس في إنسانيَّته

«سنكون إلى جانب كلِّ مَن يعمل، بكدّ وتفانٍ وحبّ، على الخلاص من سارقي أحلام شعبنا في الحياة الكريمة الحرّة.»[١]

سماح إدريس

تمتّع سماح إدريس بأوجه نضاليّة متعدّدة، سأخصّ منها في هذا المقال الوجه النضاليّ المتميّز في مقاربته للقضيّة الفلسطينيّة. ولعلّ هذا الوجه هو أكثر ما سمح بلقائنا الفكريّ والنضاليّ، برغم اختلاف مشاربنا الفكريّة. لقد تميّز نضال سماح من أجل القضيّة الفلسطينيّة بعدّة أبعاد، أهمّها: رؤيته العروبيّة اللاعنصريّة لمواجهة الاستعمار الصهيونيّ؛ وتمسّكه بالحرّية والشجاعة الفكريّة في وجه الاستبداد؛ وصياغته لوعيٍ نضاليٍّ واسع الأفق؛ ودعوته لعيش الأمل الواقعيّ.

رؤية عروبيّة تحرّريّة في وجه الاستعمار

بقيَت جرائم الاحتلال العنصريّ بحقّ الفلسطينيّين الرازحين تحت حكمه، في وجدان سماح واهتمامه، حتّى آخر رمق. لم يكتفِ سماح بالدعوة إلى مناهضة مؤسّساتيّة ورسميّة للاحتلال الصهيونيّ. وإنّما دعا، وخصوصًا مع رفاقه في «حملة مقاطعة داعمي إسرائيل في لبنان،» إلى تبنّي «هذه المناهضة على المستوى الشخصي،»[٢] لأنّ فلسطين، على حدّ تعبيره، هي نحن؛ «أسراها أسرانا، وشهداؤها شهداؤنا، وأطفالُها أطفالُنا، وحريّتُها حريّتُنا.»[٣]

لم تكن مناهضة سماح هذه للكيان الصهيونيّ كتهديد وجوديٍّ، من باب العداء «الأعمى،» بل لكون «إسرائيل» مشروعًا استعماريًا إلغائيًّا بطبيعته. فجاهر بـ«العداء الجذريّ للكيان الصهيونيّ ولمشروعه الاستعماريّ الاستيطانيّ الإحلاليّ الإلغائيّ.»[٤] وقد استندتْ جذريّة مواقفه إلى بُعد إنسانيّ، بعيدًا عن التطرّف؛ فقد جاء دفاعه عن الحقّ الفلسطينيّ دفاعًا عن الإنسان أساسًا. لذا، لم يكُن إيمانه بالعروبة قوميًّا مغلقًا، وإنّما آمن بعروبةٍ على قاعدة الحرّية والكرامة.

الإيمان بالعروبة عند سماح «لا يستند أساسًا إلى روابط الدم واللغةِ والدينِ والتراث، بقدْر ما يستند إلى عنصر التصدّي ـ فعلًا لا قولًا ـ للعدوّ المشترك، «إسرائيل»: مَن يطبّعُ، ثمّ يتواطأ، وبعدها يتحالفُ، مع هذا المحتلّ العنصريّ المجرم، بعيدٌ كلَّ البعد عن العروبة، ولو انتمى إلى أعرق القبائلِ العربيّة، وتسلسلَ من ذريّةِ النبيّ محمّد، واعتمَر الكوفيّةَ، وفخّم ألفاظَه العربيّة، ووصف نفسَه براعي الأماكنِ المقدّسة وحامي حِمى المسلمين.»[٥]

بكلام آخر، كان سماح يدعو إلى العروبةِ كفعلٍ حضاريٍّ يدافع عن الحياة مجابهًا جرائم الاحتلال العنصريّ.[٦] فالاجتماع بين الناس ينبغي أن يكون اجتماعًا على الحقّ، لا اجتماعًا على عنصرٍ أو دين، وإلّا يقع الإنسان في العنصريّة التي يحاربها في غيره. لم ترتبط جذور نضاله بعداء مستحكم لجماعة معيّنة، وإنّما ارتبطت بدفاع لا يستكين عن المظلوم. وهذا بالضبط ما يميّزه عن مناضلين آخرين عن القضيّة الفلسطينيّة.

ومن هنا، لم يتوانَ سماح عن الهزء بالمطبّعين العرب، ساسة ومثقفين، ومواقفهم «الزحفطونيّة،»[٧] بحسب تعبيره المُحَبَّب. ولهذا انتقد بحدّة اتّفاقيّة أوسلو وسلطتها؛ فـ«اتّفاقَ أوسلو (١٩٩٣) بين منظّمة التحرير الفلسطينيّة والعدوّ الصهيونيّ قد كان، في واقع الأمر، هو المسمارَ الأعظمَ الذي دُقَّ في جدار المقاطعة الرسميّة العربيّة، بل خلخل المقاطعةَ الشعبيّةَ العربيّة (غيرَ المنظّمة) نفسَها.»[٨] وكذلك كرّر دومًا رفضه لـ«قمّة بيروت» الشائنة (٢٠٠٢) التي قبِلت بالتطبيع والتنازل عن معظم أرض فلسطين. وعلى صعيد المثقّفين، فضح سماح بُهتان «التطبيع الفكريّ،»[٩] ففنّد مزاعم المطبّعين مذكّرًا إيّاهم بإقرار الكنيست في تمّوز ٢٠١٨، قانونًا محتشدًا بالطائفيّة والاستعلائيّةِ القوميّة «كونه يُعلن أنّ

(١) مجلة *الآداب*، ترف الإنتاج الثقافي المستقلّ؟ https://tinyurl.com/3z5bnce2

(٢) مجلة *الآداب*، أين نحن الآن من مسار التطبيع؟ https://tinyurl.com/54ku9bpj

(٣) مجلة *الآداب*، المستوطنون العرب. https://tinyurl.com/yz9mcjpb

(٤) أين نحن الآن من مسار التطبيع؟ مصدر سابق.

(٥) المستوطِنون العرب، مصدر سابق.

(٦) المستوطنون العرب ، مصدر سابق.

(٧) مجلة *الآداب*، أين نحن الآن من مسار التطبيع؟ مصدر سابق.

(٨) مجلة *الآداب*، المثقف والتطبيع في لبنان: البيئة، والمزاعم، والردود المحتملة. https://tinyurl.com/5fut98sm

(٩) المثقف والتطبيع في لبنان: البيئة، والمزاعم، والردود المحتملة، مصدر سابق.

إسرائيل دولةٌ للشعب اليهوديّ، أيْ دولةٌ ليهودِها وليهودِ العالم أجمع، ولا مكانَ فيها لحقوق سكّان فلسطين الأصليّين.»[١]

وانسحب هذا التوازن الذي يجمع العقل بالقلب، ويدمج النضال بالحسّ الإنسانيّ، على مواقف سماح من الشعوب العربيّة في الدول المطبِّعة مع الاحتلال؛ فنبّه إلى العنصريّة ليس فقط ضدّ الفلسطينيّين والسوريّين، وإنّما أيضًا ضدّ «أهلنا في الخليج؛» ذلك «أنّ موقَفنا من أنظمة التطبيع والخيانة ينبغي ألّا ينسحبَ على الشعوب في الأقطار التي تَحْكمُها.»[٢] ورفض كذلك المماهاةَ بين اليهوديّة والصهيونيّة، فالانخراط بمشروع تحريريّ مُناهض لحركة سياسيّة عنصريّة محتلّة، تعيث بالناس والأرض تدميرًا وقتلا وأسرًا وتنكيلًا، يُملي على الإنسان عدم الانزلاق إلى العنصريّة. إنّ روح المسؤوليّة والمبدئية تلك هي التي دفعته كذلك إلى الدعوة إلى «عدم تطييف مقاومة التطبيع ومذهبتِها. فالتطبيع ومقاومتُه لم يكونا تاريخيًّا (وينبغي ألّا يكونا نظريًّا وعملانيًّا) حِكْرًا على طائفةٍ أو مذهب،»[٣] مشيرًا بذلك إلى خطر خسارة القدرة على المقاومة إن تطيّفت الأخيرة وغرقت في الصراعات الطائفيّة.

الحرّية والشجاعة الفكريّة في وجه الاستبداد

تمسّك سماح كذلك بحرّية التعبير وتمتّع بالشجاعة الفكريّة **في موضوع نقد الديكتاتوريّات**. على عكس غيره من المثقّفين الذين لا يذكرون بطش الأنظمة العربيّة بكلمة، إلّا إذا انتمت إلى المعسكر المُعادي. فجزَم سماح بأنّ «الخلاص من الاحتلال والاستعمار يجب ألّا يعني السكوتَ، إلى أبد الآبدين، عن الاستبداد والفسادِ والطائفيّة، خصوصًا إذا أردنا بناءَ مجتمعٍ مقاوِم، لا الاكتفاءَ ببناء حزبٍ مقاوم.»[٤] ولم يتوانَ عن انتقاد انحرافات في مقاومة التطبيع، فشدّد على «ألّا يحوِّلَ [نموذج مقاومة التطبيع] شعارَ مقاومة التطبيع، وهو شعارٌ تحرّريٌّ نبيل، إلى مبرِّرٍ لكمِّ الأفواه.»[٥]

من هنا، جمع سماح في عمله الفكريّ بين ضرورة مقاومة الظلم الخارجيّ المتمثّل بالاحتلال الاستعماريّ لنظام الفصل العنصريّ الإسرائيليّ، وبين ضرورة مقاومة الظلم الداخلي المتمثّل بالاستبداد وبالاستغلال؛ فـ«البوصلة الفلسطينيّة لا تقود إلى إهمال التغيير الداخليّ من أجل العدالة الاجتماعيّة والخلاص من الفساد والتبعيّة والاضطهاد والعنصريّة.»[٦] هذه الإدانة للظُلمين الداخليّ والخارجيّ تجعل من سماح واحدا من قلائل المثقّفين الذين لم يتعاموا عن الظلم الداخليّ، والذين وقفوا مع المظلوم بغضّ النظر عن هويّة الظالم. هذا الالتزام بالوقوف إلى جانب المظلوم دفعه إلى نقد الأنظمة الظالمة، حتّى عندما كانت معاديةً للكيان الصهيونيّ؛ فـ«شعار مقاومةُ التطبيع، حين يتحوّل إلى ذريعةٍ لممارسة الاستبداد وكمِّ الأفواه يُسهمُ هو أيضًا في تنفير الناس (وضمْنَهم الشباب) من تلك المقاومة ومن مثقّفيها.»[٧]

هكذا، بقيت عينا سماح على أفق عدالة قضايا العدالة والحرّية، وعلى ضرورة المثابرة. فشدّد على أن «نواصلَ عملَنا لأنّنا، ببساطة، لن نرضى بأن نهديَ الأوغادَ والمرتزقةَ والعملاءَ والخونةَ والسارقين متعةَ الرقص على جثثنا وأحلامِنا، ونشوةَ التلذّذِ بسرقاتهم.»[٨] فـ«النقّ لا يمكن أن يكون قدرَنا، ولا اليأس مصيرنا، ولا الشتم وسيلتنا الأبديّة.»[٩] لكن، وفي خضمّ دفاعه عن حرّية الشعوب العربيّة وكرامتها، بقي واعيًا لضرورة التمييز بين الدول ذات الأنظمة الفاسدة والكيان الصهيونيّ؛ فذكّر بـ«الفارق الهائل بين معاداة نظام... من جهة؛ ومعاداةِ كيانٍ في كلّ الظروف، وأيًّا كان «نظامُه» الحاكمُ.»[١٠]

استقلاليّة الوعي النضاليّ وسعة أفقه

في معركة تحرير الوعي النضاليّ من الولاءات العمياء والأحاديّات التسطيحيّة، كان همّ سماح المحافظة على الإنتاج الثقافيّ المستقلّ، حتّى لا يقع فريسة سلطة المال، وينحرف عن الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينيّ خاصة، والعربيّ عامّة. فالكتابة بالنسبة إليه فعلُ مقاومةٍ. وهي كذلك فعلُ حياةٍ وجزءٌ من هويّةِ وجوده. هو القائلُ «لا نملك مهنةً غيرَ الكتابة والنشر المستقلّيْن.»[١١] وكانت مجلّة *الآداب* خيرُ معبِّر عن الرؤية التي آمن بها، وما تحمله من مبادئ.

وقد انكبَّ كذلك على مواجهة الخروق التطبيعيّة في قطاع التربية «المخترَقِ بليبراليّةٍ تهابُ التسييسَ.»[١٢] لكنّه دعا إلى تقديم الصراع العربيّ ـ الصهيونيّ للطلّاب بلغة بعيدة عن «الحشو

(١) المثقف والتطبيع في لبنان: البيئة، والمزاعم، والردود المحتملة، مصدر سابق.
(٢) المستوطِنون العرب، مصدر سابق.
(٣) أين نحن الآن من مسار التطبيع؟ مصدر سابق.
(٤) أين نحن الآن من مسار التطبيع؟ مصدر سابق.
(٥) أين نحن الآن من مسار التطبيع؟ مصدر سابق.
(٦) المستوطِنون العرب مصدر سابق.
(٧) المثقف والتطبيع في لبنان: البيئة، والمزاعم، والردود المحتملة، مصدر سابق.
(٨) ترف الإنتاج الثقافي المستقلّ؟ مصدر سابق.
(٩) ترف الإنتاج الثقافي المستقلّ؟ مصدر سابق.
(١٠) المثقف والتطبيع في لبنان: البيئة، والمزاعم، والردود المحتملة، مصدر سابق.
(١١) ترف الإنتاج الثقافي المستقلّ، مصدر سابق.
(١٢) مجلة *الآداب*، التطبيع يزداد: من أجل تصعيد المواجهة. https://tinyurl.com/54ku9bpj

رائد شرف

الغوغائيّ.» وإلى اشتراك الكتّابِ والفنّانين والتربويّين في تقديم الصراع إلى اليافعين «بطريقةٍ سلسةٍ وجذّابة،» منبّهًا إلى أنّ كلمة دولة «إسرائيل» يجب أن ترتبط دائما بذكر صفاتها العمليّة «كالمستعمِرة، أو القاتلة، أو اللاشرعيّة، أو العنصريّة.»[١]

وعلى الصعيد الشخصيّ، اتّسم سماح بميّزة **النضال المنفتح**، حيث كان رفيقًا لكثيرين من مشاربَ فكريّةٍ مختلفة، في معركة الدفاع عن الحقّ، وعن المظلوم الفلسطينيّ والعربيّ. فجسّد انفتاحُه هذا ما آمنَ به من ضرورة احترامِ للتنوّع وللحرّية. وقد طبّق في حياته ما كتبه، بأن «نكون إلى جانب كلِّ مَن يعمل، بكدّ وتفانٍ وحبّ، على الخلاص من سارقي أحلام شعبنا في الحياة الكريمة الحرّة.»[٢]

وكان في خطبه ومقالاته، دائم العودة إلى كتابات غيره ليستفيد منهم بكلّ **أمانة فكريّة** في صياغة الخطاب الثقافيّ للمقاطعة. كان سماح إنسانًا **واقعيّا ومتجذّرا في المبادئ**، لذلك حافظ في حياته على التنوّع الذي تحتاج إليه الحرّية التي قدّسها.

الأمل الواقعيّ

كان لسماح حسّ إنسانيّ مرهفٌ. سبّب له، كما لكلّ إنسان مرهف، قلقًا وآلامًا كبيرة. لكنّه عبر الألم الذي تعاظم في مرضه، والذي به ـ على ما يؤمن به كاتب هذه السطور، توحّد بالمسيح متسلّقًا الأبديّة للقاء رفاقٍ آخرين سبقوه، ووجهِ اللّه الرحب ـ كان يشقّ طريقًا لنَيل الحرّيّة وإحقاق العدالة. لقد علم أنّ معظمَ الناس لا يكفيهم «تفاؤلُ الإرادة،» ولا الإيمانُ بـ«عدالة القضيّة،» لكي يبذلوا الغاليَ والنفيسَ من أجل هذه القضيّةِ أو تلك. بل يحتاجون أوّلًا إلى أن يثقوا بقدرتِهم على التغيير. وأن يتوفّروا ثانيًا على قادةٍ يثقون بوعيهم وإخلاصِهم ونزاهتِهم وحنكتِهم وطُولِ نفَسهم. وأن يعوا ثالثًا أنّ ثمّة «أملًا واقعيًّا» في انتصارهم في نهايةِ المطاف، أملًا يستندُ إلى القراءةِ المعمّقةِ لتجاربنا وتجاربِ حركاتِ النضال العالميّة، وإلى التحليل الحاذقِ والمركّب، فيَشعروا أنّ تضحياتهم لن تَذهبَ هدرًا... أو لحشوِ جيوبِ «قائدٍ» انتهازيٍّ فاسد.[٣]

لقد كان سماح، ورفاقه في حملة المقاطعة، مثالًا حيّا على الأمل الواقعيّ، وللعمل النقيّ. وسيبقى هو كذلك، بالتراث الذي تركه بين أيدينا. الشعلةَ الآن بين أيدي محبّيه ورفاقه الذين مثله آمنوا، ولهذا معًا عملوا.

فقدانُ قلوبهم لك منجمُ قوّة، يا صديقي الحبيب.

كندا

(١) التطبيع يزداد: من أجل تصعيد المواجهة، مصدر سابق.

(٢) ترف الإنتاج الثقافي المستقلّ؟ مصدر سابق.

(٣) مجلة *الآداب*، عن الأمل الواقعيّ: https://tinyurl.com/yduym4v4

سماح إدريس في مرآة رئيف خوري: المبدأ والمنهج

هشام صفي الدين*

انطبع في خيال سماح إدريس الصغير مشهدٌ ـ تكرّر مرّتين ـ لأبيه سهيل، وهو يبكي «كالأطفال»: المرّة الأولى كانت عند وفاة الناقد والكاتب رئيف خوري جرّاء ورم في رأسه، بُعيد هزيمة ٦٧؛ والمَرّة الثانية كانت عند استشهاد الروائي والمناضل غسّان كنفاني على أيدي الصهاينة، في بيروت سنة ١٩٧٣. كان الفقيدان صديقين للعائلة، وكان كنفاني أثناء زيارته لآل إدريس يرفع سماح الطفل في الهواء ويضحك.

كبُر سماح واشتدّ حضور طيف كنفاني، كما يخبرنا سماح، في وجدانه ومكتبته، وعلى حائط غرفته وطاولة درسه. أمّا خوري، فقد انقطعت صلة سماح الفكريّة به حتّى سنة ١٩٨٥، عندما اختاره موضوعًا لرسالة الماجستير، والتي نشرها في كتابه **رئيف خوري وتراث العرب** (دار الآداب، ١٩٨٦). تُخبرنا هذه الدراسة عن سماح، بقدر ما تخبرنا عن خوري الذي وصفه سماح بالمُربّي والكاتب والمُصلح الملهوف على شعبه، وبخاصة الجيل الشابّ؛ فقد خاض كلاهما بقلمه ولسانه «في مختلف القضايا الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والتربويّة.» والكتاب يُعرّفنا إلى ركيزتين لمسار سماح السياسيّ والثقافيّ: الركيزة الأولى هي جملة من المبادئ والمنطلقات الأخلاقيّة والسياسيّة الثابتة؛ والركيزة الثانية هي المنهج النقديّ والعلميّ الذي اتّخذ شكلًا عند سماح، تُمكن تسميته بالواقعيّة الأدبيّة.

ما يلي خلاصة هذه المبادئ، وأسس هذا المنهج.

المبدأ: المحاور التسعة

يُحدّد سماح تسعة محاور رئيسة طبعت أعمال خوري ومقاربته للتراث العربيّ. وهي محاور ألهمت سماح في كتاباته، وأرشدته في رسم سياسته التحريريّة لمجلّة *الآداب*، وعلاقته الإشكاليّة مع السلطة، وإن اختلفت الظروف والمواضيع والمقاربات باختلاف زمن كلّ من خوري وسماح.

المحور الأوّل مكافحة الظلم، أي التصدّي لكُلّ سلطة جائرة. والثاني توحيد الصفوف من أجل تحقيق ذلك؛ فالنضال الفرديّ غير كافٍ لمقارعة الظلم الذي يتطلّب نبذ الفُرقة وحشد الجهود، من أجل إحقاق العدالة. أمّا المحاور الثالثة والرابعة والثامنة، فهي على التوالي: مناهضة الطائفية ونبذ العنصريّة والتسامحُ الدينيّ. يروي سماح كيف استلهم خوري أمثلةً من التراث العربيّ ليُبيّن أنّ التاريخ العربيّ لم يكن طائفيًّا بين العرب والمستعربين ـ بدلالة أنّ النبيّ محمّد كان من العرب المستعرِبة ـ أو عنصريًّا، بدلالة مكانة عنترة بن شدّاد عند العرب الذين «لم يفهموا بعروبتهم عنصريّةً مرتكزةً إلى اعتبار عرق أو دم خالص.» وقد اتّسم التاريخ العربيّ كذلك، وبحسب خوري، بالتسامح الدينيّ للمسلمين تجاه غير المسلمين، وهو ما تعكسه وصايا الخُلفاء الراشدين لقادتهم العسكريين بخصوص معاملة غير المسلمين. والأركان الثلاثة هذه، بِغضّ النظر عن صحّة الأمثلة، تعكس موقف خوري، وكذلك سماح، الرافض لصراع الهويّات في المنطقة العربيّة، والذي استعر في عصر سماح أضعاف ما كان عليه في عصر خوري.

أمّا المحور الرابع، والذي ـ بحسب سماح ـ اهتمّ به خوري أيّما اهتمام، فهو المساواة الطبقيّة. يُشكّل التراث مجدّدًا مادّةً حيّةً لدى خوري للدعوة إلى المساواة الطبقيّة. ويروي خوري كيف أجاز عمر بن الخطّاب لأحد المظلومين بضرب عمرو بن العاص، والي مصر حينها، وكيف وبّخ عُمَرُ ابنَ العاص بقوله: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا؟» ويعتبر خوري أنّ ارتقاء السُلّم الاجتماعيّ عند العرب المسلمين كان أكثر مرونةً من نظيره عند الفرس الزرادشتيين. وهو ما يستدلّه من حوار حول اعتلاء العروش، يُقال إنّه دار بين العرب ورستم ملك الفرس أثناء غزو المسلمين بلادَ فارس. فقد اعتبر رستم العرش، وبعكس العرب، حكرًا على خاصّة القوم. ولا يستثني خوري عصر ما قبل الإسلام كمثال عن الوعي الطبقيّ عند العرب؛ حيث يورد مثال عروة بن الورد، المُلقّب بعروة الصعاليك، والذي حاول ـ بحسب خوري ـ تنظيم مجتمعٍ عادلٍ للضعفاء.

وبحسب خوري أيضًا، تبوّأت المرأة، وهي المحور السادس، مكانةً رفيعةً في عصر ما قبل الإسلام، وإن زاد الإسلام من مكانتها وأعطاها حقوقًا كانت محرومةً منها. بينما تُشكّل الديموقراطيّة موضوع المحور الخامس؛ فيحذو خوري حذوَ كثيرين من أعلام النهضة

* أستاذ تاريخ الشرق الأوسط الحديث في جامعة بريتش كولومبيا، كندا. صدر له كتاب **دولة المصارف: تاريخ لبنان الماليّ** بالإنكليزيّة عن دار ستانفورد (٢٠١٩) وبالعربيّة عن مركز دراسات الوحدة العربيّة (٢٠٢١، ترجمة فيكتور سحاب). وحرّر وقدّم لكتاب **الماركسيّة العربيّة والتحرّر الوطني: مختارات من كتابات مهدي عامل**، ترجمة انجيلا جيورداني (لافت وورد، ٢٠٢٢)، و**نفير سورية** (دار جامعة كاليفورنيا، ٢٠١٩).

العربيّة الذين اعتبروا أنّ فكرة الديموقراطيّة في جوهرها البسيط «مبثوثة في ثنايا التاريخ العربيّ.» ويستشهد بأمثلة من عصر الخلفاء الراشدين، تُظهِر أنّ الحُكم هو في نهاية المطاف ميثاق بين الشعب والحاكم. فإن أخلَّ الحاكمُ بالميثاق، أحِلَّ للشعب خَلعُه.
وأخيرًا، كان الركن التاسع من المبادئ عند خوري احترامَ الفكر والثقافة، حتّى من قِبَل أهل السلطة أنفسهم. ويسوق خوري أمثلةً من التراث، منها بناء الخليفة العبّاسي المأمون بيتَ الحكمة، حيث تواجد العلماء من دون تمييز بين دين أو جنس. ومنها اشتراط المأمون في معاهداته مع ملوك الروم، إرسال مخطوطات الفلاسفة لنقلها إلى العربيّة. وفي ذلك، لا شكّ، توبيخٌ ولو مبطّنٌ لما آلت إليه السلطة المعاصرة من انحطاطٍ ثقافيٍّ.

المنهج: الواقعيّة الأدبيّة

إلى جانب تكريس هذه المحاور التسعة، تعكس دراسة سماح عن مقاربة خوري للتراث العربيّ، منهجَ سماح العلميّ والنقديّ الذي يستلهم أدواته من الفلسفة الوجوديّة والماديّة التاريخيّة. وقد تبلورَ هذا المنهج عند سماح على شكل واقعيّة أدبيّة. وإذا كانت الواقعيّة تربط، بشكلٍ جدليٍّ، بين الفكر من جهة والواقع الاجتماعيّ والسياسيّ من جهة ثانية، أي أنّ الفكر ليس وحيًا مجرّدًا، بل هو وليد البيئة الاجتماعيّة والجغرافيّة ويتفاعل معها دومًا، فإنّها ـ وفي حالة سماح ـ تزدان ببعدٍ أدبيٍّ يعطي المبنى، أي لغة النصّ وتركيبته، أهميّةً توازي المعنى، أي المضمون.
تتجلّى واقعيّة سماح في المنهج الذي اتّبعه لتحديد رؤية خوري للتراث العربيّ، كتاريخٍ وأسطورةٍ وأدبٍ. فقد حلّل سماح هذه الرؤية من خلال الرجوع الى ما أطلق عليه «محطّات جغرافيّة ـ فكريّة» من حياة خوري، وإلى «الروافد الثقافيّة» التي نهل خوري منها. أبرز سماح انسجام الأركان ـ المبادئ التسعة الآنفة الذكر، مع الرافدَين الثقافيين الأساسين لخوري: الرافد الأوّل هو الثقافة العربيّة الإسلاميّة من منطلق قوميّ وحضاريّ إنسانيّ لا دينيّ؛ والرافد الثاني هو الثورة الفرنسيّة.
ويشير سماح إلى تفاعل الفكر ـ عند خوري ـ مع الجغرافيا بشكلٍ عضويٍّ، عبر عدّة محطّات، بلْورَت رؤية خوري «الثوريّة الجماليّة» للتراث. أولى هذه المحطّات كانت دراسة رئيف تحت السنديانة في قريته نابيه (في جبل لبنان)، على يد أبيه المُعلّم وتاجر القمح في آنٍ. في هذه البيئة، قرأ خوري جبران خليل جبران وأمين الريحاني، جنبًا إلى جنب مع المعلّقات وشعر المتنبّي. ثاني المحطّات كانت التحاق خوري بالجامعة الأميركيّة في بيروت سنة ١٩٢٨، وهي ملتقى طلّابٍ وأساتذة من مختلف المشارب الفكريّة والسياسيّة. وقد تمرّس خوري بالنقاش السياسيّ هناك، وتعرّف إلى الماركسيّة. أمّا المحطّة الثالثة فكانت فلسطين، حيث عمل خوري مُدرِّسًا في الثلاثينات، وشارك في النضال ضدّ الصهيونيّة، ومثّلَ الشباب العربيّ في مؤتمر الشبيبة العالميّ في نيويورك سنة ١٩٣٨. ومن وحي تجربته هناك، كان كتابا خوري **جهاد فلسطين** و**ثورة بَيدَبا**. وعندما نجحت السلطات البريطانيّة لاحقًا، في استصدار قرار فصْله من التعليم في الإنترناشيونال كوليدج في بيروت، شدّ الرحال إلى محطّته الرابعة، سوريا.
عمل خوري مُدرِّسا في طرطوس، قبل انتقاله إلى فلسطين. وعاد إلى سوريا في الأربعينات بعد قرار فصله من التعليم في لبنان، وأصدر جريدة **الدفاع** التي اهتمّت بنشر مفاهيم «الديموقراطيّة الصحيحة» في وجه «خطر النازيّة المستفحل،» إلى جانب مقالات في الأدب والفلسفة. ثمّ كانت المحطّة الخامسة في موسكو، حيث دُعيَ خوري سنة ١٩٤٧، ضمن وفد التعاون الثقافيّ بين لبنان والاتّحاد السوفياتيّ. وقد سجّل انطباعاته الإيجابيّة في كُتيّب بعنوان **الثورة الروسيّة: قصّة مولد حضارة جديدة**. وكما يشير سماح، بقيَ خوري من دعاة الصداقة العربيّة السوفياتيّة،

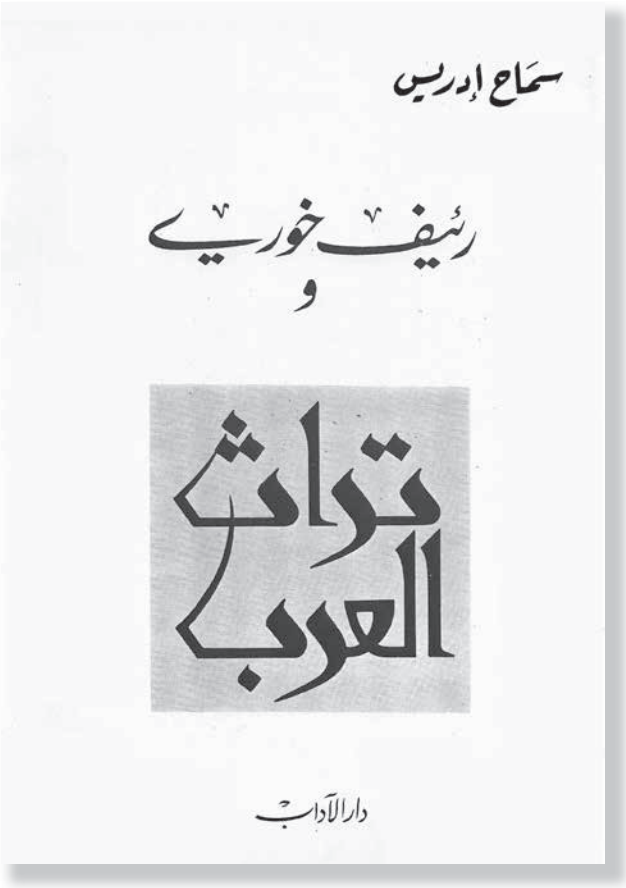

شرط عدم الوقوع في فخّ التبعيّة، ولا سيّما على ضوء دعم الاتّحاد السوفياتيّ قرارَ التقسيم في فلسطين.
سادس المحطّات كانت مصر. احتفى خوري بانتصار سنة ١٩٥٦، وتأميم قناة السويس بقيادة جمال عبد الناصر. وعندما زار مصر العام التالي، ازداد اعجابه بالتجربة الناصريّة، حيث لم يجد

أثرًا للتمييز الدينيّ أو الانجراف نحو الشيوعيّة كما كان يُشاع. تعمّق إيمان خوري حينها بالفكر العروبيّ التقدّميّ، وربطَهُ بالتحرّر والتجدّد، من دون أن يتخلّى عن الماركسيّة. أمّا لبنان، فلا يعتبره سماح «محطّة» في حياة خوري، بل «الأرض التي زرع فيها رئيفٌ نتاج عقله وقلبه.» وبحسب سماح، لم يتعارض الالتزام اللبنانيّ العميق لخوري، مع هويّته العربيّة أو انتمائه الإنسانيّ العامّ. وقد كان للمحطّات الجغرافيّة والأدبيّة في حياة سماح، من نشأته في بيروت وترحاله بين العواصم العربيّة أثناء إقامة المعارض والمحاضرات ودراسته في الولايات المتّحدة، الأثرُ البالغ في تكوين هويّته العربيّة التقدميّة وذات البعد الأمميّ في آن.

والواقعيّة أيضا جليّة، عندما يُخبرنا سماح عن نفور خوري من فكرة الفنّ للفنّ، وأدب البُرج العاجيّ. فبحسب خوري، ونقلًا عن سماح، قد لا يتحمّل الأدباء مسؤوليّةً مباشرةً عند حدوث كوارث سياسيّة. لكنّهم مطالبون باتّخاذ موقف يعكس القِيَم التي يلتزمون بها. وعليهم إضفاء معنًى عمليٍّ لا مجرّدٍ لهذه القيم، نابعٍ من زمنهم وواقع شعوبهم. وهو ما نادى به سماح ومارسه دومًا. أمّا البُعد الأدبيّ لواقعيّة سماح، فيتجلّى في تحذير سماح، على لسان خوري، من إهمال الجماليّة الفنّيّة بُغية إيصال المعنى الثوريّ بشكل دوغمائيّ أو شعبويّ؛ فالمطلوب عند خوري وكذلك سماح، لغةٌ متجدّدةٌ بعيدةٌ عن لغة المعجمات والمحفوظات. والالتزام بقضايا الشعب لا يعني تبنّي لغة الشعارات الرنّانة أو الأدب الجاهز، أو «أدبًا شاحبًا» عن آلام الإنسانيّة. وهو لا يعني أيضًا النقد المتطرّف الذي يُعظّم الكاتب أو يُصغّره.

الناقد القنّاص

لقد أجَلّ سماحٌ رئيفَ خوري، لكنّه لم يُعظّمه؛ فالأخير، كما يشير سماح، أغفل حقائقَ كثيرةً في التاريخ العربيّ تتناقض مع المحاور التي ذكرها: لقد أحرق الملك الحِميْري ذو نواس نصارى نجران بسبب وقوفهم مع الأحباش؛ وتسبّب المأمون، باني بيت الحكمة، بسجن العلماء الذين خالفوا عقيدة «خلق القرآن» وقتلهم؛ وعانتِ الطبقاتُ الشعبيّة أثناء العصور الإسلاميّة الحكمَ الجائرَ لفترات عديدة. ومع أنّ سماح يعود ليبرّئ خوري، عبر القول إنّ الأخير قد تنبّه لذلك في عدّة مواضع من أعماله، لكنّه يُعلّل مقاربة خوري التي تُبرز الإيجابيّ وتطمس السلبيّ، بهاجس الأخير حول ضرورة الاستفادة من إيجابيّات الماضي لبناء غدٍ أفضل، وللتّدليل على

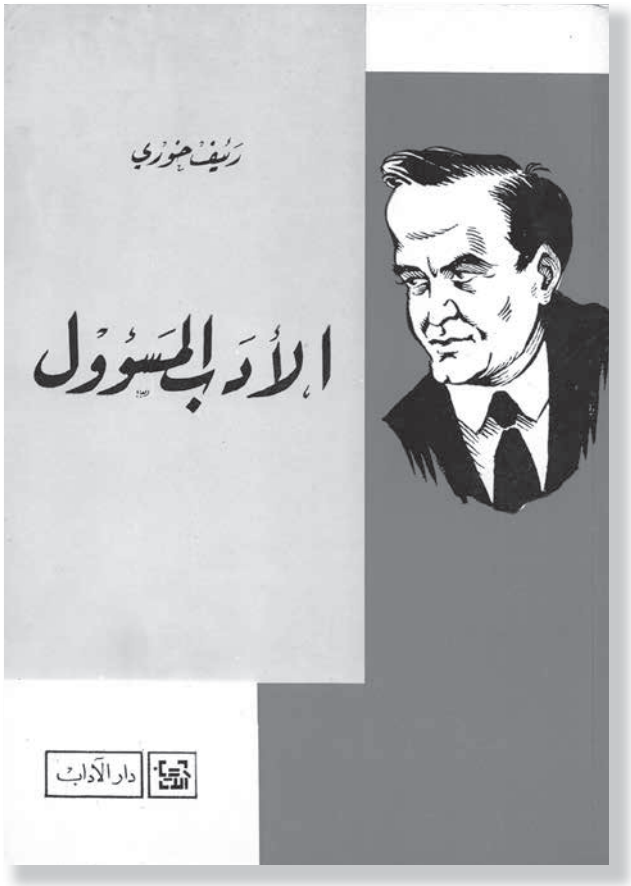

أصالة هذه المبادئ في التراث العربيّ، في وجه الادّعاءات بأنّها مستورَدةٌ من الغرب.

لقد أدرك سماح أنّ غالبيّة أبحاث خوري في التراث «لم تكن دراساتٍ بالمفهوم الأكاديميّ العلميّ الدقيق.» وعلّل ذلك بوصفه خوري بالقنّاص الذي «يبحث في أدغال التاريخ عن طريدة ثمينة يُطعم بها أولاده وأحبّاءه.» كانت راهنيّة التراث عند خوري، أي وظيفة التراث في الحاضر كسلاح في خدمة القضايا القوميّة والاجتماعيّة والإنسانيّة، أقوى من أيّ حدس أكاديميّ. لم تمنع هذه الهفوات سماح من تقدير تكريس خوري كلّ طاقاته في سبيل تلك الأهداف، فختم دراسته قائلًا: «حقًّا إنّ رئيف خوري من الكتّاب القلائل الذين يشعر القارئ لدى مطالعتهم أنّهم إذ يدعونه للتّفكير، يدعونه للعمل أيضا!» وهذا القول ينطبق على سماح، كما انطبق على خوري. فهل نوفي سماح حقّه في اقتفاء تلك المبادئ وهذا المنهج في القول والعمل، كما أوفى هو خوري حقَّهُ؟

مونتريال

سماح إدريس والمقاطعة: من شعار وفكرة إلى توثيق وعمل

هشام البستاني*

الزمان: بداية نيسان، ٢٠٠٢. الحدث: عدوان صهيونيّ آخر، كبير هذه المرّة، على الضفّة الغربيّة، واقتحام مخيّم جنين، ومقاومة بطوليّة من الفلسطينيّين. ردّ الفعل: مظاهرات شعبيّة في أنحاء العالم العربيّ، وانطلاقة واسعة النطاق، غير مسبوقةٍ، لمبادراتٍ شعبيّةٍ عفويّةٍ، تُقاطِع المنتجاتِ الأميركيّة، باعتبار الولايات المتّحدة الداعمَ الاقتصاديّ والسياسيّ والعسكريّ الأوّل لـ«إسرائيل.»

كان ذاك الزمان وذلك الحدث هو بداية عهدي بسماح إدريس وتعرّفي إليه، عندما نظّم والمجموعة التي كان عضوًا مؤسّسًا وقياديًّا فيها، أعني حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان، مؤتمرًا للمجموعات العربيّة الناشطة في مقاومة التطبيع مع الصهاينة، لمحاولة البناء على مبادرات المقاطعة الشعبيّة وتنظيمها وتطويرها. تلك المبادرات التي اندفعت في كلّ مكان، وأعادت وضع فلسطين في قلب النقاش السياسيّ، بل واليوميّ، المعيشيّ، للناس، عبر بوّابة مقاطعة بعض المنتجات الضروريّة في كلّ مناحي الحياة.

في تشرين الأول من ذلك العام، كانت زيارتي الأولى لبيروت؛ تلك الزيارةٌ التي حطّمت إلى غير رجعة الصورة الذهنيّة المرسومة لتلك المدينة في عقلي، والمتشكّلة عبر سنواتٍ طويلةٍ من القراءة والأغاني والأحاديث المنقولة عن أصدقاء عاصروا «عصرها الذهبيّ،» أو آخرين تركوا فيها جزءًا وازنًا من أعمارهم. لم أجد في بيروت، باستثناء بحرها والأفق اللامحدود الذي يشقّه، سوى مدينة صمّاء، بلا لون ولا طعم، معمارها بليد، وتأنّقها مفتعل ومتكبّر، تحاول جاهدةً ـ وهي تعلم في قرارة نفسها استحالة الإمكانيّة ـ أن تنتزعَ نفسها، بالقوّة، من شرق المتوسّط، وتتحرّكَ إلى شماله.

سماح، ومن عرفتهم من الأصدقاء من خلاله (وعلى الخصوص منهم رانية الساحلي)، كانوا المساحة الحقيقيّة، المدينة الداخليّة الجوهريّة، بيروت التي أزورها وأشتاق إليها. في أروقة المؤتمر واللقاءات بعده، رأيت سماح: حيويّته ونشاطه، طاقته التي لا تنضب، والسخرية الفريدة، العميقة، التي تُلحظ بالكاد، والمُستبطنة ـ عادةً ـ داخل أسئلةٍ يطرحها بين الحين والآخر، كأنّها وقفاتٌ لإعادة التفكير، وخلخلة للركون والاطمئنان. كانت تلك السّخرية التي لا يلتقطها إلّا من يُتقنها بدوره، هي ما جعلني أرتاح لسماح، وأحبّه؛ فهي أداةٌ من أدوات وعي صعوبة الوضع القائم، وإشكاليّاته المتراكبة المتعدّدة، ومفتاح الانتباه الحادّ للعقبات والتحدّيات. وكانت أيضًا جرس الإنذار المنبّه من غفلة التصوّرات الأمنياتيّة والحالمة والمتفائلة تجاه واقع يعمل ـ عمومًا ـ ضدّنا، ومجموعاتٍ حاكمة تتسلّط علينا، ونضطرّ إلى مخاطبتها وكأنّها صاحبة قرارٍ يمكّنها من أن تستجيب لمطالبنا، أو كأنّها تملك بقايا ضميرٍ يمكّنها ـ بنغزٍ منه ـ أن تعود عن غيّها، أو كأنّ فيها بقايا خجلٍ يسوقها إلى أن تستحي.

المقاطعة من مبادرة عمليّة إلى جهود تنسيقيّة متصاعدة

كان هذا الوعي الحادّ المدفوع دومًا بالسّؤال والنّقد، يتجاوز السّطح إلى العمق؛ فكانت مبادرته ومبادرة حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان لمحاولة بناء إطار عربيّ تنسيقيّ عمليّ للمجموعات الناشطة في هذا المجال، تكسر حدود السجون الما بعد ـ استعماريّة التي تُطبِق علينا وتعيق حركتنا ومحاولاتنا للتحرّر والتغيير، فاتحةً أمامنا آفاقًا أرحب، كبحر بيروت، بعيدًا عن جدران العمائر المصطنعة والخانقة.

كانت هذه المبادرة عمليّةً في محاولة اشتقاقها حراكًا يوميًّا، فعليًّا، يتجاوز شكل المؤتمرات الخطابيّة الاستعراضيّة التي تنفضّ بعد جلساتها الختاميّة وكأنّها لم تكن. كما كانت بعيدة النّظر في أهدافها المستقبليّة، تحاول خلق حركةٍ متعاضدةٍ، تعمل بتنسيقٍ عالٍ في مختلف السّاحات، وهو أمرٌ لم يتحقّق تمامًا. وكم احتجنا إليه وبشدّة مؤخّرًا، حين تمّ شبك خطّ الغاز المستورد من «إسرائيل» بخطّ الغاز العربيّ الواصل إلى سوريّا ولبنان، بينما صارت الكهرباء الأردنيّة (التي يولّد ٤٠٪ منها على الأقل بواسطة الغاز الفلسطينيّ المسروق، والمشترى من الصهاينة بصفقة قيمتها ١٠ مليارات دولار) هي حبل الإنقاذ المسموم الذي يُلقى

---

* قاصّ وشاعر وكاتب من الأردن، نُشرت مقالاته ودراساته في صحف ومجلات عربيّة وعالميّة منها *الآداب* (لبنان) و**مونثلي ريفيو** (الولايات المتحدة) و**راديكال فيلوسوفي** (بريطانيا) و**بيينتو سور** (إسبانيا). صدر له في الأدب: **عن الحب والموت** (٢٠٠٨)؛ **الفوضى الرتيبة للوجود** (٢٠١٠)، **أرى المعنى** (٢٠١٢)، **مقدّمات لا بدّ منها لفناء مؤجل** (٢٠١٤)، **شهيقٌ طويلٌ قبل أن ينتهي كلّ شيء** (٢٠١٨)؛ كما صدر له في الفكر السياسي: **الكيانات الوظيفيّة: حدود الممارسة السياسية في المنطقة العربيّة ما بعد الاستعمار** (٢٠٢١). تُرجمت قصصه ونصوصه الشعريّة ومقالاته إلى عدّة لغات، وحاز جوائز دوليّة.

إلى لبنان الذي أنهكه الفساد، ودمّرته التبعيّة، بتواطؤ مشتركٍ من كل المجموعات الحاكمة العربيّة، وبرعاية الولايات المتحدة نفسها التي استثنت هذا المشروع من «قانون قيصر.»

لكن ٢٠٠٢ لم تكن كحالنا اليوم. حينها كان المؤتمر الذي أشرف عليه سماح وحملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان يعجّ بالحركات العربيّة ونشطاء مقاومة التطبيع والمقاطعة من مصر، وسوريّا، والأردن، والبحرين، ولبنان، وفرنسا. ولكم أن تتخيّلوا أنّ المؤتمر الشعبيّ الأوّل للمقاطعة، في أيّار من العام نفسه، سابقًا مؤتمر لبنان، قد انعقد في دبي، واحدة من الإمارات العربيّة المتّحدة التي تقود اليوم التّطبيع مع «إسرائيل» بتسارعٍ كمّيّ وكيفيّ مذهل إثر توقيع معاهدات أبراهام.

استمرّت الجهود التنسيقيّة المشتركة لعدّة سنواتٍ بعدها، انعقد خلالها مؤتمر ثالث للمقاطعة الشعبيّة في دمشق (أوائل سنة ٢٠٠٣)، وتتالت دورات مؤتمر القاهرة السنويّة، والذي شكّل جهدًا تنسيقيًّا مشتركًا عابرًا للأيديولوجيا، وحلقة وصل بالمجموعات العالميّة المناهضة للحرب (على العراق) والعولمة (الرأسماليّة). واستضافتني اللجنة الوطنيّة لمقاطعة البضائع والمصالح الأميركيّة في سوريّة لإلقاء محاضرةٍ وتعميق التنسيق المشترك، واستضفنا في الأردن سماح إدريس (من الحملة في لبنان) وميّة الرحبي (من اللجنة في سوريّة) لندوةٍ مشتركةٍ، وبُحث المزيد من العمل المشترك. وخلال ذلك كلّه أُنشِئَت (بقرارٍ من مؤتمر بيروت) مجموعة إلكترونيّة متخصّصة بموضوع مقاطعة البضائع والشركات والخدمات الداعمة للكيان الصهيوني، اضطلعتُ بمسؤوليّة رئاستها، وكانت حلقةَ وصل مستمرةً ودائمةً وسريعةً بين نشطاء المقاطعة ومجموعاتها، ووسيلةً فعّالةً لتبادل المعلومات والوثائق، وتنسيق الأنشطة. كما أُنشِئَت (بقرارٍ من المؤتمر نفسه) مجموعة اتّصالٍ بالحركات السياسيّة والشخصيّات الاعتباريّة المناصرة للقضايا العربيّة عالميًّا، تزاملتُ وسماح في عضويّتها، واستطعنا من خلالها أن ننقل قضايانا العربيّة، خصوصًا قضيّة مناهضة المشروع الاستعماريّ الصهيونيّ ومقاومة التطبيع والمقاطعة، إلى محافل شعبيّةٍ دوليّةٍ كثيرةٍ في إسبانيا واليونان وإيطاليا، وإلى المنتدى الاجتماعيّ العالميّ، والمنتدى الاجتماعيّ الأوروبيّ، ومنتدى المقاومة، وغيرها. وتكفّلت الحملة في لبنان بإصدار نشرة «قاطعوا،» وهي نشرةٌ صغيرةٌ أنيقةٌ تهتمّ بالمعلومات الموثّقة التي تخصّ المقاطعة، وأخبارها، ونقاشاتِها، عمّرت لعدّة أعدادٍ بين سنتَيْ ٢٠٠٣ و٢٠٠٥. بالتزامن مع هذه التطوّرات، فتح سماح ـ بصفته رئيس تحرير *الآداب* ـ صفحات المجلّة لمزيد من النقاش المعمّق لمواضيع المقاطعة ومقاومة التطبيع، سواء من خلال ملفّات متخصّصة، أو مقالات منفردة، أو من خلال افتتاحيّاته المكثّفة، الممتعة والذكيّة.

اليوم، وحين أردنا في الحملة الوطنيّة الأردنيّة لإسقاط اتّفاقيّة الغاز مع الكيان الصهيوني ـ غاز العدو احتلال، وحملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان، تفعيلَ العمل المشترك بعد أن امتدّت أذرع الطاقة الصهيونيّة عبر الغاز والكهرباء، من مصر والأردن إلى سوريّا ولبنان، لم نجد شريكًا مصريًّا يوقّع معنا على بيان!

اختلفت الأوضاع. التهديد الصهيونيّ ما يزال قائمًا، ويتمدّد، بينما حوصرت المجموعات العربيّة الفاعلة شيئًا فشيئًا لتسهيل ذلك التمدّد. لا ننسى أن النّضال في مواجهة الصهيونيّة يتقاطع

بالضرورة، وبالفعل، مع النضال ضدّ الفساد والتسلّط والتبعيّة، ومع النضال من أجل العدالة الاجتماعيّة/ الاقتصاديّة/ السياسيّة؛ فكلّ نضالٍ كلٌّ متشابك، يُفضي واحده إلى الآخر. هكذا، وبقوّة القهر والقمع والصهينة التي ازدادت رسوخًا إثر دحر غالبيّة الانتفاضات العربيّة (باستثناء تلك التي تخبو وتشتعل في السودان)، فقدنا أطر العمل الشعبيّة وتنظيماتها، وفقدنا التنسيق الشعبيّ العربيّ المشترك. لكنّ الإصرار على العمل والتعاون ظلّ قائمًا، وتمثّل بالحدّ الأدنى في بيان عمّان ـ بيروت المعنوَن بـ: «لا تسمحوا للعدوّ بأن يَدخل من 'الطاقة' بعد طرده من الباب،» الصادر منتصف أيلول ٢٠٢١، والندوة المشتركة التي عقدت لاحقًا عن بُعد، وكان لسماح فيهما شرف المبادرة.

منهجية سماح ومأسسة المقاطعة

في مسار عمله المثابر الذي لم يتوقّف (بشخصه) إلّا ساعة وفاته المفجعة، وسيستمرّ (بإرثه وتأثيره) إلى ما بعدها، قدّم سماح مساهمات مهمّةً وضروريّةً، أبرزها على الإطلاق التوثيق والاستناد إلى الحقائق والمعلومات، ووضع المراجع والمصادر وتثبيتها على الوثائق، وعدم الاكتفاء بالشعارات، وعدم الرّكون إلى التبسيط، انطلاقًا من أنّ «العامّة» لا يقدرون على الأمور التفصيليّة و«المعقّدة،» أو لا يستطيعون التعامل معها. كانت مبادرة تمكين الناس من امتلاك المعلومات والحقائق والوثائق، والثقة بها، وبالتالي الثقة بأنفسهم، نقلةً نوعيّةً في سياق مواجهة الصهيونية وداعميها وعملائها المحليّين. ما زلتُ أحتفظ بمنشورات حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان، والتي تنتهي جميعها بصفحةٍ، أو عدّة صفحات، من المراجع، مع جملة أعلاها: «تأكّد بنفسك» التي تدعو القارئ إلى المبادرة والبحث، وبالتالي إلى الحركة.

أثّرت فيّ هذه المقاربة كثيرًا، وتعلّمت منها، وتبنّيتها بالكامل، لا في نشاطي العامّ في مجال الحرّيّات ومقاومة التطبيع فحسب، بل وفي كتاباتي أيضًا، حتّى الأدبيّة منها في بعض الأحيان. من العار أن يظنّ الفاعل السياسيّ أو الناشط نفسه أكثر قدرة على الفهم من غيره، وأن يكلّف نفسه بـ«تبسيط الحقائق» للناس بدلًا من تمليكهم القدرة والثقة والمعلومات والأفكار والحقائق، وتحوّلهم بالتالي من أفرادٍ متلقّين، منفعلين، إلى مواطنين مسيّسين، مشتبكين. الشعاراتيّة التقليديّة تتّسم بالخواء، والاستعلاء، والنظر إلى الناس بدونيّة؛ تتعامل معهم لا بصفتهم شركاء، هم أساس العمل والحركة، بل باعتبارهم قُصّرًا، مادّةً للزّجر والنّهر، سذّجًا لا عقول لهم تمكّنهم من امتلاك الأطروحات بعمق. هذا الاعتبار الأخير هو جوهر منظور السّلطة للنّاس، تستنسخه أكثر التنظيمات الحزبيّة والشعبيّة ـ دون وعيٍ أحيانًا، فتستنسخ سلطةً مصغّرة في نفسها، وتعجز ـ ضمن أسبابٍ أخرى عديدة ـ عن إحداث التّغيير المنشود. ترْك الشعار السطحي الانفعاليّ واستبداله بالوعي الفعّال، هو ديدن سماح، وأثره الرئيس الباقي من بعده.

الجانب الثاني المؤثّر المميّز لسماح في حراكه ونشاطه العامّين، والذي استفدتُ منه إلى أبعد الحدود، كان الابتعاد عن الإهانة والشّتم والدوغمائيّة، وهي ثقافة مؤسفة سائدة إلى حدّ كبير في الأوساط «النضاليّة.» يغيب عن الكثيرين أنّ مقاومة التطبيع (في صلب أهدافها المحليّة) تُعنى ـ أساسًا ـ باستعادة المطبّعين إلى أحضان مجتمعاتهم، وبأنّ المقاطعة أداةٌ سياسيّة من أجل عودة الداعم للصهاينة عن غِيّه؛ وبأنّ استنكار المُطبّع تطبيعَه واعتذاره عنه انتصارٌ للحركة وغايةٌ من غايات عملها؛ وبأنّنا لسنا مجموعةً من العنصريّين والشوفينيّين والعميان، لهذا فنحن لا نعادي اليهود بكليّتهم، بل نعادي الصهاينة والصهيونيّة والمشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ الذي يقومون عليه في فلسطين، ونعادي داعميهم، بمن فيهم أولئك الذين يعتبرون أنفسهم من أبناء جلدتنا.

إن تحوّل العمل (في مواجهة المطبّعين) إلى ما يشبه الشّجار أو العراك، أو نوعًا من التنابز، يفقد نضاليّته ومصداقيّته، ولا يعُدّ موثوقًا، لا شكلًا ولا مضمونًا. وإن انحدر (في ما بين الفاعلين المقاومين للتطبيع أنفسهم) إلى نشر الإشاعات وتشويه السّمعة، صار نوعًا بيّنًا من الدّعم غير المباشر للصهيونيّة نفسها، وتغلغلها، وتطوّعًا في سبيل تفتيت الجبهة المناهضة لها. من هذا الباب، تشاركتُ وسماح أيضًا في التعرّض ـ بين حينٍ وآخر ـ لهجماتٍ مبتذلة، وإساءات منحطّة، كان ردّنا عليها دائمًا الإهمال الذي تستحقّه، ورفض تبديد الجهود في ما لا ينفع، مقابل المزيد من الإصرار في الجانب النضاليّ، والمزيد من العمل، والمزيد من الجذريّة، والمزيد من الاحترام لناسنا، ولقضايانا.

أخيرًا، وفي تشابك مع موقع سماح كرئيس تحرير *الآداب*، والنقلة التي تمّت في عهده باعتبار المجلّة مساحةً لتوليد المعرفة الاشتباكيّة الراديكاليّة، السياسيّة والحركيّة، إلى جوار كونها مساحةً للأدب والنقد، فإنّ البناء والنقاش النظرّيين لحركة المقاطعة، وجوانب أخرى كثيرة من الفكر والسياسة، والإصرار على ضرورة وجود ديناميكيّات فكريّة تبحث نظريًّا في متغيّرات اليوم، وعلاقاته، وتحوّلاته، كان جانبًا ثالثًا أساسيًّا في مساهمة سماح في حركةٍ أهملت ـ إلى حدّ كبير ـ هذا الجانب، وركنت ـ عمومًا ـ إلى الاجترار والتكرار، واعتمدت العواطف بدلًا من البحث، والمشاعر بدلًا من الموضوعيّة.

صحيح أنّنا خسرنا سماح إدريس جسدًا، هذه الخسارة المحتّمة التي ستلحق بنا جميعًا إن آجلًا أم عاجلًا. لكنّ أثر سماح إدريس وإرثه باقيان ما بقي النضال المشترك من أجل قضايانا العادلة، في منطقتنا العربيّة والعالم، في الأردن ولبنان، في العراق والمغرب، في إفريقيا والأميركيّتين، وفي القلب منها دومًا: فلسطين.

عمّان

موقع المثقّف بين الجماهير والسلطة

أميرة سِلمي*

في دراستيه **المثقّف العربي والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصرية** (دار الآداب، ١٩٩٢)، و**رئيف خوري وتراث العرب** (دار الآداب، ١٩٨٦)، كما في العديد من مقالاته، يبدو سماح إدريس مشغولًا بسؤال أساسيّ يتمحور حول دور المثقّف السياسي. وإن أصرّ سماح على استحالة الفصل بين ما هو سياسيّ وما هو ثقافيّ، فإنّ النضال السياسيّ الذي يخوضه المثقّف لا يخضع للتعريفات الضيّقة والمحدودة لما هو سياسيّ. بل إنّ العمل الثقافيّ في اشتباكه مع السياسيّ يمكنه أن يعمل على توسيع تعريف الأخير وكشف علاقاته وتغييرها.

فبينما تعمل السياسة بأشكالها الرسميّة على خلق صورة معيّنة للواقع وتحديد التوجّهات والتصوّرات حوله، قد يكشف العمل الثقافيّ والأدبيّ عن عناصر ومكوّنات وعلاقات لم تكن لتُرى في الواقع، من دون التشكيل أو إعادة التشكيل الأدبيّ لها. وتكمن قدرة العمل الأدبيّ على كشف الواقع بعلاقاته المعقّدة والمتشابكة في كشفه ما قد يكون مطموسًا أو غير مرئيّ من خلال عنصر التخييل، والذي قد يكون كما يقول سماح: «أكثر حقيقيّةً وواقعيّةً من الثاني.» يدرك سماح أنّ «الحقيقة تقع في منزلة غير محدّدة.» ويبدو أنّ ما يقصده هو الموقف الذي تأخذه النصوص الأدبيّة والثقافيّة من الواقع بعلاقاته السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة: مدى ما تعمل على كشفه ومساءلته، ومدى ما تسعى إلى تغييره أو تعزيزه والإبقاء عليه كما هو.

ففي دراسته عن روايات التجربة الناصريّة، يكشف سماح عن التناقضات والتشابكات في مواقف المثقّفين المصريين من النظام وعلاقاتهم معه، من خلال تحليله الشخصيّات الروائيّة المثقّفة في هذه النصوص، لا مواقف الكتّاب أنفسهم. هذه النصوص الأدبيّة، كما يُبيّنُ، هي بمثابة سجلّات تؤرّخ لحقبة تاريخيّة مُهمّة؛ ليس في التاريخ المصريّ وحسب، ولكن أيضًا في التاريخ العربيّ والعالم ثالثيّ. يقول سماح: «فالحال أنّ الروايات السياسيّة العربيّة تشِفّ عن واقع ما وراءها، بل إنّها لتجد جزءًا غير يسير من جاذبيّتها وفاعليّتها في ارتباطها الوثيق بذلك الواقع.» هذه السجلّات التاريخيّة تتجاوز حدود التاريخيّ الذي يقوم على التعامل مع الماضي كأحداث انتهت، أو كأحداث لا تحتاج إلّا إلى توثيق موضوعيّ وعلميّ. فليس همُّ سماح همًّا أكاديميًّا بالأساس بل همًّا سياسيًّا، والثقافة والعمل الثقافيّ يتجاوزان لديه أنماط الإنتاج الأكاديميّ المُمَأسس ليتشابك، كما أشرتُ أعلاه، مع ما هو سياسيّ، أي مع الواقع وعلاقاته. وبالتالي فإنّ البحث في نصوص عن حقبة ماضية يبقى موجّهًا نحو كيفيّة تغيير الحاضر وبناء مستقبل آخر.

ويبقى دور المثقّف في المجتمع الهمَّ الأساسيَّ لسماح. وهو عنده مختلف عن دور السلطة السياسيّة بنقطة أساسيّة، هي عمليّة صنع القرار. وهذا يعني أنّه لا يمكننا أن نماثل بين السلطة السياسيّة والمثقّفين، بل يمكننا أن نطرح السؤال الذي يطرحه سماح حول موقف المثقّفين من السلطة السياسيّة؛ فالسلطة التي تعطيها الثقافة للمثقّف تبقى سلطةً رمزيّةً، وتبقى مختلفةً عن السلطة السياسيّة والاقتصاديّة، ولا تؤدّي إليها بالضرورة. وفي حال كان هناك ترافق ما بين الثقافة والسلطة السياسيّة، فإنّ الأخيرة تبتلع الأولى وتأخذ مكانها، بمعنى أنّ المثقّف يفقد صفته كمثقّف عندما يكون صاحب سلطة سياسيّة.

السؤال عن دور المثقّف في عمليّة مساءلة الواقع، والعمل على تغييره في كتاب سماح عن روايات التجربة الناصريّة، يتّخذ شكلين: السؤال عن العلاقة بين المثقّف والدولة أو النظام السياسيّ القائم؛ والسؤال عن العلاقة بين المثقّف والجماهير، والثاني يحوز جزءًا صغيرًا في كتابه مقارنةً بالأوّل. ويمكن فعليًّا إيجاز العلاقة مع الجماهير بالإشارة إلى أنّ خوض النضال السياسيّ الذي يبدأ من الورقة والقلم، يمكنه أن يصل إلى مرحلة المواجهة المباشرة والتحدّي الواضح للنظام، بحيث يصل بصاحبه إلى السجن. وبذلك يكون السجن هو الفضاء الذي يجتمع فيه المثقّف مع الناس، والشرط الذي يمكن من خلاله إقامة ترابط معهم. وقد كانت قلّة من المثقّفين أو الشخصيّات الروائيّة المثقّفة قادرةً، ولديها الإرادة على الوصول إلى موقع المثقّف الثوريّ هذا، أي الذي يحقّق ارتباطه بالجماهير من خلال أخذ موقف مواجهة مباشرة مع النظام يؤدّي به في أغلب الأحيان إلى السجن.

* أستاذة مساعدة في معهد دراسات المرأة في جامعة بيرزيت. حصلتْ على شهادة الدكتوارة في الخطابة من جامعة كاليفورنيا ـ بيركلي، وعلى شهادة الماجستير في النوع الاجتماعيّ والتنمية من جامعة بيرزيت. لها أبحاثٌ في مجال الدراسات الاستعماريّة: **الخطاب الاستعماريّ**، **دراسات ما بعد الاستعمار**، **الكتابة المناهضة للاستعمار**، **الكتابة الأدبيّة الثورية في فلسطين وأفريقيا**. كما كتبتْ عن الكتابة النسائيّة، والخطابات التنمويّة.

أما بالنسبة إلى العلاقة مع النظام، فيُصنّف سماح المثقّفين حسب موقفهم من النظام على أساس درجة الرفض أو الموالاة، من دون الوقوع في ثنائيّة تمحو الاختلاف والتعدّد. فالموالاة درجات وكذلك الرفض. وبين النقيضَين يوجد الاعتذاريّون وهؤلاء أيضًا درجات. ولا يقوم تحليله على افتراضات هويّاتيّة ثابتة. بل هو يبحث عن مواقف ونضالات وصراعات وتناقضات. وهو بالتالي قادر على تجاوز التأطيرات والقيود الأيديولوجيّة في بحثه عنها. ويربط سماح بين الاستقلال الاقتصاديّ للمثقّف، وبين قدرته على الاستقلال الفكريّ والسياسيّ عن النظام. حيث يرى أنّ «الواقع الاقتصاديّ المزري لكثير من البلدان العربيّة، قد يدفع أكثر الكتّاب 'رفضاويّة' إلى خدمة السلطات أو مساومتها.» ويؤكّد ضمن هذا السياق على أنّه «سوف يكون من المُحال، إذن، أن نتحدّث عن قطيعة اقتصاديّة تامّة بين مجموع المثقّفين والدولة.»

في حالة التجربة الناصريّة، كانت المشكلة التناقضيّة في حالة الشخصيّات المثقّفة هي أنّ النظام السياسيّ فعليًّا تبنّى القيم الجماعيّة، ووضع نفسه إلى جانب الجماهير. بينما عمل في الوقت نفسه، على الفصل بين الثقافة والجماهير، وبين العمل الثقافيّ وعمليّة بناء الدولة المستقلّة أوّلًا، والاشتراكيّة لاحقًا. وقد وضع ذلك المثقّفين في خانة المنفصلين عن المجتمع ونظامه السياسيّ وحركة التغيير فيه. وهو وضع لم يكن مقتصِرًا على تَصوّر الدولة لهذا الدور، بل كان له أيضًا أثر كبير في المواقف التي اتّخذها المثقّفون من النظام السياسيّ والمجتمع وحركة التغيير فيه.

المثقّف المتعالي عن الجماهير

كان المثقّفون الموالون كما المثقّفين اليساريين كما النظام، يتحدّثون عن الجماهير وباسمهم. ولكنّ الاختلاف كان في تحديد من له الحقّ في التمثيل والحديث عن الجماهير، ولأيّة غايات سياسيّة. ففي حالة المثقّفين الموالين، الحديث عن الجماهير الشعبيّة والإطراء عليها لا يعكس موقعًا يعطي الأولويّة بالفعل للشعب، بل يعكس التبعيّة الكاملة للقائد الذي فرض نفسه كممثّل للجماهير. وبالتالي فإنّ إطراء الجماهير يكون إطراءً للقائد، والاحتفاء بهم هو احتفاء وموالاة له. هذا الإيمان الأعمى بالقائد، باعتباره الممثّل للجماهير، يمتدّ أيضا ليشمل مثقّفين شيوعيين في الروايات الأدبيّة التي يحلّلها سماح، وكأنّ ما يجمع هؤلاء المثقّفين هو بحثهم عن قائد يمتلك قوّةً جبّارةً تحلّ محلّ فاعليّة الجماهير، وهو كما يقول سماح مجرّد وهم. ولكن، يبدو أنّ خلق الأوهام أو تعزيز تلك التي تصوغها السلطة، كان أكثر ما أتقنه هؤلاء المثقّفون. وبهذا، أضحت الجماهير الأميّة والمفتقرة للوعي، والفلّاحون بشكل خاص، مبرّرًا ليس فقط لحقّ السلطة السياسيّة في التحدّث باسمهم ومصادرة اختلافاتهم وحقّهم في نقد السلطة والاختلاف معها، بل أيضا مبرّرًا ليترفّع المثقّف بنفسه عن هؤلاء الجماهير.

وحتّى لو لم يرَ المثقّف في الجماهير عائقًا أمام تحقيق المشروع الثوريّ الخاصّ به أو بالنظام القائم، فإنّه يميل إلى خلق صورة رومانسيّة للجماهير، تكون هي أيضا مؤشّرًا على انفصال الكاتب وبُعده عن الواقع الفعليّ الذي تعيشه الجماهير، وعلى سطحيّة معرفته بهم. بينما يرى سماح أنَ المشكلة لا تكمن في أمّيّة الجماهير وعجزهم عن الفهم، بقدر ما تنبع من «عدم ألفتهم لعمليّات التّجريد والمَفهَمة التي يحفل بها الفعل الثقافيّ.» وبكلّ الأحوال، فسماح يبيّن أنّ الجماهير كانت فعليًّا، بالنسبة إلى السلطة كما بالنسبة إلى المثقّفين، محلّ تبرير فشل الأنظمة في مواجهة الإمبرياليّة وتحقيق مشاريعها الاقتصاديّة والاجتماعيّة. كما أنّها في الوقت نفسه، أداةٌ يستغلّها النظام لتبرير قمعه للأصوات الرافضة للقمع (بإسم الاشتراكيّة العلمانيّة) الذي تمارسه هذه الأنظمة، تحت حجّة مواجهة الإمبرياليّة. وما ينتج في المحصّلة النهائيّة من تبنّي المثقّفين لموقف السلطة من الجماهير، هو «خلق قطيعة حاسمة بين الجماهير و'النخبة المثقّفة الجديدة' المعادية أساسًا للسلطات الحاكمة.» (الأقواس في الأصل).

ويبيّن سماح أنّ الإيمان الأعمى للمثقّفين الموالين، بشخصيّة القائد يتمثّل في عدم القدرة على رؤية أيّ جوانب إخفاق أو فشل لديه، وإلحاق الخطأ بمن يوجّهون إلى القائد النقد أو يشيرون إلى هذه الأخطاء. في هذه الحالة، لا يعود هناك أيّة إمكانيّة للفصل بين المثقّف وبين العسكريّ الذي يطيع أوامر قائده بشكل أعمَى، من دون إمكانية الرّكون لمرجعيّات فكريّة أو أخلاقيّة مستقلّة عن السلطة. وليس مفاجئًا أن يصل الأمر بالمثقّف المتماثل مع السلطة، إلى حدّ تبرير الانفصال والتعالي على الجماهير التي باسمها يبرّر تماهيه مع السلطة!

من ناحية أخرى، حين يجد المثقّف نفسه مضطرًّا إلى انتقاد النظام السياسيّ القائم، فإنّه سيعمل مرّةً أخرى على تبرئة نفسه من أيّة تهمة ثورية أو تمرّدية بإلقاء اللّوم بالأخطاء والإشكاليّات على الأتباع والمعاونين في السلطة بدلًا من رئيسهم، مكرّرًا مقولةً خاويةً عن الانتهازيّة والبيروقراطيّة والرجعيّة التي تسرّبت الى النظام من خارجه. ويردّ سماح على مواقف هؤلاء المثقّفين بالقول إنّه لا يمكن تحميل الفلّاحين أو الجماهير أو من يُسمّون «العناصر الفاسدة... المسؤوليّة الكاملة عن التشويهات الثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة،» وكذلك النزعات الاستهلاكيّة والفروقات الطبقيّة التي ترافقها. كما لا يمكن الدفاع عن السلطة بحُجّة جهلها وعدم معرفتها بالممارسات الخاطئة لعامليها، أو جهلها بالظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة للشريحة الأعظم من المجتمع، أي الفلّاحين، من دون مساءلة النظام عن إقصاء هؤلاء عن الحركة

التغييريّة. ومن هنا، فهو يرى أنّ الروايات الأدبيّة الاعتذاريّة، عادة ما تكون «متقلقلة وقليلة الإقناع.»

المثقّف المعارض

قد يحاول المثقّف المعارض للنظام أن يخفي نقده، ويحتوي رغبته بالتمرّد عليه، من خلال توجيه نقده إلى مثقّفين آخرين يصفهم بالانتهازيّة، مشوّها صورة المعارضين للنظام ومبرّئًا نفسه من تهمتَي التمرّد والموالاة العمياء للنظام في آنٍ.

أمّا في حالة المثقّفين اليساريين والشيوعيين، فلم تكن العلاقة مع الجماهير أساس الصراع بينهم وبين النظام، بل علاقة الأخير بالكتلة الاشتراكيّة. فكلّما كان هناك تقارب أكثر بين سياسات عبد الناصر وبين سياسات الاتّحاد السوفياتيّ، كانوا أقلّ معارضةً وأكثر تأييدًا لنظامه. وكذلك الأمر في حالة الحرب ضدّ المنظومة الاستعماريّة التي ساهمت في جَسْر الاختلافات ولو لفترة مؤقّتة، طالما أنّها تندرج ضمن ما يُعتبر نضالًا ضدّ الإمبرياليّة. وقد ظهر هذا الموقف بشكل جليّ في تأييد أكبر عند هذا الفريق لعبد الناصر، بعد انتهاء نظام حكمه والتحوّل نحو سياسات الانفتاح والتطبيع على يد السادات. ويقتبس سماح من إسماعيل صبري رؤية الشيوعيين لنظام عبد الناصر (بأثرٍ رجعيّ) على أنّها «مرحلة من مراحل الثورة الوطنيّة الديمقراطيّة.» فبالنسبة إلى الشيوعيين الذين رأوا إيجابيّات في التجربة الناصريّة، فقد رأوها باعتبارها مرحلةً تمهّد الطريق إلى الثورة الشيوعيّة الحقيقيّة. ويُبيّن سماح أنّ موقف الشيوعيين من نظام عبد الناصر، ارتبط بالاضطراب في موقفهم من انقلاب ٢٣ يوليو: فقد قوّض من جهة الملكيّة، ولكنّه من جهة أخرى كان انقلابًا عسكريًّا وليس ثورةً جماهيريّة.

كان الشيوعيون الرافضون للنظام، والذين تجرّؤوا على التعبير عن رفضهم وبالتالي تعرّضوا للسجن، يرون أنّ الإشكاليّة تقع في النظام السياسيّ والاقتصاديّ والأيديولوجيّ. وبالتالي لم تكن هناك محاولات للتبرير أو الاعتذار، أو خلق أعداء وهميّين في محاولة الالتفاف على المصادر الفعليّة للإشكاليّات في النظام. والرافضون لا يرون المشكلة في مجموعة من الانتهازيّين أو الرجعيّين؛ بل على العكس، إنّ وجود هؤلاء يشير إلى المشكلة في الدولة نفسها التي عملت على إقصاء «الثوريّين الحقيقيّين.» انتقادات هؤلاء المثقّفين الرافضين، كما يرى سماح، كانت تتضمّن ما كان يمكنه إنقاذ النظام من الوقوع في الكثير من الأخطاء. وهو يبيّن أنّ المثقّف الرافض لا ينافق ولا يُغيّر أفكاره. قد يضطرّ إلى إخفائها أحيانًا، ولكنّ هذا الإخفاء أو الكتمان يبقى مؤقّتًا ولا يلبث أن ينفجر.

المثقّف الهروبيّ

يناقش سماح كذلك نوعًا آخر من المثقّفين: هؤلاء «الهروبيّون» أو «المتراجعون،» والذين رأوا في الهروبيّة موقفًا سياسيًّا وأخلاقيًّا، بابتعادهم عن الانتهازيّة أو الاعتذاريّة. وبالرغم من أنّ هؤلاء لم يأخذوا الموقف الأكثر ثوريّة مثل الرافضين، إلّا أنّهم مع ذلك لم يقبلوا بأن يتحوّلوا إلى مرتزقة عند النظام. الهروب في هذه الحالة شكلٌ من أشكال الاحتجاج السياسيّ، لكنّه في الوقت نفسه موت للمثقّف، بخاصّة إن كان هروبه مدفوعًا برؤية تقوم على عدم إمكانيّة المقاومة أو جدواها، أو خوفًا من التعرّض للألم الجسديّ. فالمثقّف لا يمكنه أن يصمت، وإن كان رافضًا فعليه أن يتمرّد ويثور حتّى لا يكون صمته موتًا له كمثقّف. بالنسبة إلى سماح، الهروب بحدّ ذاته مستحيل؛ فالإنسان يبقى تحت سيطرة ما يهرب منه، وتحرّره الوحيد يكون بالمواجهة. من هنا، فإنّ هروب المثقّف الرافض من المواجهة مع السلطة، سيكون حالة هروب أبديّة لا تنتهي إلّا بالوقوف والمواجهة.

بالرّغم من أنّ سماح يشدّد على ربط الثقافة بالسياسة، وعمليّة الإنتاج الأدبيّ باتّخاذ موقف سياسيّ من النظام القائم، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه يدعو إلى أن يكون المثقّف أو الأديب رجلًا حزبيًا

وتكشف الروايات التي يعالجها سماح بعضَ العوامل التي تؤطّر مقاربة المثقّفين لعلاقتهم مع السلطة؛ فهناك العقوبات المباشرة التي تمارسها الدولة على المعارضين والرافضين من المثقّفين، والتي تتضمّن «التهديد الجسديّ والنفسيّ، والتجويع، والتشهير، والصرف، والعزل عن الأوساط الأدبيّة والإعلاميّة.» ويؤدّي الاعتقال والتعذيب دورًا مهمًا في «اختفاء البريق الذي يميّز المؤمن بحقيقة ما.» كما يُلحَظ دورُه في تدجين المثقّف الثائر أو المتمرّد، بحيث يتحوّل صوته الثائر إلى «همس مؤدّب خافت،» وتتحوّل روحه «الباحثة المنقّبة في أمور الدنيا والناس» إلى روح «لا ترى إلّا أمامها، وما أمامها فقط.» هذا ما يسمّيه سماح «الاغتيال الصامت» أو «الهادئ» للمثقّفين الرافضين. ويلاحظ أيضًا أن تَوفُّر الأمان الجسديّ والكفاية الاقتصاديّة بتَوفّر وظيفة جيّدة، يمكن أن يتيحا للمثقّف «إمكانات لا حصر لها للتفتّح الثقافيّ والذهنيّ،» وتكونان عاملًا أساسيًّا في «صياغة استراتيجيّة المثقّف العربيّ حيال المؤسّسة الحاكمة.»

المثقّف والحزب وإشكاليّة العلاقة مع السلطة

بالرّغم من أنّ سماح يشدّد على ربط الثقافة بالسياسة، وعمليّة الإنتاج الأدبيّ باتّخاذ موقف سياسيّ من النظام القائم، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّه يدعو إلى أن يكون المثقّف أو الأديب رجلًا حزبيًا.

فوِفقًا له، إنّ تعريف المثقّف الثوريّ يعتمد على مدى الحرّيّة الإنسانيّة والكرامة الفرديّة التي يتمتّع بها. وبالتالي، فإنّ المثقّف الحزبيّ لا يكون بالضرورة ثوريًّا أو حُرًّا؛ فقد يتعارض ما يؤمن به المثقّف مع التقاليد والقواعد والتوجيهات الحزبيّة، حتّى لو كان الحزب يسمّي نفسه ثوريًّا. هذا عدا عن أنّ العقائديّة الحزبيّة قد تأخذ شكل «البداوة الفكريّة،» فتفرض على المثقّف موقفًا مسبقًا، وتحدُّ من قدرته على تطوير مواقفه بناءً على مرجعيّات معرفيّة وفكريّة خارجة عن إطار الأيديولوجيّا الحزبيّة التي يحملها.

وفي استنتاجاته عن المثقّفين في روايات التجربة الناصريّة، يبيّن سماح أنّ المثقّفين لم يتمكّنوا من تبنّي موقف المثقّف المعارض الذي يمارس وعيًا نقديًّا من موقع المضطهَدين. حتّى المثقّف المعارض الذي يوجّه نقدًا ذاتيًّا لنفسه، لا يعبّر عن أكثر من «محاولة فاشلة لإخفاء شعوره بالتّفوق وتواضعه الكاذب وإيمانه العميق بأنّه وحده أو ربّما بمعيّة حزبه هما الوحيدان القادران في نهاية المطاف على اكتناه المثل الأعلى للعدالة في المجتمع كلّه. وبكلمة أخرى فإنّ النقد الذاتيّ الذي تمارسه الشخصيّة الروائيّة المعارضة كثيرًا ما يثبت أنّه ليس سوى وسيلة لتثبيت «سلطتها الثقافيّة.» هذا التفوّق الذي يحاول المثقّف أن يثبته لنفسه بطريقة ملتوية تنجّيه من انتقاد الذات، يشكّل طريقته لفصل نفسه والتعالي على الدولة، والناس، والمجموعات المسحوقة ذكوريًّا وطبقيًّا.

يشكّل استعلاء المثقّف على السلطة نوعًا من الإنكار ومحاولة كبت رغبة المثقّف بالسلطة؛ فمثل هذا المثقّف برأي سماح، رجل منبهر بالسلطة، ولكنّه عاجز عن القيام بما يلزم للوصول إليها، سواء أكانت سلطة سياسيّة أو اقتصاديّة. وبالتالي، فإنّ المثقّف مرتبط بالسلطة وتابع لها، حتّى لو عارضها وانتقدها أو تماثل معها ووالاها، طالما أنّه غير قادر على أن يعيد تعريف الثقافة ودورها في المجتمع.

وبخلاف نماذج المثقّف التي تطالعنا في دراسة سماح للرواية في التجربة الناصريّة، نجد في دراسته عن رئيف خوري نموذجًا للمثقّف المتمرّد على كلّ شكل من أشكال التحالف مع السلطة، سواء أكانت داخليّة أم خارجيّة. هو المثقّف الملتزم بمبادئ التغيير القائم على الحريّة والعدالة الاجتماعيّة وقيمه، والمتحرّر في الوقت نفسه من أيّ قولبة أيديولوجيّة يمكن أن تفرّغ هذه المبادئ من مضامينها وتحوّلها مجرّد شعارات. فرئيف خوري كما يصفه سماح، كان اشتراكيًّا، ولكنّه كان أيضًا مؤمنًا بالفكر العروبيّ التقدميّ، ومن هنا نبَعَ رفضه لأن يكون السوفييت مرجعًا لمسار التقدّم والتغيير في الوطن العربيّ، بموازاة رفضه للتدخّل الإمبرياليّ الغربيّ. ومن هنا أيضًا أصرّ على إيجاد نماذج لقيم العدالة الاجتماعيّة ومبادئها: الحرّيّة والكرامة في التاريخ العربيّ الإسلاميّ. ويبيّن سماح أنّ مشروع رئيف في تعامله مع التراث العربيّ الإسلاميّ، لم يكن تمسّكا بماضٍ بائد هربًا من مواجهة حاضر مهزوم، بل محاولة للاستفادة من هذا التاريخ لبناء مجتمع أفضل، مستقلّ بقيمه وأفكاره كما في بناه السياسيّة والاقتصاديّة.

ويُبيّن سماح أنّ مثقّفين من مثل رئيف خوري الذين يدعون الدولة «إلى أن تُخلي بين الشمس والمثقّف،» قلّما يتمثّلون في صور المثقّفين التي يرسمها رواة التجربة الناصريّة وأدباؤها. فمعظم تلك الشخصيات الروائيّة التي تجسّد المثقّفين لا ترى مصدرًا للتقدّم والتغيير إلّا من خلال سلطة مؤسّساتيّة، وهي بذلك تثبت عجزها وولعها بالسلطة في آنٍ.

يقول سماح إنّ الفعل الثقافيّ المعارض والثوريّ، هو ذلك الذي يجعل من الكتابة وسيلة الكاتب في مناصرة «كلِّ مَن يعمل، بكدّ وتفانٍ وحبّ، على الخلاص من سارقي أحلام شعبنا في الحياة الكريمة الحرّة.» ويربط بين إمكانيّة وجود مثقّفين ثوريّين كحالة عامّة ومؤثّرة (مثل مهدي عامل أو ناجي العلي)، وبين وجود حاضنة سياسيّة تتمثّل في مشروع وطنيّ وقوميّ تقدميّ. وحتّى عند تراجع سياق العمل السياسيّ الثوريّ، يبقى هناك المثقّفون الرافضون للواقع المهزوم، والراغبون في مقاومته مسلّحين بإيمانهم بدور الثقافة في المقاومة والمواجهة. وبالنسبة إليه، «من الخطأ التلكّؤ في السير على طريق النهوض الثقافيّ بذريعة هزيمتنا السياسيّة والعسكريّة أمام الاحتلال أو الاستعمار، أو بسبب وقوع بلادنا في قبضة أنظمةٍ بوليسيّةٍ عربيّةٍ كابحة. إنّ تخلّي بعض المثقّفين عن دورهم النهضويّ إنّما هو أحدُ أسباب التضعضع العربيّ العميم، لا نتيجةٌ له فقط.» وفي مثل هذا السياق، فإنّ دور المثقّف لا يقتصر على الفعل الثقافيّ أو الكتابيّ، بل يتعدّاه ليشمل أشكالًا من الفعل النضاليّ السياسيّ والنقابيّ.

المثقّف إذن مقاتل. وقتاله هو ضدّ كلّ شكل من أشكال الظلم، وضدّ كلّ ما قد يقتل الأمل بمستقبل من الكرامة والحرّيّة. سماح إدريس، وكما يظهر من دراسته عن مثقّفي التجربة الناصرية، يعلم أنّ بعض الصمت عار وأنّ بعض الكلام عار، ولكنّ فعل الكتابة الذي يقف في مواجهة الظلم ورفضًا له، في ظلّ واقع سياسيّ بائس ومهزوم، يمكنه فعلًا أن يكون مصدرًا للأمل والتفاؤل؛ ليس تفاؤلًا رومانسيًّا أو متعاميًا عن الواقع، بل أمل مستمدّ من الإيمان بعدالة القضيّة التي من أجلها تصبح الكتابة فعلًا نضاليًّا. ويكون الأمل الذي يُقدّمه المثقّف العضويّ أملًا مستندًا إلى «حقائق الأرض والتاريخ.»

بيرزيت

الرائد في دراسات الثقافة السياسيَّة

محمد جمال باروت*

كان لقائي بسماح محطّةً أساسيّةً في زياراتي لبيروت منذ أوائل تسعينيّات القرن الماضي، بعد أن واصل مسيرةَ والده الرائد سهيل إدريس، في رئاسة تحرير مجلّة *الآداب*. وفي كلّ لقاء، كنت أكتشف فيه جوانب إنسانيّةً ونقديّةً وإبداعيّةً؛ إذ كانت شخصيّة سماح متعدّدة الأبعاد، ومتكثّفةً في شخصيّة مثقّف نقديّ عربيّ، ديناميكيّ ومبدع، ومنخرط بشكل عمليّ في الأحداث. أمّا فكر سماح، فقد تعرّفتُه لأوّل مرّة من خلال كتابه **المثقّف العربيّ والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصريّة**. وكان هذا الكتاب أطروحتَه للدكتوراه في جامعة كولومبيا، والتي نشرها مترجمةً إلى العربيّة في سنة ١٩٩٢.

والكتاب يتجاوز حدود النقد الأدبيّ بمعناه النصّيّ، إلى دراسة منفتحة على أسئلة سياسيّة واجتماعيّة وتاريخيّة، عصفت بمناقشات المرحلة التي درَسَها سماح. ويسمح ذلك في تقديري، بتصنيف هذا البحث كمحاولةٍ رائدةٍ في دراسة الثقافة السياسيّة للنخب المُبدِعة، كما تتمثّل في الروائيّين. وهذا المجال، أي مجال الثقافة السياسيّة بات فرعًا معرفيًّا من فروع العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، له محدّداته ومفاهيمه وإشكاليّاته ومقولاته التفسيريّة. لقد أنتج سماح عملًا رائدًا في هذا الخصوص، لا تزال قيمته حاضرةً، وذات أهمّيّة مرجعيّة في تحوّلات العلاقة بين المثقّفين والسلطة في الوطن العربيّ.

إشكاليّات العلاقة بين التخييل والواقع

يطرح سماح إشكاليّة العلاقة بين التخييل والواقع، بوصف التخييل تكثيفًا لأعلى مراحل الثقافة، من رؤًى وأفكارٍ وقيمٍ يُعبّر عنها الراوي أو الراوي الضمنيّ. وهو يضع إشكاليّته الموضوعاتيّة وفق فهمه لهذه العلاقة، في إطار السجال حول إشكاليّات العلاقة بين المثقّفين والسُلطة في الوطن العربيّ. إنّ موضوعه البحثيّ ليس التجربةَ الناصريّة في حدّ ذاتها، بل إشكاليّات العلاقة بين المثقّفين، وبين هذه التجربة الكبرى كما تبرز في الرواية، في تاريخ العرب الحديث، من منطلق التمايز بين المجتمع الروائيّ والمجتمع السياسيّ.

في السنة التي أنجز فيه سماح أطروحته، عُقِد أكثر من سبعة مؤتمرات للمثقّفين حول إشكاليّة العلاقة بين المثقّف والسلطة. وقد برزت فيها اتّجاهات ومنظورات متنوّعة، من تلك التي تتميّز برفض المثقّف للسُلطة، إلى الاتّجاه الذي مَثّله سعد الله إبراهيم بتجسير العلاقة بين المثقّفين والسلطات لتحقيق الصالح العام. وقدّم بحث سماح مساهمةً هامّةً للدراسات الثقافيّة، في مسحها النقديّ لآراء المثقّفين والمبدعين إبّان التجربة الناصريّة. وقد كان سماح حريصًا على ألّا يكون طرفًا في الجدل، بل أن يُبيّن عمق الإشكاليّة وخلفيّتها منذ بداية التجربة الناصريّة ببرامجها التغييريّة، ثمّ يذهب إلى الفضاء الآخر الذي تجلّت فيه هذه الإشكاليّة وجدلها، وهو الفضاء الروائيّ الذي يكشف الجوّانيّة والملموسيّة في التجربة، بما هو أشمل ممّا تكشفه الملاحظة السوسيولوجيّة التجريبيّة.

يطرح سماح إشكاليّة العلاقة بين التخييل والواقع، بوصف التخييل تكثيفًا لأعلى مراحل الثقافة

لا يتجاهل سماح أبدًا خصوصيّةَ الرواية كجنسٍ أدبيٍّ مميّز، وتنوّعَ الأساليب السردية بين سرديّة كرونولوجيّة وأليغوريّة، والسرد ذي وجهات النظر والمستويات المتعدّدة؛ فكلّ رواية هي امتصاصٌ لتقليد سابق بهذا القدر أو ذاك، تتمثّله، وتحاول أن تضيف إليه شيئًا جديدًا. وهو ما يدعوه المصطلحَ الدالَّ عليه، وهو التناص. غير أنّ مفهوم التناص يأخذ في تحليل سماح، مدًى أوسع من مفهومه النصّيّ اللغويّ، إلى مفهومه الثقافيّ المعرفيّ التخييليّ، ليتضمّنَ كذلك العلاقة بين ما أنتجه الروائيّ، وماسبق له أن قرأه من روايات. يصوغ سماح في ضوء هذا المنظور رؤيتَهُ لإشكاليّات العلاقة بين التخييل الروائيّ والواقع، في الروايات التي يدرسها. لكنّه يراها، وفق تقديري، جنسًا سوسيولوجيًّا مميّزًا، يتّسم عالمه التخييليّ بالإحاليّة

* باحث وناقد سوري، عُني بقضايا نظرية الأدب والشعرية الحديثة والدراسات الثقافية والفكرية. مختصّ بالتاريخ السوري الحديث. عمل مديرًا لعدّة مشاريع تنموية في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي وفي عدّة منظّمات دولية في سوريا. وهو حاليًا باحث مقيم في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة.

المرجعيّة إلى الواقع، وبملموسيّته التاريخيّة والاجتماعيّة. ويُوفّر من خلال ذلك، مقروئيّةً له في الزمن التاريخيّ المحدَّد الذي أنتِج فيه. فالروائيّ يوهم دومًا، بأنّ ما يرويه قد حدثَ، وأنّ شخصيّاته ليست من حبر وألفاظ وورق، بل هي شخصيّات حياتيّة. ويعتمد سماح مقاربةً منهجيّةً مُشتقّةً من هذا الفهم، تقوم على بحث التشابك بين الاجتماعيّ ـ السياسيّ، وبين البيوغرافيّ في روايات التجربة الناصريّة.

حياة الراوي والحياة الروائيّة

ليس المقصود بالبيوغرافيّ حياةَ الروائيّ وتجربته الشخصيّة فحسب، بل وحياته الروائيّة التي سمح استخدام سماح لمفهوم التناص في جلائها؛ أي ما يمكن وصفه بتمثيل الرواية تلك التشابكاتِ ـ وإعادة إنتاجها وتصوّرها وبنائها تخييليًّا من جديد في تجربة الرواية ـ مع التجربة الكبرى في التاريخ العربيّ الحديث، التجربة الناصريّة. فالجانب البيوغرافيّ بهذا المعنى الواسع الذي يرتبط بعالم الخبرة والممارسة والمعايشة مع التجربة السياسيّة ـ الاجتماعيّة، واضحٌ في الشخصيّات الروائيّة التي درسها سماح، ومنها استخلص اتّجاهات الرواية في علاقتها بالتجربة الناصريّة. من هنا، انطوت معظم الروايات التي درسها في مستوى روايات السيرة الذاتيّة، ولا سيّما روايات صنع الله إبراهيم وغالب هلسا.

ومعروف أنّ العديد من كُتّاب تلك الروايات كابد تلك العلاقةَ مع النظام الناصريّ حياتيًّا؛ بعضهم دخل السجون واعتُقِل، وبعضهم تبوّأ مناصب ثقافيّة وبقي معارضًا للمؤسّسة الناصريّة من موقع يساريّ. لكنّهم جميعًا كانوا «مثقّفين» بالمعنى الإنتلجنسَوي للمثقّف، أي ذوي رؤًى فكريّةٍ وسياسيّةٍ، يتطلّعون إلى التغيير وتخطّي الواقع السائد وهيمناته وسلطاته القائمة.

يمكن القول إنّ هؤلاء الروائيّين أنماطٌ مميّزةٌ من المثقّفين العرب، في مرحلة علَت فيها رؤى التغيير الشامل في المرحلة الناصريّة. وما يدعم مقاربة سماح، هو القدرة على النظر إلى التجربة الناصريّة كتجربة مثقّفين، من منطلق أنّ التجربة الناصريّة كانت غراسها قد زُرِعت في بيئة المفكّرين وإنتاجهم قبل الثورة من جهة، ومن كونها قد جنّدت جيشًا من المثقّفين والمبدعين ومنتجي الأفكار من جهة ثانية. وبالتالي، شارك هؤلاء مباشرةً في نشر هيمنتها الأيديولوجيّة بطُرُق شتّى؛ فهم جميعًا مرتبطون بها عبر علاقات إشكاليّة، ويعانون التوتُّرات بين المأمول وبين الواقع.

شموليّة الرواية في تمثيلها الواقع

ما يُبرّر مقاربة سماح المنهجيّة هذه، هو أنّ الروايات التي درسها حول التجربة الناصريّة تستدعي تلك المقاربة المنهجيّة، والتي هي مقاربة إجراءات بحث ورؤية في آنٍ. فهذه الإشكاليّة أبعد

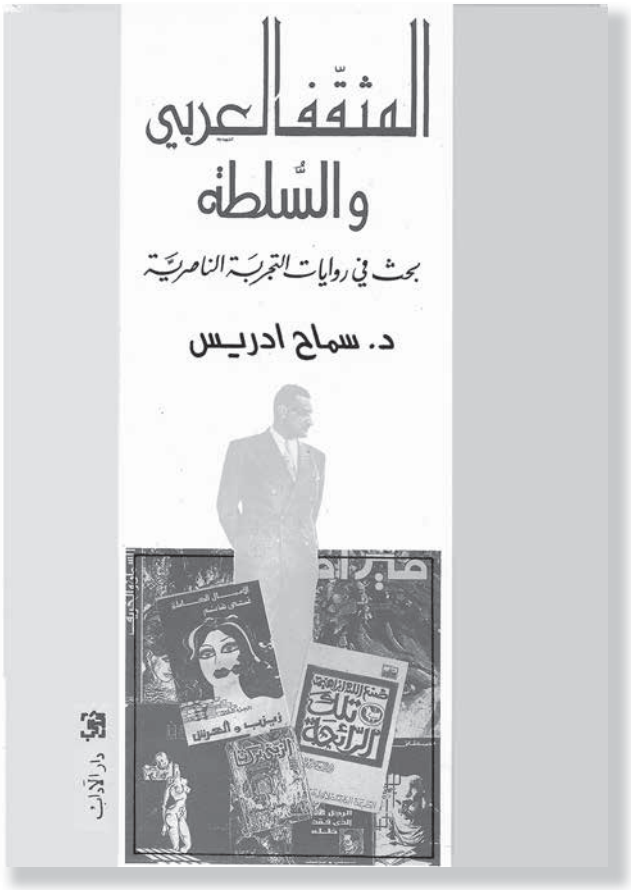

ما تكون عن أسئلة النقد الأدبيّ بمعناه النصّيّ، لكنّها تدخل في صميم فهم سماح لنظريّة الأدب عمومًا، ونظريّة التخييل الروائيّ خصوصًا.

تتميّز الرواية عن سائر الأجناس الأدبيّة الأخرى، بكونها جنسًا مفتوحًا يستوعب الخبرات والمعارف والتفاصيل والصور والحدثيّات والوقائع وصوَر الناس ومقاطع الحياة جميعها. وتتكثّف هذه التفاصيل في رؤية الروائيّ أو وجهة نظره إلى عالمه، وتمثيلها سرديًّا. وقد اختار سماح الرواية وليس الشعر أو المسرح، أو أيّ جنس أدبيّ وكتابيّ آخر، لأنّ دور الرواية في منظوره أساسيٌّ في تمثيل الواقع وإعادة إنتاجه تخييليًّا من جهة، ولكون تلك الروايات تعبّر عن إشكاليّة اللا ثقة بين المثقّف والسلطة. والأهمّ لكون الرواية تسمح، بطريقة أوضح، في الحديث عن المجتمع الروائيّ.

وهنا، يُميّز سماح بين مجتمع الرواية وبين مجتمع الواقع. إنّ مجال دراسته هو مجتمع الرواية. لكن، لن يمكن فهم هذا المجتمع الروائيّ بحكم أسلوبيّته السرديّة السوسيولوجيّة التمثيليّة للواقع الذي يمتدّ في فضاء الرواية الواقعيّة بمعناها العام، بمعزل عن الواقع الذي أُنتِجت الرواية في سياقه. لذا، يهتمّ سماح بتمثّل المجتمع الروائيّ ما هو «خارجه» طارحًا بالتالي إشكاليّة العلاقة بين التخييل والواقع، والتي لا تزال إشكاليّةً كبرى، سواء أكان

العمل الروائيّ يرتكز على ذاته، أم على إشكاليّات اجتماعيّة ـ سياسيّة ـ ثقافيّة محلٍّ جدلٍ وتفاعل وانقسام، وتعدّدِ رؤًى في عالم «الخارج» كما يصفه سماح.

تعدُّد الاتّجاهات الأدبيّة وسعة أفق النقد الأدبيّ

لقد اختار سماح عشرين روايةً تتّسم بالأهمّيّة الأدبيّة والاجتماعيّة السياسيّة، بدلًا من اختيار عدد قليل من الروايات، أو حصر بحثه بنتاج روائي واحد. وسمح له ذلك بتمييز رؤًى ومواقف متعدّدة ومتنوّعة، أو بما سمّاه سماح «تيّارات،» ونُفضّل تسميتها اتّجاهاتٍ. وكانت الروايات تلك لنجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم ويحيى حقّي ويوسف السباعي وغالب هلسا وصنع الله ابراهيم وجمال الغيطاني. ويتميّز هؤلاء بتنوّع أسلوبيّاتهم السرديّة التخييليّة، وطُرُق تَمثّلهم للواقع. لكنّهم يشتركون جميعًا في كونهم عاشوا في خِضمّ التجربة الناصريّة، وكانت لكلٍّ منهم تجربته معها التي عبَّر عنها، بشكل يسمح بتمييز تنوّعات في الرؤى والاتّجاهات والمواقف تجاه تلك التجربة.

تقع مساهمة سماح ضمن نوع من الدراسات التي تتخطّى حدود النقد الأدبيّ بالمعنى النَصّي، إلى أفق دراسة الثقافة السياسيّة مميَّزةً في الإنتاج الروائيّ، والتي دارت حول إشكاليّة كبرى من إشكاليّات تلك الثقافة، وهي إشكاليّة العلاقة بين المثقّف والسلطة. ومع أنّ جذور المفهوم تعود إلى القرن التاسع عشر، إلّا أنّه ظهر كمفهوم مرتبط بتبلور حقل معرفيّ، هو حقل الثقافة السياسيّة، في أواسط القرن العشرين، وتحديدًا في العلوم السياسيّة. لكنّ هذا المفهوم وإشكاليّاته قابل للإغناء بصورة مستمرّةٍ، بحكم ما يفترضه من طبيعة منهجيّة متعدّدة الاختصاصات، أو ما نصفه بالمنهج التكامليّ. إنّ دراسة سماح للسرديّة وللإشارات الأليغوريّة في بعض الروايات، تقع في صميم نقد الفضاء الروائيّ، وهي تقع أيضًا في صلب الثقافة السياسيّة؛ فتعبير الأليغوريّة هنا يشير ببساطة إلى مواجهة القمع والسلطة الضاغطة والرقابة البوليسيّة على الضمير والأفكار.

لقد سمحت مقاربة سماح الرائدة هذه في الثقافة السياسيّة، بتنميط المواقف أو الاتّجاهات من العلاقة بين المثقّف والسلطة، وما تكشفه عن ثقافةٍ ورؤًى وأفكارٍ وقيمٍ ثقافيّة سياسيّة اجتماعيّة في تنميطات الموالي ولاءً مطلقًا، والاعتذاريّ، والموالي بتحفُّظ، والموالي نقديًّا، والرافض، والانتهازيّ، والهروبي/المترجّع، والمستعدي. وهو يحدّدها كتنميطات وصفيّة وليس كتنمطيات معياريّة، بما يكشف عن اتّجاهات الثقافة السياسيّة وأنماطها، أو ما يسمّيه سماح تيّارات.

خُلاصة

إنّ تقييمنا لمساهمة سماح المبكّرة والرائدة في مجال الثقافة السياسيّة، في الثقافة العربيّة الحديثة، يسمح لنا بقراءة مفهومه للرواية السياسيّة في هذا السياق. لقد ظهر هذا المفهوم لدى سماح في بدايات بحثه، وأخذ يتطوّر وصولًا إلى توقّفه عنده في خاتمة البحث. ومفهوم الرواية السياسيّة هنا وثيق الصلة بمفهوم الثقافة السياسيّة. وقد خصّص له سماح الفصل الرابع ليحلّل

تقع مساهمة سماح ضمن نوع من الدراسات التي تتخطّى حدود النقد الأدبيّ بالمعنى النَصّي، إلى أفق دراسة الثقافة السياسيّة مميّزةً في الإنتاج الروائيّ

طقمًا مترابطًا من مفاهيم التوقيف والتعذيب والوظيفة والمرأة والجماهير والحزب والحزب المعارض والدين والمثقّف والسلطة. هذه المحاور هي ما يميّز الرواية السياسيّة كما يصفها سماح في دراسته للروايات العشرين، وهي برُمّتها مفاهيم ثقافيّة سياسيّة. وتتخطّى الرواية السياسيّة هنا المفهوم السياسويّ للواقع، إلى مفهوم التوجّهات الفرديّة من السياسة، وهي توجّهات يشتغل فيها الذاتيّ او السِّيَريّ الفرديّ الاجتماعيّ، في مفهوم سماح لعلاقة السيرة بالرواية، وموقع الراوي الضمنيّ فيها، بأبعادها المعرفيّة الثقافيّة والعاطفيّة والقيميّة. وهذا كلّه من أبرز مدارات مفهوم الثقافة السياسيّة. وفي خاتمة بحثه يتساءل سماح عن آفاق الرواية السياسيّة العربيّة، متسائلًا في العمق عن الثقافة السياسيّة الديموقراطيّة. وهو ما يضع سماح في ريادة دراسات الثقافة السياسيّة في الثقافة العربيّة الحديثة، عبر مجال مُميّز لها هو مجال التخييل. هذا ما نتعلّمه من سماح، وأنا واثق أنّه لا يزال هناك الكثير مما نتعلّمه من إرثه، ونكتشف كم فيه من روحِ الريادةِ.

الدوحة

المقاطعة والخيار الثالث في الانتفاضات العربيَّة

علاء اللامي*

بجهود الراحل سماح إدريس ومَن معه، وخصوصًا خلال سنوات نشاطه الحافلة الأخيرة، تحوّلت مقاطعة الكيان الصهيونيّ من نشاط سلميّ نخبويّ ومناسباتيّ، يقوم به بعض الخيّرين المنحازين إلى الحقّ الفلسطينيّ في أوقات فراغهم، إلى سلاح سلميّ مؤثّر يؤرِّق العدوّ ويكبّده خسائر فادحة في لبنان وخارجه. إنّ هذه الخسائر ـ حتّى في حجمها الحاليّ ـ هي ما دفع حليفة الكيان وحاميته الأولى، الولايات المتّحدة، إلى سنِّ قوانين تحظر هذا السلاح في عدد من الولايات، وتعاقب على استعماله والدعوة إليه.

المقاطعة: أسس أخلاقيّة وعمل دؤوب

في هذا السياق، ذكر تقرير لمنظّمة «هيومن رايتس ووتش،» بتاريخ ٢٣ نيسان/ أبريل ٢٠١٩، أنّ «٢٧ ولايةً أميركيّةً تبنّت قوانين أو سياسات تُعاقِب الشركات أو المنظّمات أو الأفراد الذين يشاركون في مقاطعة إسرائيل أو يطالبون بذلك.» بل إنّهم تمادوا في سلوكهم القمعيّ لدرجة أنّهم استهدفوا بقوانينهم العقابيّة، حتّى «الشركات التي ترفض القيام بأعمال تجاريّة في المستوطنات الإسرائيليّة، وبعض الولايات التي لا تنطبق قوانينها بشكل صريح على المستوطنات، عاقبت أيضًا الشركات التي قطعت علاقاتها بالمستوطنات.»

إنَّ هذا التحوّل في مسار عمل منظّمات المقاطعة العربيّة والعالميّة وطبيعته، لم يتمَّ بسهولة وبين عشيّة وضحاها؛ بل من خلال عمل دؤوب وصبور، وجهود كثيفة ومضنية بذلها ناشطون وناشطات من اتّجاهات سياسيّة وفكريّة شتّى، يغلب على بعضها الطابع الديموقراطيّ واليساريّ. وقد شارك في التخطيط لها والمساهمة في تطبيقاتها آخرون لا يُحسبون على اتّجاه فكريّ أو سياسيّ معيّن، بل يتحرّكون بدفع وتحريض من الضمير والوجدان والانحياز الفطريّ للحقّ ضدّ الباطل، وللجمال ضدّ القبح، وللنّور ضدّ الظلام. وكان لسماح إدريس دور كبير وتأسيسيّ فعّال في هذه العمليّة على المستويين اللبنانيّ والعربيّ.

لم يقتصر دور الراحل على النشاط العمليّ الدؤوب والملاحقة اليوميّة الدقيقة للنشاطات التطبيعيّة والمتعاملة مع دولة العدوّ، وتفعيل سلاح المقاطعة ضدّها. بل شمل أيضًا الجانب التنظيريّ والتعريفيّ لعمل المقاطعة، وتعريف «التطبيع» ذاته. وفي هذا الصدد، نشر سماح العديد من الكتابات، وألقى العديد من المحاضرات والمداخلات. وعلى سبيل المثال لا الحصر، ألقى سماح مداخلةً حول «التطبيع الثقافيّ،» تناول فيها تعريف التطبيع عمومًا، ومخاطره والقوانين والمعايير والذرائع والمسؤوليّة المتعلّقة به. فقال مُعرّفًا إيّاه بأنّه «السعيُ إلى ترويض عقولنا على تقبّل الفكرة الآتية: لا إمكانيّةَ لعيشنا إلّا بقبول القامع وشروطِه، وهذا التقبّل ناجمٌ عن قناعتنا بأنّ القامع أقوى منّا الآن، وربّما إلى الأبد؛ أو هو ناجمٌ عن جهلِنا بلحظاتِ قوّةٍ وفَخارٍ وانتصارٍ في تاريخنا القديم أو الحديث.»

وقد انحاز سماح خلال النشاط المقاوم للتطبيع والمؤيّد لمقاطعة دولة العدوّ، إلى الموقف التقدّميّ الأمميّ الإنسانيّ الرافض لأيّ توجّهات أو نزعات عنصريّة أو طائفيّة. فقد شدّد على أنّ «معركتَنا مع «إسرائيل» وداعميها تشمل القيمَ الأخلاقيّةَ والإنسانيّة. ولهذا فحملتُنا لا تواجه العنصريّةَ والطائفيّةَ ـ الصهيونيّة ـ بعنصريّةٍ وطائفيّةٍ مضادّتيْن.» وهو بذلك يرفض وبشكل حازم، أيّ تحريض طائفيّ أو عنصريّ ضدّ العدوّ أو جمهوره، برغم معرفته بأنّ هذا العدوّ عنصريّ حتّى النخاع، ومذهبيّ وطائفيّ في تفكيره وممارسته. تمسّك سماح بقيمه الأخلاقيّة والإنسانيّة التقدّميّة، ورفض معاداة اليهود لأنّهم يهود؛ بل كان يعادي الصهاينة منهم عميق العداء، ويحرّض ضدّ دولتهم المسخ لأنّهم غزاة ومحتلّون اغتصبوا وطنًا وشرّدوا شعبه إلى مخيّمات اللجوء، ومارسوا اضطهادًا وعدوانًا غاشمًا على من بقي بأرض وطنه فلسطين.

أعتقد أنّ الوفاء لذكرى رفيقنا الراحل سماح إدريس وروحه، يوجب على محبّيه والسائرين على دربه مواصلة ما بدأ به وشارك فيه، وبذل من أجله جهودًا نبيلةً ومشرّفة.

---

* كاتب عراقيّ يقيم في سويسرا. له العديد من المؤلَّفات في الأدب والبحث العلميّ في التاريخ والتراث واللغة، منها: **دليل التنشيز**، **سيرة اليمامة البابليّة** (شعر)، **قصائد حبّ باتّجاه البحر** (شعر أجنبيّ مترجم)، **إيجابيّات الطاعون** (نصوص مسرحيّة)، **نصوص مضادّة دفاعًا عن العراق**، **نقد المثلّث الأسود** (مقالات)، **السرطان المقدّس: الظاهرة الطائفيّة في العراق من المتوكّل العباسيّ إلى بوش الأمريكيّ** (دراسات)، **المبسَّط في النحو والإملاء** (لغة)، **موجز تاريخ فلسطين منذ فجر التاريخ حتى الفتح العربيّ الإسلاميّ** (تاريخ)، **نقد الجغرافيا التوراتيّة خارج فلسطين** (تاريخ).

وسيكون ضروريًّا ومفيدًا وباعثًا على الأمل والوفاء، التفكير جدّيًّا بتقديم مقترحات عمليّة وأفكار بنّاءة وقابلة للتطوير والتنفيذ؛ من قبيل المقترح الذي قدّم في مؤتمر مناهض للتطبيع التربويّ عُقد في بيروت، في الثامن من كانون الأوّل من سنة ٢٠٢١، ومفاده «تشكيل إطار جامع وتنسيقيّ، والتواصل مع كلّ الجمعيّات المناهضة للتطبيع.» أو حتّى التفكير والتخطيط لعقد مؤتمرات إقليميّة، وعلى المستويين العربيّ والعالميّ، للتطوير والتنسيق بين جمعيّات ومنظّمات المقاطعة ومناهضة التطبيع.

وقد دفع انحياز سماح إلى المبادئ الإنسانيّة كأسس لنشاطه السياسيّ، إلى تبنّي خيار ثالث بخصوص الانتفاضات الشعبيّة المليونيّة ضدّ أنظمة الاستبداد والتوريث والفساد التي شهدتها بعض الدول العربيّة مطلع العقد الثاني من هذا القرن، في ما سُمّي «الربيع العربيّ.» ويمكن التنويه بهذا الخطّ أو الخيار الذي تبنّاه سماح إدريس ودافع عنه. وقد دعا سماح الى هذا الخيار ودافع عنه وفصّل خصائصه في مقالات عدّة، اخترتُ اثنتين منها لأهمّيّتهما التوثيقيّة.

الانتفاضة السوريّة: في إدانة القمع ونقض الحتميّة التاريخيّة

عند اندلاع الانتفاضة السوريّة، خطّ سماح مقالةً جريئةً ومبدئيّةً في تناولها هذا الحدث واستشراف آفاقه بعنوان: «ليس بالممانعة وحدها تحيا سوريا.»[١] في هذه المقالة، يُدين سماح القمع السلطويّ للتظاهرات السلميّة، فيكتب في جريدة **الأخبار** (عدد ١٦ أيّار، ٢٠١١) ما يلي: «ما يجري في سوريا من اعتقال وكبت وقتل وتعذيب لا يُمْكن تبريرُه ولا السكوتُ عنه، أيًّا كانت الذرائع.» وقد علّل هذا الموقف بالقول بعدم إمكانيّة «التسليم بأنّ البديل من النظام الحاليّ سيكون (بالضرورة) فوضى مطلقةً، أو نظامًا سلفيًّا، أو تطبيعًا مع العدوّ الإسرائيليّ. التسليمُ بهذا الأمر هو من قبيل الحتميّة التاريخيّة اليسراويّة المقلوبة.»

قد يقول البعض إنَّ الأحداث اللاحقة في سوريا أثبتت خطأ هذا الرأي. وهذا قول خارج السياق تمامًا. فقد كتب الراحل ما كتب، والتظاهرات في سوريا في بداياتها، وكانت سلميّة ولم تنجرّ بعد إلى العسكرة. وهو قد حذّر في مقالته هذه من أنّه «كلّما ازداد الكبتُ السلطويّ، اتّسع نفوذُ الجامع والطريقة والزاوية. إنّ خيرَ حليف للسلفيّة والأصوليّة، ويا لَلْمفارقة، إنّما هو فشلُ السلطة في إرساء دولة لكلّ مواطنيها، أيْ فشلُها في ترسيخ العدالة والديموقراطيّة!» ويُضيف قائلا: «هذا عن السلفيّة في صيغتها السلميّة. أمّا في صيغتها القتاليّة، فهي أيضًا تتعزّز وتزداد شراسةً كلّما ازداد عنفُ السلطة الحاكمة أينما كانت، في الجزائر أو مصر أو اليمن أو غيرها. لم يكن الحلُّ الأمنيُّ نافعًا مع الأصوليّة الجهاديّة على المدى الطويل.» ولهذا، فإنّ «الحلّ» الأمنيّ مع السلفيّة القتاليّة، إنْ وُجدتْ أصلًا في سوريا، وبالحجم المعطى لها في الإعلام الرسميّ، لن يُخْمِدَها، بل سيزيدُها استعارًا. غير أنّ هذا لا يَمْنعنا من السؤال: من أين نَبَتَ السلفيّون في سوريا فجأةً، وبهذه الأعداد، وبهذه الشراسة، على ما لا يكفُّ الإعلامُ الرسميُّ السوريّ عن الترداد؟»

لقد أثبتت الأحداث الجسام اللاحقة، وبعد سنوات من التدمير الذاتيّ والتدخّل الأجنبيّ الصريح إلى جانب الطرفين في المواجهة السوريّة، دقّةَ وصواب مقاربة سماح؛ فقد أصاب سوريا الحبيبة ما أصابها من هجرة وتهجير لنصف سكّانها، وتدمير وخراب شامل، من دون أن يقترب خلاصها الحقيقيّ.

وقد انحاز سماح خلال النشاط المقاوم للتطبيع والمؤيّد لمقاطعة دولة العدوّ، إلى الموقف التقدّميّ الأمميّ الإنسانيّ الرافض لأيّ توجّهات أو نزعات عنصريّة أو طائفيّة

الخيار الثالث[٢]

مع استفحال الانقسامات حول ماهيّة الانتفاضات ومآلاتها، جهد سماح في مواجهة الفكر التسطيحيّ الذي لا يكشف عن التناقضات والتعقيدات للتطوّرات التي حدثت، بل يؤدّي إلى اصطفافات حادّة. فكتب مقالةً بهذا الصدد بعنوان «الخيار الثالث،» تكلّم فيها بصراحة ودقّة عمّن يؤيّدون هذه الانتفاضات الشعبيّة، وما آلت إليه من جهة. وعمّن يناوئونها ويعادونها من جهة ثانية، فيسقطون في حمأة الدفاع عن أنظمة الاستبداد ومعاداة الحراك الشعبيّ السلميّ.

في مقالته الثانية «الخيار الثالث،» دعا سماح إلى تصويب التسميات المتداولة على شكل بديهيّات، كالاستبداد والديموقراطيّة؛ «فالاستبدادُ العربيّ،» على حدّ قوله، «ليس مستقلًا تمامًا رغم ادّعائه العكس، بل يتغذّى من داعم خارجيّ، وقد يغدو تابعًا له في بعض اللحظات الحرجة. لذا، فإنّ تهمة الارتباط بالخارج لا تنطبق على 'المتعاونين' مع الغرب الإمبرياليّ وحدهم، بل قد

(١) جريدة **الأخبار**، ليس بالممانعة وحدها تحيا سوريا. https://al-akhbar.com/Opinion/88412

(٢) مجلة *الآداب*، الخيار الثالث. https://tinyurl.com/2yw9uwzs

تنطبق على الاستبداد 'الوطنيّ' أيضًا. كما أنّ المرتبطين بالغرب الإمبرياليّ ليسوا، بالضرورة أو بالبديهة، ديموقراطيّين مناقضين للاستبداد، إلّا إذا اعتبرنا حكّامَ العراق ما بعد «التحرير» سنة ٢٠٠٣ أو كرزاي الأفغانيّ نماذجَ للديمقراطيّة.»

وبحسب سماح، فإنّ الدعوة إلى مواجهة سياسة الفريقين، لا تعني رفضًا مطلقًا لأيّ مقولات نظريّة أو سرديّات تحرّرية لأيّ منهما؛ فمناداة الاستبداد بتحرير فلسطين والمقاومة والوحدة العربيّة والاشتراكيّة، لا تعني أنّها من خصائص الاستبداد حصرًا. وعلى المقلب الآخر، «فإنّه إذا نادت القوى المتحالفةُ مع الغرب الإمبرياليّ بالديمقراطيّة وحقوقِ الإنسان مثلًا، فذلك لا يعني أنّ الديمقراطيّة وحقوقَ الإنسان ـ في حدّ ذاتهما ـ ذريعتان إمبرياليّتان لاستعمارنا!»

إنّ النبرة التعميميّة التي شهدناها في ما كُتب في تلك السنوات بأقلام مختلفة، تختفي هنا جزئيًّا، لمصلحة ولادة نثر تقدّميّ مبدئيّ لا يغادر التفاصيل والجزئيّات، حتّى وهو يؤسّس ويصقل مبادئه العامّة ومرتكزاته السياسيّة النظريّة للبديل التقدّميّ الثوريّ، والذي يسعى لتأصيله وتجذيره على أرض الواقع.

كان سماح يُدرك أنّ جهده الفرديّ يبقى محدودًا، لذلك اقترح تحويل هذه الأفكار إلى قوّة مادّية جماهيريّة، عن طريق ما سمّاه «ورش فكريّة.» وهو نبّه، وبنبرة تحذيريّة، إلى أنّ «هذه الأفكار العامّة تحتاج، بالطبع، إلى بلورةٍ شاملةٍ وتفصيليّةٍ معًا، وهو ما لن يتأتّى إلّا في إطار ورَشٍ فكريّةٍ عميقة. ولا نعني بالورَش هنا اجتماعاتٍ مغلقةً، داخل قاعاتٍ مغلقةٍ، تنحصرُ في 'نُخَبٍ' عربيّةٍ انفصل جزءٌ كبيرٌ منها عن حركة الناس وهمومِ الناس، واكتفى باستظهارِ ما كتبه أو قرأه منذ أجيال؛ في حين اكتفى جزءٌ آخرُ منها بالتنظير المملِّ لليأس من الوضع العربيّ و'العقلِ العربيّ.'

كما أنّنا لا نعني بها، حصرًا، اجتماعاتِ «الناشطين» الصاخبين كيفما كانوا. فجزءٌ مِن هؤلاء يَفتخر بكرهه للثقافة والمثقّفين والسياسةِ والسياسيّين، متوهّمًا تحقيقَ ثورةٍ بلا ثقافة ولا برامجَ، متباهيًا بتقديس «الشعب» و«العفويّة؛» وجزءٌ آخرُ من الناشطين أدمن المصطلحاتِ والأساليبَ «الأنجزيّة» (نسبة إلى المنظّمات غير الحكوميّة)، فقدّم أولويّةَ التحرير الاجتماعيّ والجندريّ على التحرير الوطنيّ والقوميّ، أو تجنّبَ كلَّ تصريح بتأييد المقاومة المسلّحة ضدّ المحتلّ والغازي.»

يتوصّل سماح في ختام مقالته هذه، إلى الخلاصة التعريفيّة لهذه الورش، بالقول: «الورَش التي نعنيها هنا هي حركةٌ واسعةٌ من العاملين الفعليّين (لا 'المؤمنين' المنظّرين) على بناء مشروعٍ عربيٍّ ثوريٍّ يحمل الخطوطَ العامّةَ أعلاه: فيكون مناهضًا شجاعًا للصهيونيّة والاستعمار والاستبداد معًا، مناضلًا من أجل الحقوق الفرديّة والجمعيّة على حدّ سواء، مستقلًّا عن كلّ إملاءٍ أو تمويلٍ رسميّ نظاميّ أو خارجيّ.»

ومعلوم ـ للأسف ـ أنّ هذه الفكرة المهمّة التي طرحها سماح، لم تُحقّق الكثير على الصعيد العمليّ للأسباب ذاتها التي جعلت مآلات الحراك الشعبيّ المليونيّ، في الانتفاضات العربيّة، تتّخذ مسارًا غير الذي تمنّاه وعمل من أجله التقدّميّون والديمقراطيّون المستقلّون النقديّون، ذلك برغم شرعيّة منطلقاته ونُبل أهدافه.

إنّ تناول سماح إدريس لظاهرة الانتفاضات العربيّة، يختلف جذريًّا عن تلك المقاربات التي لا تفصل بين بدايات هذه الانتفاضات المشروعة إنسانيًّا ومنطلقاتها، والمصائر التي آلت إليها في عدد من الساحات، وانتهت بهيمنة اليمين الليبراليّ أو الدينيّ، أو إلى العسكرة وحروب التدمير الذاتيّ المرعبة. وقد لا نجافي المنطق والواقع حين نقول إنّ قصور القوى التي تصف نفسها بالتقدّميّة البديلة، وعجزها عن القيام بدورها، كانا أحد الأسباب المهمّة في تكريس هذه المآلات القاتمة والحزينة. ويكفي سماح إدريس فخرًا أنّه قام بدوره، دور المثقّف الجريء والنقديّ والمشتبك، فحذّر ونبّهَ ووضع يده على بعض العلل ـ وما أكثرها ـ واقترح لها بعض العلاج قبل غيره. وبهذا سيذكره التاريخ، ويبقى في ضمير الناس وذاكرتهم الجمعيّة.

سويسرا

آداب سماح إدريس: إيقاد الفكر ومقارعة التفاهة

بيسان طي*

هذا المقال تمرين من أصعب ما واجهت؛ في صياغته، في بلورته، وفي الرّضا عمّا انتهى بي المقام إليه لدى توقيعه. وهو ليس شهادة، أو بحثا متقدّما في حياة سماح ادريس وإنتاجاته في السّياسة والثّقافة.

هو محاولة إجابة عن أسئلة تراودني:

هل أكتب في سماح إدريس رثاءً؟

هل وضع الموت نقطة فاصلة نهائيّة في مسيرة صداقة لا أعرف حقًّا، متى وكيف بدأت؟

وإن كتبتُ، هل أنطلق في الكتابة عنه من مقال له أعشقه؟ سيكون حتمًا مقاله عن جورج حبش يوم حضَر سماح ـ للمَرّة الأولى ـ حبش محاضرًا في صفوف الثوّار ومُحبّي فلسطين في جامعة بيروت العربيّة، وفوقه صورة جمال عبد الناصر، ترعى أحلامه وأحلام الحاضرين.

هل أكتب عن تلك الزاوية التي لجأتُ إليها في مقبرة الشهداء، في لحظة الوداع الأخير، هربًا من رؤية التراب وهو يغطّي جسد الصديق ووجهه؟

هل أجازف بكتابة تحاول، بتكثيف شديد، تقديم تجربته؟ وهل من تكثيف يختصر مسيرته؟ وبصيغة الغائب؟

ثمّة خاطرة تلحّ عليّ وأنا أعيد التفكير في سماح إدريس، الكاتب والمناضل والمثقّف، سماح لم يتماشَ مع زمن التفاهة. والتفاهة في تعريف قواميسنا «نقص في الأصالة والإبداع والقيمة.» بهذا المعنى نفهم معارك سماح كلّها: هي معارك ضدّ التفاهة؛ دفاعٌ عنيدٌ ضدّ استباحة العقل واللغة والأمّة.

عناد سماح تجلّى في الدفاع عن التميّز، عن الرفعة في كلّ أشكال الأداء، ضدّ كلِّ ما هو «عادي» و«متوسّط» الأداء. ذلك الوسط السياسيّ والثقافيّ الذي يمجّد «العاديّ،» قاتل الابداع، والذي سَمّاه الكاتب الكندي آلان دونو médiocrité، (هامش: لو قُدّر لسماح أن يقرأ هذا المقال لما اطمأنّ إلى ترجمة التعبير الفرنسي بـ«التفاهة،» ولنبش منهل اللغة العربيّة بحثًا عن تعابير أكثر ثراءً ودقّة).

في تلك المساحة المنحازة إلى الإبداع، كانت الانطلاقة المتجدّدة لـ *الآداب* سنة ٢٠١٥ تحت شعار «ما يمكث في الأرض ويحلّق نحو السماء.»[١] لا مكان إذًا في فضاء المجلّة لما يذهب جفاءً، بل أرشيف غني يستند إلى عقود من إنتاجات *الآداب* ومساحة افتراضيّة «جديدة» فتحت مجالات لكُتّاب عرب، منهم معروف ومنهم تمّ اكتشافه.

هي *آداب* سماح إدريس المتجدّدة، ضدّ ديكتاتورية «الوسط» و«العادي» و«التافه،» تكرّست، كما عرّفها هو، «قوّة متقدّمة في بناء وعي نقديٍّ متحرّك وذائقةٍ أدبيّةٍ وفكريّةٍ لم تلوّثها رياحُ الاستهلاك أو روائحُ النفط والغاز والطائفة والمذهب والعنصريّة... مقاومةً جذريّةً للعدوّ الإسرائيليّ حتّى تحرير كامل فلسطين وجميع الأراضي العربيّة المحتلّة، متصدّيةً لأشكال الظلم الاجتماعيّ والسياسيّ والجندريّ كافّة، حريصةً على تجديد أساليب الكتابة العربيّة، مسهمةً في تشييد ما أمكن من أشكال التكامل العربيّ.»[٢] ويسري التعريف هذا على كامل مسيرته، وكلّ محطّات نضاله، وأرقه الدائم للاقتراب من المثاليّة، والدقّة، ومقارعة المختلِف شرط ألّا يكون تافهًا؛ أذكره يردّ على صحفيّ «من الضفّة الأخرى» قائلًا: «يا رجل، أيصحّ أن نقع على أربعين غلطةً في مقال من عشرة سطور؟» كأنّ للاختلاف شروطَ الرفعة أيضًا.

وإذا كانت كتابات سماح خير تعبير عن خيار الثقافة الحقيقيّة والمواجهة ومقارعة الرداءة، فإنّ *آداب* سماح إدريس تعبير جليّ أيضًا عن هذه الخيارات؛ سواء أكان من عناوين الملفّات التي قدّمتها *الآداب*، أم من مواضيع المقالات والنصوص، واستيعاب موجة كتّاب جدد ومخضرمين.

آداب سماح: الملفّات

أنبش صفحات *الآداب* الإلكترونيّة. تأسرني مجدّدًا ملفّاتها، أعيد قراءة الملفّات وأكتشف مجدّدًا مساحةً للانتصار للعقل، من خلال

---

* باحثة وصحافية. معدّة أفلام وثائقيّة لقنوات عالميّة وعربيّة. من مؤسّسي موقع **أوان**. عملت وكتبت في صحف لبنانيّة وعربيّة. حائزة على دكتوراه من جامعة باريس ٨ في الدراسات المسرحيّة وإجازة في الإعلام من الجامعة اللبنانيّة.

(١) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/yksnxcf3

(٢) نفسه.

خطاب متماسك منحاز لإرادة التفكير، مساحة تقترح إجابات مدروسةً في مواجهة الردود المعلّبة الجاهزة، على أسئلة التخلُّف والضعف والفقر والتعصُّب واللا انتماء والهزيمة... وكلّ هموم منطقتنا والعالم.

تتنقّل مواضيع الملفّات في مساحة بحجم العالم؛ من شرايين فنزويلّا المفتوحة (في استعارة لعنوان كتاب إدواردو غليانو **شرايين أميركا اللاتينيّة المفتوحة**)، مرورًا بنوال السعداوي «مناضلة نسويّة شرسة ... لكنّها ليست بلا إشكاليّات،» إلى إعلام ما بعد «الربيع،» و«الحالة الإسلاميّة،» و«الأكراد: التأريخ ورهانات الواقع،» و«الفن التشكيليّ في المغرب،» إلى «الكورونا واقع وتحدّيات،» و«أميركا من الداخل»...

ملفّات *الآداب* مثالٌ على السياسة التحريريّة التي اعتمدها سماح مواضيع ونصوصًا وسجالات، من غير تنظيرات تساير السائد، أي الوسط، في كلّ تلويناته. خذ على سبيل المثال الملفّ المنشور في شهر نيسان\أبريل ٢٠٢١ عن «المعلّم والتعليم في الوطن العربيّ: تحديات مستجدة.»[١] يستعرض الملفّ الحال التعليميّة في تونس ولبنان واليمن، وينظر الى الإشكاليّات الحاليّة التي تواجه قطاع التعليم في عدّة دول عربيّة؛ من الحديث عن رثاثة المناهج، إلى ضعف استخدام وسائل التكنولوجيا، والتعليم عن بعد، وخطر تحوّل قطاعات من تلامذة المدارس في المناطق الفقيرة الى ما يشبه حالة الأمّيّة، مع التشديد على دور المعلّمين إزاء الطلاب في: تدريبِهم على التفكير النقديّ، وتربيتِهم على الاختيار لا الانسياق بالضرورة وراء السائد أو الشائع، وصولًا إلى السؤال الذي يتجنّبه الجميع: «لماذا تبتعد النخب العلميّة عن التعليم؟»

يمكن لهذا الملف، نظرًا إلى حساسيّة موضوعه ومضامين مقالاته أن يُشكّل مرجعيّة علميّة، ولا سيّما أنّ بعض نصوصه تستند إلى دراسات ميدانيّة ونظريّة؛ مثل النصّ المخصّص لواقع التعليم العام في اليمن، حيث يستند كاتبا المقال إلى مؤشّرات دافوس لسنة ٢٠٢٠ التي تُصنّف اليمن بين الدول التي لا تمتلك أدنى مواصفات جودة التعليم. ويشير الكاتبان الى أنّ الحرب الدائرة في اليمن ساهمت في تدمير العمليّة التعليميّة. وهذا الاستنتاج يرتكز إلى أرقام مُفصّلة عن المدارس التي لحقها الدمار، وعن النقص في طباعة الكتب المدرسيّة، أو الخسائر الماديّة للبنى التعليميّة والكادر البشريّ، وغير ذلك من مُقوّمات التعليم.

ونشير هنا إلى أنّ هذا الملفّ سُبق بملفّ آخر، غنيّ، عن «التعليم في زمن الكورونا،»[٢] وما اعتراه من اضطّراب وفقدان للمناعة. أشار سماح بلسان *الآداب* في هذين الملفّين إلى الموقف من أهميّة التعليم، والذي يتقهقر في سلّم أولويّات النظم والمجتمعات العربيّة.

سماح لم يتماشَ مع زمن التفاهة.
والتفاهة في تعريف قواميسنا
«نقص في الأصالة
والإبداع والقيمة.»

ثمّة ملفّان آخران شديدا الأهمّيّة، نظرًا إلى وقائع السجالات العربيّة والعالميّة وبرامج تغذية الانقسامات المذهبيّة، ويمكن وصفهما بأنّهما عنوانان لشجاعة الطرح ونموذجيّته ضدّ آليّات التكفير، وفي مواجهة سياسات التسطيح الثقافيّة والسياسيّة. وقد طرحت *الآداب* سماح إدريس الملفّين تحت عنوان موحّد: «الحالة الإسلاميّة؛» موضوع الأوّل «الشيعة اليوم،» وموضوع الثاني «السنّة اليوم.» يُقدّم الملفّ الأوّل للقُرّاء كُتّابًا جددًا لمقالات متعدّدة تُشكّل رحلة تعريف بعوالم الحالة الشيعيّة، من مثل الشعائر الحسينيّة، واستثمارها في الحزن الجماعيّ، ولكن بأشكال مختلفة، ومن قِبَل بيئات شيعيّة مختلفة.

أمّا الملفّ الثاني المُخصّص للحالة السنيّة، فيتضمّن طروحات جريئة، خصوصًا في مواجهة السرديّات المسيطرة منذ عقود، منها: تطوّر مفهوم الحاكميّة الإلهيّة في القرنين الأخيرين، باعتباره أحد المفاهيم التي حاول الإسلاميّون أن يوائموا فيها بين الوافد من الماضي، والوافد من «الآخَر»؛ ومحاولة لتفسير أسباب شيوع القول المتهافت إنّ جماهيرَ أهل السنّة تشكّل البيئةَ الحاضنة لإرهاب السلفيّة الجهاديّة؛ وتقديم تصوّرٍ بديلٍ لنشوء ظاهرة الإرهاب التكفيريّ، ينطلق من السياق الموضوعيّ، المادّيّ العيانيّ، لمنابع هذه الظاهرة وشروطِ تطوّرها.

تغدق *الآداب* سماح علينا بملفّاتها، تطال الفكر والوعي والإرادة والتغيير... والوجدان، لكنّها لا تتنازل في محاربة الرداءة، وإيقاد الفكر، وصولًا إلى اكتمال الكلم بمعانيه الواسعة.

الآداب سماح: نصوص وكتّاب

أتجوّل بين روابط الملفّات، فتسرقني تلك العناوين المثبّتة في زاوية الصفحة. نصّ عن «السلطة اللاوطنيّة الفتحاويّة واغتيال نزار بنات» بقلم يوسف سعيد، وهو مقال ضمن سياق الاهتمام الجذريّ بقضيّة فلسطين وبمواجهة التطبيع مع «إسرائيل.» على يسار مساحة المقال، في زاوية أخرى للشاشة، روابط القصص التي نشرتها *الآداب* بإشراف سماح. قصصٌ تأخذك إلى عوالم الخيال

(١) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/2v82vt5v

(٢) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/4s2a8awt

المهيب؛ خيال ممزوج بلغة الواقع وإشكاليّاته: حيث ضوء القمر يضيء على حكايات الفتى الحالم بالوصول إليه، وحكايات حارته العشوائيّة الفقيرة، في قصّة أحمد قشقاره «تحت ضوء القمر؛» أو قصّة برج مُهدّد بالقصف، وذكريات إحدى القاطنات فيه مع قصّة سلوى الريّس، والتي تشبه مقاطع منسوخة من حيواتنا، نحن الذين جاورْنا الموت تحت القصف مرارًا، وعشنا الغربة عن البيت الأوّل وعن الوطن.

وفي قصّته «القنصل»، يكتب مهدي زلزلي: «لا أحد يؤْلم الأستاذ أدهم أكثرَ من كاتبٍ يرمي مجتمعَه بكلّ الموبقات كي يَضمن لكُتبِه الرواجَ، ولنفسِه لقبَ الكاتب الجريء، فتنهال عليه الجوائزُ في الخارج.»[1] ثمّة ما يشبه عالم سماح في هذه الجملة بالذات، كأنّ الكاتب يُهدي الناشر مرآةً لبعض أفكاره في مجلّته. *الآداب* سماح إدريس قدّمت للقرّاء أيضًا كتّابًا يانعين؛ منهم المناضل الفلسطيني الشابّ محمد الكُرْد شاعرًا يكتب بالعربيّة في قصيدته «في فم الجرافة»[2] بالعربيّة، بعد أن ذاع صيته مدافعًا عن قضيّته بلغة إنكليزيّة سلسة على الشاشات العالميّة.

هذه الجولة في أوراق *الآداب* وملفّاتها بعد انطلاقتها الجديدة، ليست أكثر من استذكار لبعضٍ من دور سماح إدريس في الحياة الثقافيّة، والإنتاج السياسيّ والفكريّ والأدبيّ العربيّ، باعتباره رئيسًا للتحرير وصانعًا لدور المجلّة ورؤيتها؛ فظلّت المجلّة، مساحةً للجدل والتفكير والنقاش، والبحث بأشكال أعمق من الأطر الدارجة والمستنسخة في الخطابات المهيمنة على الفضاءات العامة.

أغلق صفحات *الآداب* الإلكترونية، فيلحّ عليّ سؤال جديد:

هل تكفي الزيارات المستمرّة لنتاج *الآداب* لاستعادة سماح إدريس؟ الإجابة هي النفي قطعًا. فعالم سماح كان شديد الاتساع، ومُكثّف في انتاجاته ومحاوره، من الكتابة والنشر والترجمة، إلى تشكيل مجموعات لمساندة المقاومة ضدّ الاعتداءات والحروب الإسرائيليّة، إلى تأسيس لجنة مقاطعة التطبيع، وقبلها المساهمة في تأسيس **حركة الشعب**، وتنظيم

تتنقّل مواضيع الملفّات في مساحة بحجم العالم

المظاهرات ضدّ التدخّل الامبرياليّ الأميركيّ متمثّلًا بالحرب على العراق، في متابعة دقيقة منه لكلّ التفاصيل، ولكلّ شاردة، ولكلّ موضوع متعلّق باهتماماته الواسعة المتمحورة حول فكرة بناء وعي عربيّ جديد، وترابط النضال من أجل الهويّة مع النضال لبناء دولة عصريّة وحرّة.

أخيرا، وليس آخرًا

يمكننا أن نقرأ جهد سماح إدريس ككاتب وناشر ومناضل بألف طريقة ونتاج ونشاط له، وأن نتيقّن أنّه لم يكن يستكين إلى التعريفات المقولبة والأطروحات الدارجة والـ «بوليتكل كوركتنس،» لينال المديح أو الهجاء. كان موقفه مبنيًّا على وعيه لدور الأدب، ولدور الناشر، ولدور المناضل، ولانتمائه العروبي ولنشأته في بيت *الآداب*.

من هنا، هذه ليست شهادة، ولا مقالًا يستعيد مسيرة سماح. بل قراءة في جزء من تجربته المولودة في مكاتب دار الآداب، والمولودة أيضًا في صفوف الجبهة الشعبيّة قبيل الاجتياح الإسرائيليّ لبيروت. وهي قراءة في صدقه في عناده للانتماءات الطائفيّة، حيث لم يسمح لسلاطين الطوائف بأن يطرقوا بابه يومًا، ولم يلِن في رفض مشاريعهم وأيديولوجيّاتهم، رفضًا لكلّ نتاجات التفاهة وآلهة الزمن العاديّ.

هذه ليست شهادةً، ولا مقالًا يستعيد سيرة سماح، وهو الفريد في قدرته على التصالح مع أبناء مختلف الطبقات والأعمار: رئيس تحرير *الآداب* وكاتبٌ للأطفال والمراهقين، وحكواتيٌّ يقرأ القصص في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين، وعبر شاشة الكمبيوتر.

هذه ليست شهادةً ولا مقالًا يوجّه إليه التحيّة... إنّها كتابة تحاول أن تبيّن معنى فقدان سماح إدريس، وفداحة خسارتنا.

بيروت

(١) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/2s3bm8tk

(٢) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/4ju9d8xd

صلاح صلاح*

اعتبر فلسطين قضيَّته وقضيّة كلّ عربي

أجرت المقابلة: عُبادة كَسَر

◆ متى التقيتَ بسماح لأوّل مرّة؟

ـ عرفتُ سماح منذ فترة قصيرة، واتّسمت علاقتي به مُنذُ بدايتها، بالودّ والحميميّة. وكان لقاؤنا الأخير في ندوة حواريّة نظَّمتها مجلّة *الآداب* حول الانتخابات الفلسطينيّة الأخيرة. كان سماح المُحاوِر، ومعركةُ الانتخابات حاميةً وتحيطُ بها آراء متباينة كثيرة. من هنا، ركّز هَمّه على أنْ يفتحَ فرصةً أمام الآراء الأكثر صوابًا ومصداقيّةً، لتحديد موقف من هذه الانتخابات.

سمحَتْ لي هذه المعرفة بتكوين صورةً واضحةً عن مدى التزام سماح بالقضيّة الفلسطينيّة، وارتباطه بالشّعب الفلسطينيّ، وهو ما توافق مع ما كنت أسمَعُه من رفاقي في الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين. لم يأتِ هذا الارتباط من موقعٍ ذاتيّ، ولا من موقع القناعة الفكريّة والنّظريّة التي تبحثُ عن دورٍ أو مكانٍ؛ وإنّما من خلال قناعته بالارتباط العضويّ بين القضيّة الوطنيّة الفلسطينيّة وبُعْدها القوميّ. سماح لم ينظر إلى القضيّة الفلسطينيّة بمعزل عن تأثير الوضع العربيّ فيها، والعكس. من هنا أتت قناعتُه بالتزامه بها، وهو ما عبَّر عنه في شعاره الّذي راجَ كثيرًا: «**إذا تخلّينا عن فلسطين تخلّينا عن أنفسنا**،» وفي علاقتَه بالجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين وارتباطَه بالمخيّمات. إنَّ زياراتِه المخيّمات ولقاءاته مع الأطفال بشكل خاصّ، تؤكّد رؤيتَه المستقبليّة لنضالنا الفلسطينيّ ببعده القوميّ: هو ليس نضالًا مؤقّتًا أو مرحليًّا، بل هو نضالٌ طويلٌ تتعاقب عليه الأجيال.

هذا التّرابط بين الأجيال يعيدني بذاكرتي إلى والده الدّكتور سهيل إدريس. جمعتني بإدريس الأب معرفة قديمة، تعود إلى تلك الفترة كانت تربطه علاقة وطيدة بحركة القوميّين العرب. وأذكر أنّها كانت المرّة الأولى في حياتي التي ركبتُ فيها سيّارةً فخمةً، يوم رافقت د. سهيل إلى مخيَّم نهر البارد لإلقاء محاضرة. وكان سهيل من بين المثابرين في الكتابةِ في عددٍ من مجلّات حركة القوميّين العرب وصحفها، وخصوصًا **الهدف** ومُلحق فلسطين في **المحرِّر**، وكان يرأس تحريرهما الشّهيد غسّان كنفاني. من هنا أستطيع القول إنَّ سماح إدريس فرعٌ من شجرة سهيل إدريس؛ ورِثَ عن سهيل فكره، وطبيعته الإنسانيّة كشخصٍ وديع وطيّب ينسج علاقات طيّبةً وحميمةً مع كلّ النّاس.

◆ كُنتَ من الرّفاق المُلازمين للحكيم جورج حبش، وهو كان ينادي سماح بالمحترم. متى كان الحكيم يصف أحدهم بأنّه محترم؟

ـ بمقاييس جورج حبش، فإنّ المعيار الأوّل هو الأخلاق والحفاظ على المبادئ. فالإنسان المحترم عند الحكيم، يعني ذاك الذي يقبل الرّأي والرّأي الآخر، ويقبل النّقاش، ويتحلّى بالأخلاق، ولا يطعن في الظّهر، ولا يكذب ولا ينافق ولا يجامل. كانت لهذه الجوانب المبدئيّة الأخلاقيّة الأولويّة عند حبش. بعد ذاك، يأتي الجانب الآخر وهو السّياسيّ؛ أي الالتزام الأخلاقيّ بقضيّة فلسطين وشعبها، وبالقوميّة العربيّة. لم أسمع الحكيم شخصيًّا يتحدّث عن سماح، لكنّني سمعتُ الكثير من ماهر اليماني الذي جَمَعتهُ بسماح علاقة شخصيّة وحميمة جدًّا، وكان يصف سماح بالوَدود. اهتمّ ماهر كثيرًا بأن يكون سماح قريبًا من الجبهة الشّعبيّة، وكان يؤكّد على حرص سماح على فتحِ أبواب *الآداب* للجبهة كي تعبّر عن مواقفها وعن آرائها. ومن حرص ماهر الشّديد على ذلك، كان يُحضر لي بعض النّسخ من الأعداد أو المقالات.

النّضال الثّقافيّ والمقاطعة

◆ كيف تقيّم مشروع سماح المُتمثّل في *الآداب* والكتابة للأطفال والمقاطعة؟

ـ في بعض الجوانب أسمحُ لنفسي أنْ أقارنَ بين سماح وغسّان كنفاني. كلاهُما مُتعدّد المواهب والاهتمامات. ولهما أدوار في الإعلام والصّحافة والأدب والفكر السّياسيّ، فضلًا عن الرّواية والقِصّة والأطفال أيضًا. هذه الصّفات المشتركة بين كنفاني وإدريس تجعلني أقول إنَّ سماح نموذجٌ لبنانيٌّ فلسطينيٌّ من غسّان، وله ميزات قد لا نجدُها عند كثيرين. وكما نرى غسّان كنفاني حالةً مميّزةً في الوسط الفلسطينيّ، نرى سماح حالةً مميّزةً أيضًا، تمتلكُ

* مناضل فلسطينيّ، من مواليد سنة ١٩٣٦ في قرية غوير أبو شوشة، بالقرب من طبريّا. عاش اللجوء منذ سنة ١٩٤٨. التحق بحركة القوميّين العرب منذ السنوات الأولى، وشارك أحمد اليماني في تأسيس الكشّاف العربيّ الفلسطينيّ منتصفَ الخمسينيّات. شارك في العديد من الدورات العسكريّة في مصر وسوريا، قبل التحاقه بالجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين. كما عمل في جملة مواقع تنظيميّة وتنفيذيّة، وظلّ عضوًا في المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ منذ سنة ١٩٦٩ إلى اليوم.

كلّ هذه المواهب والكفاءات والقدرات المختلفة. وعرفتُ مؤخّرا بأنّه كان يُعدُّ لمعجم عربيّ ـ عربيّ. وهذا مشروع مميّز على صعيد العالم العربيّ.

◆ تأثّر سماح بوديع حدّاد دفع به إلى أن يُطلق شعار مقاطعة داعمي «إسرائيل» في كلّ مكان. ما رأيك في ذلك؟

ـ المقاطعة أحد أهمّ الأسلحة الّتي يجب أنْ نستخدمَها جميعنا في مواجهة العدوّ الإسرائيليّ. ولمّا رفعَ الشّهيد وديع حدّاد شعار «وراء العدوّ في كلّ مكان،» قصدَ فيه العدوّ أينما حلَّ في العالم، وليس فقط داخل حدود فلسطين؛ بما يعني امتداداته على الصّعيد العالميّ، والمتمثّلة بنشاط الحركة الصّهيونيّة الاستعماريّ الّذي يشكّل حاضنةً أساسيةً للكيان الصّهيونيّ، ويعني أيضًا الدّول المتحالفة معه، والأنظمة الرّجعيّة المتواطئة مع النّظام الاستعماريّ. فمواجهة العدو لا تكون داخل فلسطين وحدها، وإنّما في أوروبا وأميركا اللاتينيّة وأفريقيا والدّول العربيّة. يجب أنْ نضربه في الاقتصاد والسّياسة والإعلام... إلخ.

وإذا كان حدّاد يجسّد هذا الموضوع بمفهوم عسكريّ، فإنَّ سماح ورفاقه في حملات المقاطعة الأخرى، يجسّدونه اقتصاديًّا وثقافيًّا. صحيح أنَّ سماح هو صاحب المبادرة الأولى في مشروع المقاطعة [في مرحلة ما بعد أوسلو]، لكنّ الآخرين سرعان ما تلقّفوها وأصبحت تيّارًا عامًا. وبالطّبع هذا يتوافق مع ما سعى إليه سماح بأنْ يتحوّل مشروع المقاطعة إلى نهج عامّ، وله في ذلك ولرفاقه على امتداد العالم كلُّ الاحترام والتّقدير. وقد أثبتت حركة المقاطعة أنّها سلاح فعّال ومؤثّر ضد مصالح العدوّ الإسرائيليّ؛ فحين يعلن نتنياهو عن تخصيص خمسين مليون دولار لمواجهة حملات المقاطعة، يعني ذلك أنّها توجعهم. كما أنّ توجّه بعض الدّول، بضغط من الحركة الصّهيونيّة، لمعاقبة من ينشط في حملات المقاطعة، يعني أنّها تحدث تأثيرًا مباشرًا في العدوّ الإسرائيليّ. بالنّتيجة، عندما يخفُت صوت البندقيّة علينا التوجّه إلى السّلاح الآخر، وهو المقاطعة.

◆ أسَّسَ سماح مع مجموعة صغيرة من رفاقه النّادي العربيّ في جامعة كولومبيا في نيويورك سنة ١٩٨٣، بعد العدوان الإسرائيليّ على لبنان. عَمِل النّادي بالأساس على استنهاض الوعي العالميّ لأهمّيّة الحضارة والثّقافة العربيّتين، والقضايا العربيّة وعلى رأسها القضيّة الفلسطينيّة، وكان شديد الإزعاج للأندية الصهيونيّة والداعمة للكيان. هل من السهل على مثقّف أن يحمل قضايا العالم العربيّ ويناضل من أجلها في كلّ الحقول (تنظيم مظاهرات ووقفات احتجاجيّة وما شاكل)؟

ـ تبرز أهميّة العبء الثّقيل عندما نقارن بين حالتين: الحالة الأولى تتمثّل بتراجع دور الأحزاب والقوى القوميّة العربيّة في فترة

المدّ القوميّ بقيادة الرّئيس جمال عبد النّاصر، بحيث أصبحت الدّول هي الحاضنة لهذا المشروع. وقد طال تراجع دور الأحزاب هذا، حركة القوميّين العرب وحزب البعث؛ أمّا الحالة الثّانية، فتتجلّى في تعاظم قيادة الأنظمة الرّجعيّة، والمعادية لكلّ حالات التّحرُّر والتّقدّم والتّغيير الثوريّ في المنطقة العربيّة كالسّعوديّة والإمارات وقطر وغيرها.

◆ رفع سماح شعار المقاطعة كمقاومة ثقافيّة واقتصاديّة، وفي الوقت نفسه أحيا تراث وديع حدّاد. نشر في مجلة *الآداب* ملفّات عن حدّاد، وكتب وحرّض على العنف الثّوريّ وحمْل السّلاح، في حين أنَّ الإعلام السّائد، وحتّى البديل، لا يتجرّأ على ذكره. برأيك لماذا لم يكتفِ سماح، ومن هم على موقفه، بالمقاطعة والمقاومة الثّقافيّة؟

ـ طبعًا من يقوم بذلك هو شخص جريء وشجاع ووفيّ للنّاس الذين يحمل قضيّتهم، ويحترم دورهم في مقاومة العدوّ الإسرائيليّ. وهذا جزء من التّعبير عن القناعات الخاصّة، فإحياء تراث حدّاد يُعبّر عن قناعة سماح إدريس في ذلك، لذا قام بطرح كلّ سيرته وكلّ ما يمثّل.

◆ ذهب سماح أبعد من الطّرح وحرَّضَ على تبنّي نهج وديع حدّاد وباسل الأعرج وغيرهما، وكان يتساءل في كتاباته: كيف لنا أن نُنتج «غسانة» جددًا؟ وأمثال وديع حدّاد وحبش وباسل الأعرج جددًا؟

ـ عندما يَطرح ذلك فهو يطرحُهُ في سياق رؤية تُعبّر عن خطّ وبرنامج ومهمّات. ولم يكن من المُمكن أن يفتحَ سماح مساحةً لهذا النّهج لو لم يَكنْ مقتنعًا به، فهذا ما يُعبّر عن رؤيتِه وقناعتِه للمواجهة مع العدوّ الإسرائيليّ.

الشّأن الدّاخليّ الفلسطينيّ

◆ هل كان مقبولًا أن يدلي سماح «اللبنانيّ» بدلوه في الانتخابات الفلسطينيّة أو في الشّأن الدّاخليّ الفلسطينيّ؟

ـ لِمَ لا؟ لقد انطلقنا من أنّ سماح إدريس يعتبر قضيّة فلسطين قضيّته وقضيّة كلّ عربيّ. إذًا، من حقّه أن يعطيَ هذا الرّأي، ليس فقط في موضوع الانتخابات بل وفي أيّ شأن فلسطينيّ آخر. نحن بدأنا بخطّ التّراجع عندما قلنا «يا ويلنا نحن وحدنا،» والذي نادى باستقلاليّة القرار الفلسطينيّ، وعندما فصلنا بين القضيّة الفلسطينيّة وبُعدها القوميّ. عندما سمعنا خطابات الرّفاق في الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين في ذكرى الانطلاقة الرّابعة والخمسين، تُعاوِد التّأكيد على تشكيل الجبهة العربيّة التّقدميّة على امتداد الوطن العربيّ، كان واضحًا أنّهم يصرّون على التّشديد على البعد القوميّ للصّراع مع العدوّ. فمن حقّ أيّ إنسان عربيّ أن يعطي رأيه، ويساهم في تشكيل رأي عامّ أيضًا.

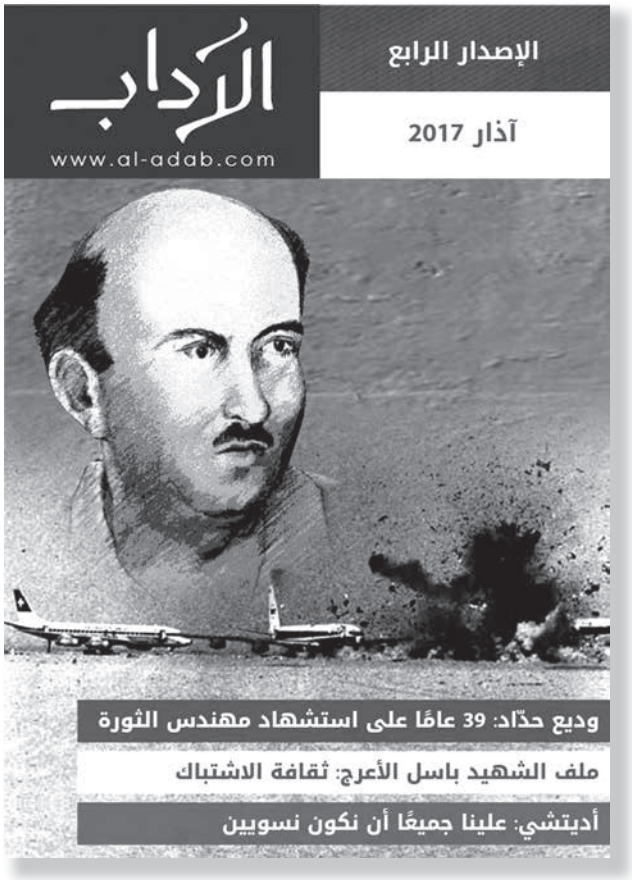

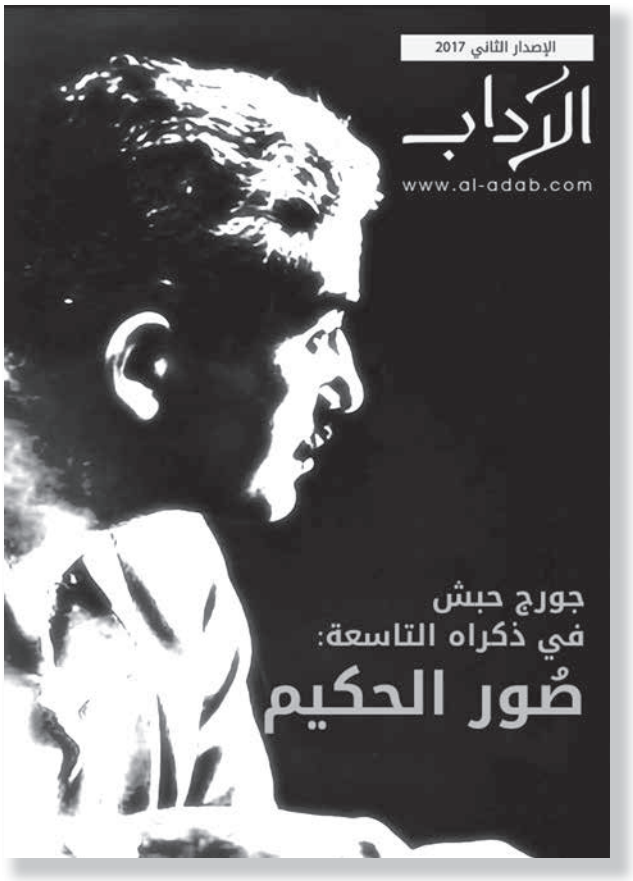

◆ حاورَك سماح خلال ندوة في مجلّة *الآداب* في شأن الانتخابات الفلسطينيّة الأخيرة. هل برز تباين بينكما في الرأي؟

ـ عندما دعاني إلى الحوار كان يعرف رأيي تمامًا بأنّني ضدّ الانتخابات. عبَّرتُ عن ذلك في أكثر من مكان ومن خلال كُتب أرسلتها إلى رفاقي في الجبهة. لكنَّ سماح لم يتوقّع منّي أن أطلب من الرّفاق أن يقاطعوا الانتخابات على الرّغم من أنّني ضدّها؛ فحين تُقرّر الجبهة المشاركة لا أستطيع إلّا أن أنصح بالمشاركة، لأنّ رأيي يمثّلني كشخص، ولا يمثّل رأي الهيئة القياديّة التّنظيميّة، والّتي نستجيب جميعنا لقراراتها. والرّفاق الّذين قرّروا المشاركة يعيشون اليوم ظروفًا صعبةً، كأبناء الضّفّة وغزّة والأسرى والأمين العامّ أحمد سعدات، وأنا ملزَم بتفهّم ظروفهم. من المفروض أن نحترم الهيئة القياديّة وقراراتها، وإلّا سنظلّ نكرّر مسألة الانشقاقات، وهذا ليس في مصلحتنا.

◆ في موضوع المسار الفلسطينيّ الثوريّ البديل، هل تتوافق مع سماح ورفاقه في هذه الرّؤية؟

ـ أعرف أنَّ سماح أيّد هذه الرّؤية. وأنا أيدّتها في البداية، فشجّعتُ مبادرات عديدة شبيهة على السّاحة الفلسطينيّة، لأنّنا نعيش أزمةً في موضوع التّحرير، وفي الانقسام ما بين غزّة والضّفّة، وفي منظّمة التّحرير الفلسطينيّة وفقدان دورها كمرجعيّة للشّعب الفلسطينيّ. إذًا، الأزمة ممتدّة على كلّ الصُّعُد، وذلك يبرّر لكلّ شخص أن يفكّر في كيفيّة الخروج منها، وأن يطرح مشروعًا ووجهة نظر وبدائل. عندما بدأ الحديث عن المسار، شجّعتُ ذلك. لكن عندما تطوّرت الأمور إلى اتّجاهات مناقضة لسياسات الجبهة، وأصبحت صوتًا يقوم بجلدها والتّمرّد عليها، غيّرتُ رأيي.

في ظلّ واقعنا الفلسطينيّ، لا يستطيع أحد أن يعتبر أنَّه يعبّر عن المنطق، لا صلاح صلاح ولا أحمد سعدات ولا خالد بركات ولا سماح إدريس. في هذا الشّأن لا يوجد منطق. المنطق هنا للحوار فقط، وهو المسلك الوحيد إلى نقطة نشعر فيها أنّها ستشكّل مدخلًا للحلّ. وعندما يكون العمل في أوروبا، ليس من مصلحة أحد أن يفتحَ معاركَ في الدّول الأوروبّيّة، وكأنَّه يريد تحرير أوروبا قبل تحرير فلسطين. هذا السيناريو ليس صحيحًا لأنّه يقفل الأبواب على من يقوم بهذا العمل أوّلًا، وعلى غيره ثانيًا. لكلّ هذه الأسباب لم أعد مؤيّدًا ولا داعمًا لمشروع المسار.

◆ سماح هو ابن الجبهة الشّعبيّة من دون أن ينتظم فيها، ابن جورج حبش وغسّان كنفاني ووديع حدّاد. من هو سماح إدريس بالنسبة إلى الجبهة اليوم؟

ـ حدود علاقة الجبهة مع سماح هي الحدود التي يعرفها سماح. هو لم يكن عضوًا فيها، لكنّه التزم بخطّها وكان قريبًا منها. قناعاته بالبعد القوميّ للقضيّة الفلسطينيّة، جعلته يبحث عن التّنظيم الّذي يجده مدخلًا للرّبط بين القضيّة الفلسطينيّة، بالمعنى الوطنيّ، وبعدها القوميّ. تقاطع سماح مع الجبهة فكريًّا وسياسيًّا، وفي النّهج الثوريّ المقاوم. وهو محطّ احترام وتقدير كلّ فرد في الجبهة، والرّسالة التي أرسلها إليه الأمين العام أحمد سعدات من داخل السّجون الإسرائيليّة تضامنًا معه في مرضه، هي من أبرز الأدلّة على ذلك.

الشّأن اللبنانيّ والمخيّمات

◆ تعرّض سماح للنقد لأنّه أعطى الأولويّةً للشّأن الفلسطينيّ على نظيره اللبنانيّ، في حين أنَّ لبنان يعيش أزمةً اقتصاديّةً خانقةً ووضعًا أمنيًّا قلقًا. هل ترى ذلك طبيعيًّا؟

ـ هذا طرح إقليميّ لا ينسجم مع تفكير سماح إدريس، ومن الطّبيعي أن لا يستجيب له في الوقت الّذي نواجه فيه مشاكل على السّاحة الفلسطينيّة. يجب البحث عن الرّابط بين المشكلات الّتي يعيشها الفلسطينيّ والّتي يعيشها اللبنانيّ؛ لأنّنا، ومن ضمن النّظرة القوميّة للأمور، نعرف أنّ هناك ترابطًا بين القضايا القوميّة العربيّة ولا يمكن الفصل بينها. مثلًا، لا يمكن الفصل بين ما يجري في فلسطين وتطبيع العلاقات مع العدوّ في الإمارات والسّعوديّة وبعض دول المغرب العربيّ، والحصار الاقتصاديّ والسّياسيّ على لبنان.

بالطّبع، إنَّ وضع لبنان غاية في الصّعوبة. لكنّ الطّرح لا يكون على أساس أن يهتمّ سماح بلبنان وينسى فلسطين. إنّ ما يجري في لبنان هو جزء من الضّغط على الوضع اللبنانيّ لمزيد من التّضييق والحصار والتجويع بهدف فرض تنازلات عليه، تجعله يسير على خطى ما جرى في الإمارات.

كلّ هذه الضّغوطات مترافقة مع الحديث عن تحميل حزب الله مسؤوليّة الأزمات كلّها، لأنّه يشّكل حالةً مقاومةً ضدّ العدوّ الإسرائيليّ، وهذا بالطّبع مرتبط مباشرةً بالقضيّة الفلسطينيّة. يجب أن تكون المعالجة من خلال الرّؤية الّتي تربط بين الوضع الفلسطينيّ والوضع اللبنانيّ وعلاقة ذلك بالمشروع الصّهيونيّ الّذي يجري تنفيذه في المنطقة العربيّة.

◆ كيف تُقيّم تعاطي سماح مع مخيّمات الشّتات الفلسطينيّ في لبنان؟

ـ تعاطى سماح مع المخيّمات بأكثر من جانب؛ أوّلًا: كان يتصدّى لأيّ مشروع ضدّ المخيمّات. وترجم ذلك بإداناته المتكرّرة للمجازر الّتي كانت تُرتكب فيها. ثانيًا: في موضوع الحقوق المدنيّة والاجتماعيّة للفلسطينيّين وانعكاساتها الكبيرة على حالة الفقر والبؤس، كان سماح داعمًا، وصوتًا للمخيّمات. دافَعَ بقوّة عن ضرورة إعطاء الفلسطينيّين الحقوق المدنيّة والاجتماعيّة، وتمكينهم من العيش بكرامة وعزّة وشرف، ومن مداخيلهم بحيث لا يكونون عبئًا على الدّولة. وطبعًا كان مدافعًا عن حقّ العودة بقوّة. ثالثًا: نسج نوعًا من العلاقات مع القوى الفلسطينيّة والفعاليّات الاجتماعيّة والثّقافيّة، ونظّم حلقات قراءة للأطفال في مخيّم شاتيلا. وبالتّالي إنّ العلاقات التي نسجها سماح مع المخيّمات لها مضمون إنسانيّ ببُعد سياسيّ أشمل.

◆ بدأتَ بالمقارنة بين غسّان كنفاني وسماح إدريس. وكان سماح قد ناقش في ملفّات *الآداب* كيف لنا أن ننتج غساسنة جددًا. برأيك، كيف يمكن أن ننتج سماحات جددًا؟

ـ لا تنشأ هذه الحالات بقرار. لا يستطيع أيّ تنظيم أن يأخذ قرارًا بذلك. هو مشروع قائم على تعزيز الوعي ونشره، والتّثقيف في أوساط الشّباب ووضعهم أمام مسؤوليّاتهم ودورهم. وعمليّة الوعي والتّثقيف الّتي يجب أن تأخذ مداها الواسع من أجل الالتزام بالقضيّة والعمل في سبيلها، هي مسؤوليّة كلّ وسائل الإعلام والمتحدّثين السّياسيّين والفاعلين على وسائل التّواصل الاجتماعيّ، إضافةً إلى استثمار كلّ أدوات صناعة الوعي عند الشّباب. هنا تبرز حالات معيّنة لا أحد يستطيع أن يتنبّأ بها، مثل حالة المثقّف المشتبك الشّهيد باسل الأعرج. كان لباسل أن يشكّل مشروعًا شبيهًا بمشروع سماح، وبمشروع غسّان أيضًا لو لم تتمّ تصفيته مبكّرًا نظرًا لخطورة مشروعه على العدوّ، والأمثلة كثيرة طبعًا. لكنّنا على ثقة بأنّ بروز حالات شبيهةٍ لن يتوقّف، وستمتلك القوّة والعناد والتّحدّي لطرح الموقف والرّأي، مثل جورج حبش وغسّان كنفاني ووديع حدّاد وسماح إدريس.

بيروت

العلوم والآداب

محرِّر اللُّغة وراويها

٥٤ عن أزمة اللُّغة العربيَّة ..... سماح إدريس

٥٨ السياسة في أدب الأطفال والناشئة العرب: عودٌ على بدء ..... سماح إدريس

٦٠ صاحبُ المقام العالي: علّمني كيف أمحو كي أكتب ..... وداد طه

٦١ سماح إدريس كما عرفته ..... فرج الأعور

٦٣ على تواصل ..... يزن الحاج

٦٤ عن سماح وله ..... فاطمة شرف الدين

٦٥ حكايات ولد من بيروت: الخيار اللغويّ الجريء ..... ماتيلد شافر

٦٩ المحرِّر الساحر الذي آمن بالشباب ..... مهدي زلزلي

٧٠ الكاتب كالطِّفل وناشره كأبيه ..... أسامة جلالي

عن «أزمة» اللُّغة العربيَّة[1]

هل اللغة العربيّة في أزمة؟

الأنظمة العربيّة في أزمة. الأحزاب العربيّة في أزمة. التربية العربيّة في أزمة. القراءة العربيّة في أزمة. الشعر العربيّ في أزمة. المسرح العربيّ في أزمة. الكتاب العربيّ في أزمة. القضيّة الفلسطينيّة في أزمة. فلماذا لا تكون اللغةُ العربيّةُ في أزمة؟

أهي جزءٌ متعالٍ عن البشر والمجتمع، فلا تَخضع لعوامل التراجع أو التكلُّس، لمجرّدِ أنّها لغةُ دينٍ مقدّس؟

لكنْ ما الذي نعنيه تمامًا بـ«الأزمة»؟

يخيَّل إلي أنّنا أدمنّا الحديثَ عن «الأزمة» من دون شرح أسبابها ومكوِّناتِها حتى فقدتِ الكلمةُ معناها، وتحوّلتْ إلى مصطلحٍ إضافيّ من مصطلحات جلْد الذات العربيّة، بحيث لم تعد تؤدّي إلّا إلى الإحباط والتطلّعِ بدونيّةٍ وانبهارٍ إلى المستعمِر الأقوى.

إذا كان لي أن ألخّصَ بعضَ أسباب أزمة اللغة العربيّة، فهي في رأيي كالآتي:

أوّلًا، أزمةُ العربيّة جزءٌ من أزمتنا في هذا العالم، الذي نشكّل فيه، نحن العربَ وشعوبَ العالم الثالث، طرفَه الأضعفَ على كلّ الصعد. ولا يغيِّر من هذه الحقيقة أنّ بعضَ دولنا يَحوز أهمَّ ثروات النِفط والغاز في العالم، ولا أنّ تَرساناتِها العسكريّةَ تَختزن آخرَ تِقْنيّات القتل والتدمير، ولا أنّ بعضَ علمائنا ومثقّفينا وأدبائنا يتلقّى أبرزَ الجوائز العالميّة ويتبوّأُ أعلى المناصب الدَولية. في هذا العالم المختلّ لغيرِ صالحنا، سيَصْعب أن تنموَ ثقافتُنا على النحوِ الذي نشتهيه.

فالثقافة، وضمنَها طبعًا اللغةُ والإنتاجُ الأدبيُّ والفلسفيُّ والبحثيُّ والعلميُّ والفنّيّ، تحتاج إلى دعمٍ ورعايةٍ ووسائلِ تدريبٍ وتطويرٍ وورشِ عملٍ ومؤتمراتٍ ومختبرات. وتحتاج إلى أوسع قدْرٍ من الحريّة، بعيدًا من سيف الرقابة والقمعِ والترهيبِ والتهديدِ بلقمة العيش. اللغة، شأنُها في ذلك شأنُ أيِّ كائنٍ أو مؤسّسةٍ أو نبتةٍ، لا يمكن أن تنموَ بالرَغَبات وحدها، ولا بالركونِ إلى ماضٍ مجيد. وواقعُ الأمر، للأسف، أنّ الثقافة في كثيرٍ من أقطارنا لا تحظى إلّا بأضعفِ أشكال الدعمِ الرسميّ؛ فميزانيّةُ وزارة الثقافة في لبنان، مثلًا، وهو الذي يتباهى بأنّه بلدُ الحرف والأبجديّة ودُورِ النشر، أقلُّ من واحدٍ في المئة من ميزانيّة الحكومة. فعَلامَ سيعتمد الكاتبُ الناشئُ أو باحثُ اللغة في لبنان؟ وكيف سيتطوّر الإنتاجُ الثقافيّ، وضمنه اللغةُ كما ذكرنا... علمًا أنّ اهتمامَ القطاع الخاصّ بهذا المجال يتراجع هو الآخر لأسبابٍ كثيرةٍ، أهمُّها أنّه «لم يعد يُطْعم خبزًا»؟

فإذا أضفنا إلى ذلك واقعَ الحروب والحصارات التي ابتُلينا بها، لا عن مصادفةٍ بل عن سابقِ تصوّرٍ وتصميم، فسنجد أنّ ما كان يُعتبر حتى الأمس القريب من الحواضر الأساسيّة للثقافة العربيّة القديمةِ والحديثة قد دُمّر، ونُهبتْ آثارُه، وأُحرقتْ مكتباتُه، وجُوِّع شعبُه، وهُجِّر مواطنوه، على يد المستعمِرين والتكفيريين، خصوصًا في العراق وسوريا؛ وكانت الجزائرُ قد نالت حِصّتَها الرهيبةَ من تدمير الإرهاب التكفيريّ قبل ذلك،

(١) مجلة *الآداب*، ورقة ألقيت في ندوة في معرض الشارقة للكتاب، بتاريخ 7/11/2017. https://tinyurl.com/32c2uckp

أيْ خلال ما يسمى «العَشْرية السوداء.» وما أنسَ لا أنسَ المأساةَ الكبرى التي حلّت بمثقّفي العراق، الذين اضطُرّوا إلى بيع كتبهم كي يُجنّبوا أنفسَهم غائلةَ الجوعِ والفقر.

وعليه، **فإنّنا لا نستطيعُ أن نتحدّث عن «أزمة اللغة العربيّة» في معزِلٍ عن تدمير حواضرِها الأساسيّة بفعل الحروب الخارجيّة والداخليّة**، وما رافق ذلك من تراجع القطاع المدرسيّ (بل خرابِ المدارس نفسها أحيانًا)، ومن توقّفِ معارض الكتب السنويّة، وتقهقرِ سوقِ النشر، وعدمِ انتظامِ عمل المعاهدِ والمجامعِ اللغويّة.

❖ ❖ ❖

ثانيًا، أزمةُ اللغة العربيّة هي من أزمةِ قسمٍ من دارسيها والمهتمّين بها. في عالمِ اللغة، كما في عالم السياسة والاقتصاد، رجعيّون وتقدّميّون، محافِظون ومغامِرون، متقوقعون ومنفتحون، متزمّتون ومصلِحون. وأنا أزعم أنّ لغتَنا تطوّرتْ بشكلٍ كبير، واستطاعت استدخالَ مكوّناتٍ جديدةٍ كثيرةٍ في حقول علوم التكنولوجيا والتواصل والاجتماع والنفس والفلسفة والنقد والفنّ والمسرح، بما يَنقض زعمَ الجُهّال أنّ العربيّة «عاجزةٌ عن مواكبة العصر.» وقد جاء هذا الاستدخالُ عن طريق التعريبِ أو الاستعارةِ المباشرة من لغاتٍ أخرى، وبعَفَويةٍ ورحابةِ صدرٍ أحيانًا.

غير أنّ قسمًا من المهتمّين بلغتنا ما يزال يتعامل مع هذا التطوّر بروحٍ استجنابيّة، فيعتبره «دخيلًا» على لغتنا «الأصيلة،» بما يشْبه تعاملَ العنصريين مع النازحين من بلدٍ مجاورٍ أو بعيد.

هؤلاء يزيدون في تقوقع لغتنا على نفسها، وعزلتِها عن رياح التثاقف. والمفارقة أنّهم يتذرّعون، في مواقفهم هذه، بحرصهم الفائقِ على اللغة، فينطبقُ عليهم المثلُ السائر: «ومن الحبّ ما قتل!» وقد يشعر كثيرون منّا أنّ أجدادَنا اللغويين كانوا أكثرَ تقدّمًا وانفتاحًا من هؤلاء «الحريصين» اليوم، فلم يصابوا ـ مثلَهم ـ بالذعر إذا سمعوا كلمةً من أصلٍ غيرِ عربيّ. بل إنّ مؤلّفَ تاج العروس نفسَه لم يشعرْ بأيّ حرجٍ من إدراج كلمة «باس» في معجمه، وردّها إلى الفارسيّة «بوسيدَنْ.»

إنّ مجرّدَ التعاطي مع تأثير اللغات الأخرى في لغتنا وكأنّه ـ بالضرورةِ ـ «اجتياحٌ» يهدِّدُها ويهدِّدُ ذاتَنا وحضارتَنا وثقافتَنا ودينَنا، بدلًا من أن يكونَ تلاقحًا وتثاقفًا يمكن أن نُفيدَ منهما، إنّما يدلُّ على قلّة ثقةٍ بالنفس أوّلًا، وباللغةِ العربيّة ثانيًا، وهي التي استطاعت الصمودَ قرونًا طويلةً. والحقّ أنّنا قد نتفهّم بعضَ منطلقاتِ ذلك الحرص المتزمّت؛ فنحن أمّةٌ مهزومةٌ، مستهدَفةٌ من عتاة الاستعماريين والصهاينة، وتتعرّضُ لشتّى ضروب الطعن والتجريح على يد بعضِ المستشرقين وطلّابهم؛ ولغتُنا أهمُّ ما نعتزّ به لأسبابٍ كثيرة، منها أنّها اللغةُ التي نزل بها القرآنُ الكريم. **لكنْ، إذا كان القرآنُ مقدّسًا، فذلك لا يعني، كما سبق الذكر، أن نتعاملَ مع العربيّة وكأنّها مقدَّسةٌ هي الأخرى،** ترفض التجديدَ والاستدخالَ بذريعة «النقاء.»

❖ ❖ ❖

ثالثًا، أزمة اللغة العربيّة من أزمة بعضِ المربِّيات والمربّين. وأعني، تحديدًا، أولئك الذين يستعذبون التسلّطَ الأبويّ، في المدارس والثانويات، على أطفالنا وناشئتِنا، فينهَرونهم كلّما ارتكبوا «جريمةَ» التلفّظ بكلمةٍ «غريبة» أو يتوهّمون أنّها عامّيّة.

ولقد سبق أن ذكرتُ، في مقال آخر، أنّ ابنتي سارية، حين كانت طفلةً، طُلب إليها في المدرسة أن تضع كلمةَ «طعام» في جملةٍ مفيدة، فكتبتْ: «حطّ البابا الطعامَ في صحني.» فوضعت المعلّمةُ دائرةً حمراءَ حول كلمة «حطّ» وكتبتْ تحتها: «لا تستعملي العامّيّةَ يا سارية.» حين جاءتني سارية تطلب إليّ أن أوقّعَ على فرضها اليوميّ فوجئتُ بإجابة المعلّمة، فكتبتُ تحتها: «ولكنّ امرأ القيس أنشدَ في معلّقته: «مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معًا كجُلمودِ صخرٍ حطّهُ السيْلُ مِن عَلِ.» المعلّمة لم تجب. بعد أسبوع طلبتْ إلى سارية أن تضعَ كلمة «حجر» في جملةٍ مفيدة، فكتبتْ سارية: «كبَّ البابا الحجرَ في الماء.» فأعادت المعلمةُ «تذكيرَها» بوجوب استخدام «الفصحى» ورسمتْ دائرةً حمراءَ أخرى، هذه المرّة حول كلمة «كبّ.» عادت سارية إليّ من جديد كي أوقّعَ، ومن جديدٍ رفضتُ أن أكون شاهدَ زُورٍ على ما يُرتكب في حقّ لغتِنا من

تزمّت جاهل، فكتبتُ: «جاء في القرآن الكريم: ومَن جاء بالسيّئةِ فكُبّتْ وجوهُهم في النّارِ.» حينها، اتّصلت المعلّمة بي وطلبتْ لقائي وقالت بالحرفِ الواحد: «صرتُ أخاف أن أصحّحَ للأولاد أيَّ شيء.» قلتُ ضاحكًا: «هوذا المطلوب. ليس كلُّ ما نتوهّمُه عامّيًّا هو كذلك. وشعورُ الأطفال الدائم أنّهم يسيرون في حقلٍ من الألغام كلّما كتبوا كلمةً بالعربيّة لن يشجّعَهم على التقرّب إلى هذه اللغة كي لا تنفجرَ في وجوههم!»

والتأنيبُ نفسُه يلقاه، مِن المربّي أو المربّية، المؤلّفُ نفسُه إنِ ارتكبَ «جريمةَ» إدخالِ كلمةٍ أجنبيّةٍ أو عامّيّةٍ في أحد كتبه، ولو في معرِضِ حوارٍ بين شخصيّاتٍ روائيّةٍ أو مسرحيّة. أذْكرُ أيضًا أنّ إحدى المربِّيات اعترضتْ على السماح بكتبي في مكتبةِ مدْرسةٍ لبنانيّةٍ لأنّني استخدمتُ ـ والعياذُ بالله ـ كلمةَ «أوكي» على لسان طفلٍ صغير، وذلك في قصّةٍ لي، هي **قصّةُ الكوسى**، وحثّت المديرةَ على سحب كتبي من مكتبةِ المدرسة. المربّية هنا كانت تمارس دورَ «السلطة اللغويّة» من دون أدنى نقاش، وتحديدًا من دون أن تستمعَ إلى مقولاتٍ فنّيّة أسلوبيّةٍ من قبيل أنّ «الواقعيّة» في الفنّ قد تُلزم الكاتبَ بإدراج بعضِ الكلمات والتعابير من خارج اللغة العربيّة، وخصوصًا في الحوار، من دون أن يتسبّبَ ذلك في تشويه أخلاق أطفالنا أو انهيارِ صرحِ اللغة العربيّة أو الأمّةِ العربيّة!

❖ ❖ ❖

رابعًا، أزمة اللغة العربية يتحمّل المسؤوليّةَ عنها بعضُ الأهل أيضًا. وهنا أخصُّ بالذكر الأهلَ الذين لا يَكُفّون عن تأنيبِ المدارس لتهاونها في شأن العربيّة لصالح اللغات الأخرى. لكنّهم ماذا يفعلون في المقابل؟ يتحدّثون إلى أطفالهم بالإنجليزيّة أو الفرنسيّة، أو بخليطٍ مضطربٍ من اللغات، أو يتركونهم في رعاية عاملاتِ منزلٍ لطيفاتٍ ومتفانياتٍ ـ ولكنّ غالبيّتَهنّ لا يتحدّثن العربيّةَ على الإطلاق.

ولا بدَّ من القول إنّ بعضَ الأهل يستحقّون التأنيبَ من زاويةٍ أخرى، وذلك حين يلومون أولادَهم على قلّة المطالعة من أجل تعزيز مخزونهم اللغويّ العربيّ (وغير العربيّ)، ولكنّهم (أي الأهل) يَصرفون الساعاتِ تلوَ الساعات أمام التلفاز، وقلّما ظهروا أمام أولادهم وهم يطالعون كتابًا أو مجلّةً ثقافيّةً باللغة العربيّة. فإذا كان على هذه الشاكلة مَن يُفترض أن يكونوا مثالًا أعلى لأولادهم، فماذا تتوقّعون من هؤلاء الأولاد؟!

❖ ❖ ❖

خامسًا، أزمةُ العربية من أزمتنا، نحن الكتّاب. نلوم الناسَ على تراجع قراءتهم بالعربيّة، ولكنّ بعضَنا يَبذل قُصارى جُهده في تنفيرِهم منها. ويأتي هذا التنفيرُ على مستويات عدّة:

أ) عند الكتابة للطفل، نبالغ في حرصنا على «تشريبه» العِبَرَ. المشكلة ليست بالضرورة في هذه الأخيرة ـ وقد لا تكون ثمّة كتابةٌ، وخصوصًا حين تُوجَّهُ إلى هذه الفئة العمريّة، من غير عِبرةٍ، ولو ادّعى الكاتبُ خلافَ ذلك. **المشكلة هي في أسلوب الوعظ،** الذي يُشعر الطفلَ وكأنّه خرج من المدرسة ليَدخلَ في مدرسةٍ أخرى. وخطورةُ ذلك أنّ الطفل لن يكتفي بمماهاة الكتبِ العربيّة بالوعظ والتلقينِ المملّيْن، وإنّما سيذهب إلى اعتبار اللغةِ العربيّة **نفسِها** مصدرًا للملل.

ب) عند الكتابة للطفل أيضًا، يبالغ بعضُنا في استخدام الكلمات العويصة، وهذه المرّة من منطلق الحرص على تشريبه مفرداتٍ جديدةً. والنتيجة، طبعًا، هي تنفيرُه من العربيّة مجدّدًا، وربّما من القراءة مطلقًا، أو دفعُه إلى القراءة بلغةٍ أخرى يعرفها. وذلك لا يعود إلى أنّ مضمونَ ما يقرأُه بهذه اللغة الأخرى أقلُّ وعظًا فحسب، وإنّما يعود كذلك إلى أنّ الكاتبَ بها يكون في العادة أقلَّ هجسًا من الكاتب العربيّ بتقوية مخزون الطفل اللغويّ على حساب الإثارة والمتعة والمرح. إنّ استخدام كتّابنا لغةً عويصةً «وصفةٌ» ممتازةٌ لتنفير أطفالنا من العربيّة والعروبة!

ج) فإذا انتقلنا إلى اللغة التي يستخدمها الكتّابُ العربُ في كتاباتهم الموجَّهةِ إلى البالغين من أمثالنا، فلا شكّ في أنّنا سنلاحظ أنّ كثيرين منهم ينفّرون القرّاءَ من العربيّة هم أيضًا، من دون علمٍ أو قصد. تأمّلوا

مثلًا تلك الكتبَ أو المقالاتِ البالغةَ الطول، التي كان يمكن أن تُختزلَ بنسبةٍ قد تتجاوز الثلاثين في المئة من دون أن تَفقدَ شيئًا من قوّتها أو نكهتِها أو هدفيّتِها؛ على العكس، لطالما كان الإيجازُ غيرُ المُخِلّ مبعثَ قوةٍ وإقناعٍ بما يفوق الإطنابَ والحشوَ.

على أنّ هذيْن الأخيريْن، أي الإطنابَ والحشوَ المسيئيْن إلى اللغة، لا يتحمّلُ مسؤوليّتَهما بعضُ الكتّاب وحدهم، بل يشاركهم في تحمّلها الناشرُ ورئيسُ التحرير، اللذان قلّما يتدخّلان في النصِّ المرسَلِ إليهما خشيةَ إغضابِ الكاتب. هنا لا مفرَّ من التنبيه إلى أنّ جميعَ الكتبِ أو المقالاتِ الصادرةِ عن كُبريات دُور النشر والدوريّاتِ العالميّة تَخضع لعمليّةِ تحرير، قد تكون جذريّةً أحيانًا، تتضمّن الاختزالَ ونقلَ مقاطعَ بأكملها إلى حيّز الهامش، وربّما شطبَ فصولٍ كاملةٍ مكرّرة، إلى جانب التصحيح أو التدقيق اللغويّ طبعًا.

وفي هذا الصدد أذكر أنني كنتُ في مكتب الراحل الكبير إدوارد سعيد في جامعة كولومبيا في نيويورك، سنة ١٩٨٩ أو ١٩٩٠. فأراني مخطوطةَ أحدِ كتبِه، بعد أن أرجعها إليه ناشرُه («فيرسو» إنْ لم تخنّي الذاكرة)، وكانت مليئةً بالتشطيب والخطوطِ الصفر والحمر. ثم صاح: «شوف، يا سماح، شو عملوا فيني، أنا إدوارد سعيد!» قبل أن يضيف: «إيه، بس هلق صار كتابْ حقيقي!»

إنّ تطوير اللغة يكون بتطوير تقنيّات التحرير. وأزعمُ أنّ أبرزَ النقائص التي تعانيها المادّةُ العربيّةُ المنشورة هي نقصُ المحرِّرين ـ ولا أقصد المدقِّقين اللغويّين بالطبع. والتحرير، كما لا يَخفى عليكم، مهنةٌ في ذاتها في الغرب، تحتاج إلى علمٍ ومراسٍ وذوقٍ وثقافةٍ ولغة.

❖ ❖ ❖

ها قد حدّدنا بعضَ المسؤوليّات وبعضَ المسؤولين عن «أزمة» لغتنا اليوم، من حيث ضعفُ التداول والانتشار. وأرغبُ، ختامًا، في أن أتحدّثَ عن تجربتي الشخصيّة المتواضعة في مجال التعامل مع اللغة العربيّة بحكم وظائفي المختلفة. فأنا ناشرٌ، ورئيسُ تحرير مجلّة، وأعكفُ منذ عقود على إعداد معجم مطوَّلٍ للغة العربيّة (بدأه المرحوم أبي د. سهيل وشاركه في البداية الشهيد د. صبحي الصالح)، وكاتبٌ للأطفال والناشئة، وناشطٌ في مجال مقاطعة الكيان الصهيونيّ ومناهضةِ التطبيع معه.

اللغة العربيّة، في هذه المجالات جميعِها، هي وسيلتي للتعبير والإيصال والترويج والتثوير، ولكنّني ـ بحكم اختلاف فئات الناس الذين أخاطبُهم ـ أمارسُ «عربيّاتٍ» عدّةً إذا جاز التعبير. فاستخدامي اللّغةَ ينبغي أن يتماشى مع هذه الفئات المختلفة، انطلاقًا من مبدإ «مراعاة مقتضى الحال،» أو تحقيقًا لمقولة «لكلّ مقامٍ مَقال.»

ـ فحين أكتبُ إلى الطفل أراعي أن تأتيَ اللغةُ في أبسطِ أشكالها، وأشدِّها سلاسةً. وإنْ كان لديّ خِيارٌ بين كلمتيْن أو ثلاث، فإنّني دومًا أستخدمُ الكلمةَ الأسهلَ والأقربَ إلى مَدارك الطفل. ذلك لأنّ هدفي ليس «التفاصحَ» أمامه، ولا تقديمَ «أوراق اعتماد» لدى المدرِّسة أو المدرِّس، وإنّما تحبيبه إلى اللغة العربيّة التي يتراجع رصيدُها في بلدي مع ارتفاع رصيد الفرنسيّة والإنجليزيّة. ثمّ إنني كثيرًا ما ألجأ إلى أسماءِ علمٍ ممنوعةٍ من الصرف كي أتفادى تنوينَها؛ فقولنا «ضربتُ أسامة» أسهلُ على أذنِ الطفل من «ضربتُ وليدًا.» وحين أكتبُ إلى الطفل أيضًا، لا تتملّكني عقدةُ استخدام مفردةٍ أو أكثر بالعامّيّة أو «العامّيّة المفصَّحة،» أو باللغة الأجنبيّة، خصوصًا في الحوار.

ـ وأمّا حين أخطب في الشارع، أو في ندوة حول مناهضة التطبيع مع العدوّ الإسرائيليّ ومقاطعتِه، فإنّني أستخدم لغةً تَجمع بين البلاغة والبساطة، لأنّ جمهوري هنا خليطٌ من المثقّفين و«العامّة.» لذا استخدم لغةً **مُجسَّرة**، أيْ فصحى مبسّطةً. **المهمّ ألّا أتجاوزَ قواعدَ اللغة.**

ـ وأمّا حين أكتب في مجلة *الآداب*، فأحرصُ على استخدام لغةٍ أنيقةٍ رشيقةٍ لأنّ جمهورَ *الآداب* الأكبر هو من المثقفين والجامعيين. في النهاية أقول إنّ لغتنا تحتاج إلى مناضلين، شأن أيّ قضيةٍ مهمّةٍ ومصيرية؛ مناضلين يحملون همَّ تطويرها ونشرِها ومدِّها بعناصر الحياة.

الشارقة

السياسة في أدب الأطفال والناشئة العرب: عودٌ على بدء

قبل أربعة أعوام قدّمتُ مداخلةً في بيروت عن السياسة في أدب الأطفال والناشئة العرب[1]. اليوم، وأنا على أبوابِ إصدارِ قصّةٍ جديدةٍ للأطفال بعنوان الشُّبّاك، أشعرُ بميْلٍ شديدٍ إلى العودة إلى هذا الموضوع الذي قلّما شغل العاملين في مجال هذا الأدب.

في مداخلتي السابقة ركّزتُ على محوريْن هما: اللغة، وتزييفُ الواقع أو الهروبُ منه. واليوم، أرغب في أن أطوّر هذين المحوريْن وأضيفَ إليهما أبعادًا ومحاورَ أخرى.

كنتُ قد عبّرتُ عن فكرةٍ مفادُها أنّ قرارَ كتابتي للأطفال والناشئة باللغة الفصحى المبسَّطة، والمنفتحةِ على الأمثال الشعبيّة والكلماتِ المعرَّبة والأجنبيّةِ والعامّيّةِ والمفضَّحة، قرارٌ سياسيٌّ بامتياز. واليوم، مع استشراء أخطار الأصوليّة والسلفيّة والداعشيّة، أضيف أنّ هذه النزعات، بالمعنى العميق للكلمة، لا تقتصر على الموقفِ من الدين ومظاهرِ الحياةِ الاجتماعيّة (من لباسٍ وطقوسٍ وطعامٍ وشراب...)، بل تمتدّ إلى اللغة وأساليبِ التخاطب. وقد لا أغالي في القول إنّ **كيفيّةَ استخدامِ اللغة هي محكٌّ فعليٌّ لمعرفة سياسة الكاتب الحقيقيّة من كلّ همٍّ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ مطروقٍ في كلّ زمن**. وأزيد تحديدًا: لا يمكن أن تكونَ تقدّميًّا (بالمعنى العميق والواسع للكلمة) وأنت تشمئزُّ من كلّ عاميّةٍ وكأنّها وباءٌ أو شرٌّ مستطير، أو ترفضُ «التجسيرَ» بينها وبين الفصحى، أو تتعاملُ بـ«استجنابيّة» (نزعة كرْه الأجانب) مع كلّ لفظٍ «دخيلٍ» على العربيّة «المقدَّسة.» فالحال أنّ حرصَنا الحقيقيَّ على الفصحى ينبغي أن يترافقَ مع حرصنا الفعليّ على تجديد دورتِها الدمويّة، وإشراعِ نوافذِها أمام الحياة اليوميّة والتفاعلِ مع العالم من حولنا.

وفي إطارٍ مشابه، ينبغي التشديدُ على **أنّ الهروبَ من موضوعات الحاضر المَعيش باتجاه «الاقتباس» عن الآداب الأجنبيّة، أو عن التراثِ العربيّ ـ الإسلاميّ، تعبيرٌ آخرُ عن أصوليّةٍ فكريّة**. نعم، هناك مبالغةٌ في استكانةِ بعضِ كتّابنا العرب إلى ما سبق أن كُتِبَ هنا أو هناك. وهذا، عدا عن كونه انعكاسًا لكسلهم أو تكاسلهم، يزيدُ من تعميق مشاعر اغترابِ أطفالِنا عن محيطِهم المباشر، ويزيِّنُ لهم الانشدادَ إلى الخارج ـ أكان «غربَ الأنوار الساحرةِ» أو «شرقَ السلَفِ الصالحِ.»

ليس الانعتاقُ من محدِّدات اللغة والموضوع بالأمر السهل. ففي مواجهةِ كلِّ مسعًى تحرّريّ منشود، ثمّة مَن يقف محذِّرًا، ومنبِّهًا، ومهدِّدًا. وتُوازي التحذيرَ والتنبيهَ والتهديدَ خطورةً محاولاتُ الترغيبِ المتزايدةُ، التي تحثّ على الحفاظ على الالتزامات التقليديّة في مجالات الحياة والفكر. ذلك **أنّ المدرسة والأهلَ والرقاباتِ العربيّة لا تحبِّذ المغامرةَ إلّا إذا كانت «محسوبةً» بدقّة، أيْ بما يعزِّز تجديدَ النظام التقليديّ**

(١) مجلة *الآداب*، ربيع 2012، ص 1، 125 ـ 128.

لنفسه. وموضوعاتٌ مثلُ الطائفيّة والمذهبيّة والجنس والمِثْليّة والخيانةِ الزوجيّة (وإنْ تلميحًا) تكاد تكون ملغاةً تمامًا في مكتبةِ الأطفال واليافعين العرب.

الأسوأ أنّه تمّ، قبل أعوام، استحداثُ جوائزَ عربيّةٍ ضخمةٍ لأدبِ الأطفال والناشئة العرب، وصار كثيرٌ من الكتّاب والناشرين والرسّامين والمصمِّمين العرب يتسابقون على نيْلها، محاذرين أن يُثيروا «حفيظةَ» أيٍّ كان من السلطات الضاغطة، دينيّةً أو اجتماعيّةً أو سياسيّةً بشكلٍ خاصّ. **وهكذا تحوّلت «الستّ حفيظة،» بجوائزها التي يسيل لها اللعابُ، إلى كابحٍ إضافيّ من كوابح التجديد** في أدب الأطفال واليافعين العرب، بدلًا من أن تكون حافزًا على التجديد الحقيقيّ والجذريّ فيه.

هناك مَن سيقفزُ الآن ليقول إنّ السوقَ العربيّة قد شهدتِ انفجارًا جديدًا في أدب الأطفال والناشئة العرب في العقد الأخير. لستُ من أنصار هذا القول إلّا في ما يخصُّ مجالَ الرسوم والطباعة والتصميم بشكلٍ رئيس. فمن حيث المضامينُ والأساليبُ، ما زال هذا الأدبُ، بشكلٍ عامّ، أسيرَ التقليدِ والاقتباس؛ فضلًا عن أنّه لم يتخلَّ ـ في جزءٍ كبيرٍ منه ـ عن منزلقات الوعظِ الأبويّة، وعن إقحام العِبَرِ إقحامًا وكأنّها ملاعقُ من الطعام يودّ الكتّابُ «دحشَها» في أفواه الأطفال الهُزالى! **إنّنا، والحالُ هذه، أقربُ إلى أن نكونَ اليومَ في قلب مرحلةٍ «نيوتقليديّة» أو «نيوكلاسيكيّة» أو «نصف تجديديّة» في مجال هذا الأدب:** نلغو بالتجديد أكثرَ ممّا نمارسُه؛ ونحاصرُه أو نحصرُه حين نباشرُ كتابتَه أو نشرَه فعليًّا.

المفارقة اللافتة هنا أنّ مدارسَنا، «حارسةَ الأخلاقِ القويمة،» لا تمانعُ أحيانًا كثيرةً في أن يَقرأ أولادُنا ما يتخطّى هذه المحدِّدات إذا كان باللغات الأجنبيّة، لكنها ترفضُه وتحاربُه بشدّةٍ إذا كُتب بقلمٍ عربيّ! فلماذا «التسامحُ» مع الكتّاب الآخرين، والتشدّدُ مع الكتّابِ العرب؟ أيكون ذلك لأنّ مجتمع الآخرين أقلُّ «أخلاقًا» من مجتمعـ«ـنا» مثلًا؟ وإذا كان الأمرُ كذلك، فلماذا التهافتُ على ترجمة أدبهم، والاستشهادُ به طولًا وعرضًا؟

طبعًا المجدِّدون الحقيقيّون في أدب الأطفال والناشئة العرب لن ينتصروا بقوّتهم الذاتيّة وحدها، **وقد يكون عليهم ـ شأنَ الناشطين السياسيّين المخلصين ـ أن يَحشدوا «حلفاءَهم» الظرفيّين والإستراتيجيّين؛** ومن هؤلاء: بعضُ الأساتذة والمدراء المنفتحين، وبعضُ الناشرين الذين لا يَهجسون بالربحِ المادّيِّ وحده (رغم تقلّص أسواق النشر العربيّة منذ أعوام). وقد يكون عليهم أيضًا أن يمارسوا الدهاءَ السياسيَّ والتكتيكَ السياسيّ لكي يُمرّروا، ولو على جرعاتٍ، شيئًا من مشروعهم التجديديّ؛ فهم، في حقيقة الأمر، جزءٌ لا يتجزّأ من ورشة التحرير السياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة العربيّة الكبرى.

بيروت

علّمني كيف أمحو كي أكتب

وداد طه*

لم أكنْ أتوقّع أنْ أكتبَ شهادةً في سماح إدريس. ولست موقِنة إنْ كنتُ سأفلح. ربّما وأنا أكتبُ هذه السّطور أشعر أنّي بحاجة إليه كي يمحوها كلّها. كانَ يضع فوق ما يراه فائضًا خطًّا أسودَ، وكنت سأمحو هذه الأسطر كلّها من دون أن أفكّر. هذا ما فعله سماح بنا، عوّدَنا الدّقة، فمن سيقف لي على كلّ كلمة بعد اليوم؟

بدأت علاقتي بالغالي سماح مع أوّل قِصّة أرسلتها إلى مجلّة *الآداب*. «جبر،» هي من باكورة قِصصي في المجلّة. أذكر أنّني أرسلتها بعد أن غيّرت اسم البطل في مطلعها، وسهوتُ عن تصحيحه في كلّ المواضع التي ذُكر فيها لاحقًا. بالطبع، لم تشفعْ لي اللغة السليمة من ملاحظاته. في التصحيح والتحرير، لم يكن سماح متهاونًا، بل بدا متشدّدًا لمن لا يعرف حُبّه للغة العربيّة، وحرصه على *الآداب* ومستواها الذي ضبط أسلوبه في التدقيق ومراجعة المحتوى.

على أحد مواقع التواصل، وفي معرض تقديمه قصّةً جديدةً لي، كتب: «وداد من الكتّاب الذين أناقشهم كثيرًا.» تبدو هذه تلك العبارة «بهدلة،» لكنّها تعكس كم كان سماح يعطي من وقته وطاقته لتطوير مهارات الكتّاب، وللحفاظ على مستوى المضمون في *الآداب*؛ كان يتوقّف عند كلّ جملة، يسأل عنها، ويربطها بمجمل النصّ حتّى يتكشّف كلّ غامض. فإمّا أنْ يرضى ويقتنع، وساعتئذ أشعر بفخر تلميذة أمام معلّمها، وإمّا أن يتركها احترامًا لإرادة الكاتب. وهذا ممّا يُحسب له، فهو لم يكن خشبيّ اللغة كما يحلو للبعض وصفه. هل كان سماح حادّ الأسلوب؟ أعتقد أنّه تصرّف كمحرّر بحريّة من يعرف ويلمّ بتفاصيل ما يدلي به. ومن جهتي، حذفتُ أكثر من مرّة، بعض الجمل التي شطبها بالأسود، كونها برأيه فائضة ولا تخدم النصّ. وحين أعدتُ قراءة الفقر بعد التعديل، وجدتها حسنة السبك وموجزة، وقد جعلها المحو أقوى تأثيرًا.

علّمني سماح إدريس تقنية المحو كفنٍّ من فنون الكتابة. رحت أمحو ما أعتقد أنّ سماح سيمحوه إن وجده في القَصص. وفعلًا راحت الخطوط السّوداء تقلّ مع كلّ قصّة... **لقد علّمني سماح كيف أمحو كي أكتب**.

عندما وقّعَ لي عدد *الآداب* في معرض الكتاب ـ بيروت ٢٠١٨، بعبارة «وأنا معك على طول الخطّ...» لم يكُنْ يعلم أنّه مَن وضعني على الخطّ. شجّعني، وأعطاني استحقاق الكاتب. كنتُ من قرّاء *الآداب*، ثمّ قدّمني على أنّي أحد كتّابها يوم نلتُ الدكتوراه. وحين كنت أشاكسه وأطلب منه أن ينشر قصّة لي كما هي، يأتيني ردّه سريعًا «*الآداب* ليست صندوق بريد!»

وخارج موضوع النشر في المجلّة، كان سماح مرجعي ومرجع الكثيرين في قضايا اللغة؛ فعندما أحتاج إلى معرفة اشتقاق، أو تشكيل بعض صيغ الأفعال، أسارع إليه. كان المرجع الأصدق بالرغم من كثرة القواميس الإلكترونيّة، ومن اقتنائي معاجمَ عديدة. لم يخذلني سماح يومًا، بل واصل إبهاري بعلم غزيرٍ وعطاء لا محدود، كبحر.

أخذ سماح على عاتقه تعليم جيل جديد من الكُتّاب، وقدّمهم إلى الجمهور عبر *الآداب*. وحين كنت أناقشه في تصنيف نّصوص قرأتها لكتّاب مبتدئين في المجلّة، يجيب: «هل سأناقش كاتبًا في إجناسيّة نصّ أرسله؟ الكاتب وحده من يرى النصّ قصّة أو شعرًا أو غير ذلك.»

كان معلّمي في دروس كثيرة: أوّلها الاحترام العميق لما يُقدّم كونه تجربةً خاصّة. وثانيها، احترام المحاولة. وثالثها الحريّة، بما فيها حريّة النقد والتفكير. أمّا الصّبر، فهو الدّرس الأعظم من تجربتي مع سماح، ومَن عمل في التدقيّق اللغويّ يعي معنى الصّبر هنا. لكنّني أعني صبرًا مضافًا؛ فاهتمامات سماح لم تكن لغويّة أو شكليّة مع التنقيط وعلامات الوَقف وحسب، بل كانت في تعامله مع النصوص برؤيويّة نابعة من علاقة روحيّة؛ فلم يكن تحريره نصوص *الآداب* إلّا جزءًا من علاقة وجوديّة مستديمة ويوميّة مع روحه: روح باحثة عن الحقّ والخير والجمال في كلّ تفصيل، نزقة إلى درجة تكاد تكون مرفوضة لمن اعتاد العشوائيّة. روح كان من الصّعب إرضاؤها بالقليل، لأنّها كانت كثيرًا من كلّ شيء.

صيدا

* روائيّة فلسطينيّة. تعمل في حقل الترجمة. حائزة دكتوراه في الأدب العربيّ. لها ثلاثُ روايات منشورة: **ليمونة آن، أخون نفسي، حرير مريم**. ولها عدّة مقالات ومراجعات نقديّة في الرواية، ومجموعة قصصية بعنوان: **قمر ليل طويل**، بالإضافة إلى عدد من القصص القصيرة المنشورة في صحف ومجلات عربيّة.

سماح إدريس كما عرفته

فرج الأعور*

تعرّفت إلى سماح إدريس عبر الكتابة. فقد تزامن نشر مقالات لنا في جريدة **الأخبار** اللبنانيّة، ولاحظنا معًا وجود الكثير من المشتركات، ليس لجهة القضايا التي تناولتها مقالاتنا فحسب، بل لجهة المواقف من تلك القضايا أيضًا. كان ذلك قبل سنة ٢٠١٥ أو ٢٠١٦ على ما أذكر، وكنت مقيمًا حينذاك في مدينة برشلونة، حيث مقرّ عملي لدى وكالة الأمم المتّحدة للمناطق الحضريّة. حدث لقاؤنا إثر نشرنا مقالين متزامنين تقريبًا، حول ضرورة التفريق بين سلاح المقاومة والسلاح «الشوارعيّ» المتفلّت لدى معظم القوى الطائفيّة، الحليفة منها والمعادية لحزب الله. فضلًا عن مسؤوليّة الأخير في إبراز هذه الفوارق أمام الرأي العام اللبنانيّ. نُشر هذان المقالان قبل فترة وجيزة من إقامة معرض الكتاب العربيّ في بيروت. ولدى زيارتي المعرض خلال قضائي فترة الأعياد في لبنان، توجّهت إلى جناح دار الآداب قاصدًا التعرّف إلى سماح، وهناك تحادثنا وتمازحنا حول توارد بعض الأفكار في المقالين المذكورين، وكانت تلك بداية صداقة جميلة بيننا، استمرّت حتّى وفاته المفجعة.

منذ ذلك الحين، أصبح الاتّصال بسماح وزيارته في مكتبه بدار الآداب، طقسًا ثابتًا من طقوس إجازاتي في بيروت؛ حيث يدور النقاش حول كتابات وإصدارات سابقة، ومواقف «طازجة» لمثقّفين وشخصيّات عاملة في الشأن العام، تستدعي الاستهجان وخيبة الأمل، أو تستوجب التأييد والاحترام. والحقّ أنّ ما جعل من هذه الزيارات والجلسات طقسًا متكرّرًا، هو ثراء النقاش مع سماح وانفتاحه على الاحتمالات كافّة. فثبات موقف سماح لجهة الانتماء إلى مشروع قوميّ عربيّ تقدّميّ، لم يحُل دون استعداده لمناقشة الرأي المقابل، والتعاطي مع هذا الرأي بمعزل عن أيّ موقف مُسبَق.

على هذا النحو، كنّا نتّفق مثلًا على الحاجة إلى إعادة تقييم تجارب التحرّر الوطني المعاصرة في وطننا العربيّ، كالتجربة

* كاتب مستقل من لبنان، ينشر في جريدة **الأخبار** اللبنانيّة.

الناصريّة وتجربة المقاومة الفلسطينية بمختلف فصائلها؛ من دون الانزلاق إلى اعتماد لهجة تمجيديّة في سياق إعادة التقييم، ولا ركوب موجة ذمّ هذه التجارب، على اعتبار أن التعلّم منها والبناء عليها هو الهدف الأسمى بطبيعة الحال. وعلى النحو نفسه، اتفقنا مرّات واختلفنا مرّات أخرى، حول مواقف تخصّ شخصيّات عامّة، برغم اتّفاقنا على الموقف العام بضرورة الدفاع عن المنطقة بوجه الاستعمار العائد إليها، ودعم المقاومة العسكريّة ضدّ «إسرائيل،» ممثّلة بالمدرسة القتاليّة الجديدة لقوىً أثبتت فعّاليّتها ومصداقيّتها في الميدان.

وإلى جانب سماح إدريس المثقّف، تعرّفت عبر الكتابة أيضًا إلى سماح «المحرّر،» بعد أن نشرتُ عددًا من المقالات في مجلّة *الآداب*. وكان دورُ سماح يبدأ من التشجيع على الكتابة ولفت النظر إلى مواضيع وقضايا تستدعي الاهتمام، مرورًا بالتصحيح اللغويّ، وفتح حوار ثنائيّ مع الكاتب حول صياغات المقال واتّجاهاته، والمراجع التي من شأنها أن تُغنيَ المادّة، وصولًا إلى القيام بالأبحاث المطلوبة للتأكّد من دقّة الأحداث والتواريخ الواردة. بهذا المعنى، كان سماح يساهم بشغف في عمليّة بناء المقال، ولا يكتفي بـ«تحريره» فحسب. بل إنّ دوره لم يكُن ينتهي مع نشر المادّة في *الآداب*، فكان يعمل بعد النشر على تحفيز النقاش حول ما ورد في المقال. وقد وصلني غيرَ مرّة بمَن أوردوا تعليقات على ما كتبتُ، وسهّل حصول نقاشاتٍ مثمرة بيني وبينهم. وفي حين كان سماح يحاول الموازنة بين دواعي اللغة والصياغة من جهة، والحاجة إلى الإبقاء على التمايز بين المقالات من حيث الأسلوب، من جهة أخرى؛ إلّا أنّه كان حاسمًا، لا يترك هامشًا من التمايز والالتباس لدى كلّ إشارة إلى «إسرائيل.» إذ كان وضع الكلمة بين مزدوجين من الثوابت التي لا تنازل عنها في سياق النصوص المنشورة في *الآداب*.

عندما عدت إلى بيروت بشكلٍ نهائيّ في منتصف سنة ٢٠١٩، اتّصلت بسماح كالعادة، وتواعدنا على لقاءٍ لم يحصل أبدًا؛ فقد انهمكتُ حينذاك بمتطلبات تدبير عمل استشاريّ جديد، ومن ثمّ شغلني اشتداد مرض والدتي ووفاتها في حزيران ٢٠٢٠. ثمّ أطبقت جائحة كورونا علينا، وعلى حياتنا الاجتماعيّة، فلم تترك لنا مجالًا للّقاء...

ويوم علمت بمرض سماح، سيطر عليّ خليطٌ من مشاعر الإنكار والفجيعة الداهمة، والخوف من الفقدان. ووقعتُ في حيرة من أمري لجهة القدرة على زيارته في المستشفى، إذ علمتُ أنّه في العناية الفائقة. وفي حين لم أكن أعرف أيًّا من أفراد عائلته، لجأت إلى الاتّصال بعُبادة، رفيقة سماح الوفيّة، عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ. وتمكّنت بواسطتها من الاطّلاع على تطوّرات وضعه الصحّيّ.

بعد وقوع الوفاة الفجيعة، كُتب الكثير عن سماح، ممّا يستحقّه ويليق به. لكنّ مصير مجلّة *الآداب* لم يحظَ بما يكفي من النقاش. فإذا كانت الحياة قد خصّت سماح بالانتماء إلى عائلةٍ مثقّفة، حاملة للهمّ القوميّ العربيّ، وبانية لمجمّع ثقافيّ سطع نوره من محيط الوطن العربيّ إلى خليجه، فإنّ سماح قد أوصل *الآداب* إلى مَدَيات لم تصل إليها من قبل؛ فإلى جانب مشاركته في بناء موادها المنشورة لبنةً لبنة، نجح سماح بإلغاء الفصل المصطنع بين «الثقافيّ» و«الوطنيّ» أو «القوميّ.» وعمل منذ أن ترأّس تحرير المجلّة، على نشر عشرات الملفّات حول الكثير من قضايانا المصيريّة. ونجح في استقطاب أكثر الأقلام العربيّة احترامًا واستكتابها، من خلال علاقاته الممتدّة على طول المنطقة العربيّة وعرضها.

لقد كان سماح مصدر الطاقة الذي أبقى *الآداب*، كمطبوعةٍ مستقلّةٍ، على قيد الحياة، على مدى أكثر من عقدين من الزمن. وخلال الاحتفال التأبينيّ الذي أقيم له في بيروت، كانت تعهّدات شقيقته وابنته بالاستمرار في إصدار *الآداب*، والعمل على استكمال المشاريع التي كان يعمل عليها، مدعاةً للارتياح. لكن من نافل القول، إنّ مهمّة كهذه ستكون بالغة الصعوبة على «ورثة» سماح في مشاريعه الثقافيّة والنضاليّة الكثيرة، سواء كانوا من العائلة أم من خارجها.

من هنا، أجد من الضرورة إطلاق دعوة عامّة عبر هذا المقال، لكلّ من اهتمّ بمشاريع سماح، وآمن بالمشروع القوميّ العربي الذي انتمى إليه، إلى المساهمة في تأمين استمراريّة *الآداب* كمجلّة، بل كمنارة عربيّة مستقلّة، على النحو الذي وصلت إليه مع رئيس تحريرها الراحل. سواء عبر الكتابة للمجلّة، أو بأيّ طريقة أخرى تفيد في دعم استقلاليّتها وانتشارها بين قرّاء العربيّة.

لعلّ هذا أكثر ما يردّ الجميل لسماح ويعبّر عن مكانته بيننا، بل عن تموضعنا وإيّاه في المكان نفسه، قبل رحيله عنّا وبعده.

بيروت

على تواصل

يزن الحاج*

الكتابة فعلٌ منفرد، أو هذا ما يُفترَض بها أن تكونه، أو ما ينبغي لها أن تكونه، فهي تفكير، أو إعادة تفكير، أو ربّما تقويضٌ للتّفكير الذي يُلقَّن لنا وعلينا منذ ولادتنا إلى أن تدركنا تلك اللحظة التي ينبغي لنا فيها أن نرفض، أن نُفكِّك، أن نُركِّب، أن نصوغ، أن نُعيد صياغة كلَّ ما مضى، ويمضي، وسيمضي من حياتنا، فعلُ تمرُّدٍ إذن، أو فعلُ خلقٍ، فنحن أبناء الله في نهاية المطاف، خُلِقنا على صورته كي نكونه، كي نتماهى معه، ونتشرّبه، ثمّ نلفظه، كما فعل ابنُه الأحبّ، فعلُ خلقٍ لتفكيك خلقه القديم، في متاهةٍ فرويديّة لا تنتهي، أبناءٌ لأبٍ يجب أن يُقتَل بعد أن يُستنفَد، بعد أن نتخلّى عن إشرافه، تعديلاته، ملاحظاته، تحفّظاته، تنقيحاته لما خَلَقْنا، أو لعلّ هذا ما أراه ولا يُلزِمُ الكتابة، ولا يُلزِم غيري، ولا يُلزِم آبائي الكثيرين الذين تلقَّنْتُ منهم الكتابة بالقراءة ثمّ لفظتُهم بعد أن استنفدتُهم، ما عداه، إذ لم يكن أبًا تمامًا، ولا خالقًا تمامًا، ولا مُعلّمًا تمامًا، بل مُنقِّحًا، يشطب ويعدّل ويحذف ويضيف من دون أن يضع اسمه، بل بصمة رتوشه المتقَنة الحاذقة، ويترك خلقنا لنا مع أنّ هذا الخَلْقَ ما عاد كما كان، تغيَّر تغيُّرًا جذريًا، وإنْ بقي الجوهر، لأنّ ذلك المُنقِّح كان صائن هذا الجوهر، هذا التمرُّد، هذا الخلق، كيلا يحطّم ما دأبْنا على مراكمته طوال سنوات من الشّطب والحرق والحذف والإضافة والتّشييد؛ نكتب ونترجم فيومئ موافقًا أو معترضًا، ثم يدعنا نعيد تركيب ملاحظاته وتحفّظاته ورتوشه كما نشاء، مُبقيًا إيانا على تواصلٍ دائم، معه، ومع الكتابة، ومع التّرجمة، ومع التّحرير، ومع التّنقيح، بخيطٍ ليس له أن ينقطع لأنّه ماهي خلقه بخلقنا، رتوشه برتوشنا، إيماءاته بإيماءتنا، حروفه بحروفنا، ليُمسي ما نكتبه ونترجمه بعده له ولنا في مزيجٍ رهيفٍ مثل صفاء ليلةٍ لا سحاب فيها، فالسَّحاب ـ على جماله ـ سيكسر صفاء خلقنا، كي نواصل حيواتنا حتّى بعدما رحل، لأنّه ترك ذاته فينا كلّما كتبنا، كلّما ترجمنا، بل حتّى كلّما تحامقنا ودخلنا لعبته لنصبح مثله، لنصبح نقيضه، لنصبح سماحًا آخر يبعثر الأحرف، ويعيد تركيبها، لتبقى لنا ثمّ تصبح لغيرنا من دون أن نفقد بصمتنا، أو ـ مرةً أخرى ـ لعلّ هذا ما أفعله الآن وحدي، إذ تحامقْتُ وبِتُّ

تصوير بلال جاويش

مُحرِّرًا أنا الآخر، أشطب وأهدم، أضيف وأشيِّد، نصوصًا ليست لي بقدر ما هي لي؛ أُحرِّر كي أتماهى معه، وكي أناكفه، حين أناكف ذلك التّواصل البعيد القريب الذي ما انقطع، لا ينقطع، لن ينقطع، مثل رسالة واتساب أخيرة ترك فيها بصمته حتّى بعدما رحل، ولكن بالأزرق ـ كي يناكفني ـ لا بأصفره المعتاد، ولذا أناكفه أنا أيضًا الآن لأكتب عنه مقالةً بجملة واحدة، لا كما يُفترَض بالمقالة أن تكون، أحطِّم فيها ما تعلّمته منه لأصون ما تعلّمته: تواصلًا لا ينتهي، مثل قوسٍ مفتوحٍ على المطلق، أو جملةٍ مبتورةٍ لا نقطة تُنهيها.

دمشق

* كاتب ومترجم سوريّ.

فاطمة
شرف الدين*

عن الراوي سماح وله

كانت البداية سنة ٢٠١٤، خلال إقامتي في بلجيكا، حين قرأتُ مقالةً في جريدة السّفير عن كاتبٍ للأطفال لم أكن أعرفه من قبل، اسمه سماح إدريس. كانت المقالة عن كُتبه الأولى للأطفال، وأذكر أنّها ركّزت على تجديده في اللغة التي يتوجّه بها إلى الصغار في كتبه، وعن بساطتِها وقربها من الأطفال. فهمتُ من المقالة ـ خطأً ـ أنَّ سماح استخدم عباراتٍ عاميّةً في نصوصه. وكان أوّل ما خطر في بالي، هو أنّ أحدَهم قد سبقني إلى الكتابة للأطفال بلغةٍ تشبه لغة الصغار بما تحتويه من العاميّة. قرّرت أن أتعرّف إليه شخصيًّا حين أزور بيروت.

في لقائنا الأوّل في مكتبه، وبعد أن حدّثته عن إعجابي بكتبه، وبالأخصّ استخدامه للعاميّة، غُشيَ عليه من الضحك. فسّر لي مبتسمًا أنّه لم يكتب كلمةً واحدةً بالعاميّة: «عودي إلى القصص واقرئيها من جديد.» في ذلك اليوم، تناقشنا مطوّلًا عن اللغة التي علينا الكتابة بها للأطفال؛ وبينما كان رأيي أنْ نُخاطبَ الأطفال دون سنّ السادسة بالعاميّة لأنّها لغتهم الأمّ، كان رأي سماح أنّه من المُمكن أنْ نقتربَ إلى لغة الطفل إلى أقصى حدّ، من غير أنْ نستخدم أيّ كلمة عاميّة. أقنعني كلامُه، واليوم أشكره على ذلك؛ فمسيرتي ككاتبة أطفال، ما كانت لتستمرّ لو بدأتها بالكتابة باللهجة المحكيّة.

كان هذا اللقاء بدايةَ صداقة نمّتها لقاءاتنا المتكرّرة في معارض الكتب، في بيروت على الأغلب. الثقة المتبادلة بيننا عمّقت هذه الصداقة، ومنها لجوئي إليه طلبًا للنصح في ما يخصّ إلى كتاباتي الجديدة، وكرمه في إسداء النصيحة لي كلّما واجهت صعوبة في ما يخصّ عالم الكتابة للأطفال، والتعامل مع الناشرين. حين تتعرّف سماحًا أكثر، تكتشف أوجهه العديدة؛ فبعد وقتٍ قصيرٍ تعرّفت إلى سماح المُناضل والثائر والمدافع عن كلمة الحقّ والحرّيّة، عبر مقالاته التي كان يرسلها إليّ، وحديثه عن حملة المقاطعة، وإجاباته عن أسئلتي بصبر ورحابة. ويوم اعترفت له بأنّني أغيّر أحيانًا تركيبة جملة معقّدة، لأنّني لا أعرف إن كانت صحيحةً لغويًّا، عاتبني وأصرّ عليّ أن أعود إليه بأسئلتي اللغوية في أيّ وقت. وهكذا، صار سماح مرجعي الأوّل عند أيّ تردّد لغوي. كان كريمًا بمشاركة أيّ معلومة تحتاج إليها منه، ومفعمًا بطاقة كبيرة على المحبّة، لا تراها إلّا إنْ تقرّبت منه، وبادلته الثقة بالثقة.

اكتشفت سريعًا أنّه مشاكسٌ في قصصه المصوّرة، كما في رواياته للناشئة، من حيث الأسلوب والمضمون؛ هو يتحدّى المعترف به والمحظور، فينكش مفرداته من خبايا اللغة، ويستخدم الكلمة الأفضل في السياق، منطلقًا من قناعته بأنَّ العربيّة لغة حيّة طيّعة، وعلينا أنْ نستغلّ معرفتنا بها كي نجعلها تواكب العصر. ومثلما يتعامل مع اللغة، تعامل مع محتوى قصصه، فجعل شخصيّاته تتمرّدُ على ما تعتبره ظلمًا، وتتجرّأ على مواجهة سلطة الأهل ونقد التقاليد السائدة بشكل عامّ، وتعبّر عن مشاعرها من غير روادع.

أما تعلُّق سماح بمدينة بيروت، فقد انعكس بشكل تلقائيّ على محتوى كلّ ما كتبه للصغار والناشئة. في سلسلة **أسامة** التي تروي حكايات ولد من بيروت، يُدخلنا سماح إلى البيت البيروتيّ، فنتعرّف إلى العوائل والأثاث، وحتّى الكُتب والصور الموجودة. في هذه البيوت. يذكر سماح للقارئ الصغير، في سياق قصصه، معالم بيروتيّة؛ كصخرة الروشة، والمنارة، ومدينة الملاهي، والبحر، ويذكر أسماء الشوارع مع حركة الشخصيّات. أمّا كتبه لليافعين، فكلّ أحداثها تعتمد على مكان واحد؛ **مدينة بيروت**. نشعر بتجذّر سماح في مدينته وحبّه لها من خلال صياغته للأحداث، حيث ينقّلنا في **الملجأ** و**النصّاب** و**فلافل النازحين** بين أحياء بيروت، فنرى شارع الحمراء والجامعة الأميركيّة، ومسبح السبورتينغ، ومنطقة الكولا، والجامعة العربيّة، وحديقة الصنائع... إلخ.

آخر لقاء لي بسماح كان في المستشفى. كان متعبًا، ووضعه الصحّيّ لا يسمح له بالأكل أو الشرب. اقتربت منه وأمسكت بيده. غدرتني دموعي فاستغرب: «ليش عم تبكي؟ ما بدنا نبكي.» انتقيت أقرب كرسيّ من سريره وجلست أتمعّن في صديقي. شعرت أنّه اللقاء الأخير. حدّثني بأمور كثيرة. واهتمّ بالسؤال عن أفراد أسرتي، فردًا فردًا، وبالأسماء. ثمّ أخبرني عن مشاريعه العديدة المستقبليّة، ومنها رواية جديدة للناشئة لم ينهها بالكامل بعد. طلبت منه أنْ يرسلها إليّ كي أطّلع عليها، فرفض. قال: «انطري عليّ شي شهر بعد وببعتلك اياها كاملة.» نالت منه المنيّة قبل أن تمضي أيّام قليلة على هذا اللقاء، ولم يرسلها. ولن. كيف يخطف الموت أفضل الناس؟ سماح! إنّ فكرة رحيلك غريبة، لا يستوعبها العقل بسهولة؛ فوجودك كان صاخبًا دومًا، وآراؤك محقّة وحججك قويّة. ستبقى حيًّا في قلوب كلّ من أحبّوك، وهم كثر!

بيروت

* كاتبة ومترجمة ومحرّرة متخصّصة في أدب الأطفال والنواشئ، تعمل مع دور نشر عدّة في لبنان والإمارات ومصر وبلجيكا. نُشر لها أكثر من ١٤٠ كتابًا، تُرجم عدد كبير منها إلى ١٧ لغة أوروبية وآسيوية. حائزة على جوائز ولوائح الشرف العربيّة والعالميّة. تقدّم ورش عمل في الكتابة الإبداعيّة في لبنان وبعض المدن العربيّة، وتساعد الكتّاب المبتدئين في تحرير نصوصهم ونشرها، كما تشارك في عدد من معارض الكتب والمؤتمرات الدوليّة.

حكايات ولد من بيروت: الخيار اللغويّ الجريء**

ماتيلد شافر*

ترجمة رلى ذبيان

السفرة الأولى من بيروت.

أذكُرُ أنَّهم حذَّروني، قبل أن ألتقي به. قالوا لي: «احرصي على استعمال اللّغة العربيَّة، وعلى مستوى لغتك. ولا تتبنِّي موقف المرأة الغربيَّة التي أتت لتفسير الأمور لنا، بل اطرحي الأسئلة، واستمعي إلى الأجوبة. عكس ذلك، لن تدوم مقابلتك معه طويلًا.» قلقتُ ليلة ما قبل المقابلة. راجعت في ذهني المصطلحات الخاصة بالنشر، وواجهتُ صعوبة في ترجمة تلك العبارة الشيطانيّة «Ligne Editoriale» والتي تشمل مفهومًا واسعًا ومحدَّدًا في آن، والتي لم أستطع حصرها في عبارة واحدة في العربيَّة.

سنة ٢٠٠٦، استقبلني سماح إدريس في مكتب واسع ومضيء، في اليوم الذي تلا اغتيال نائب حزب الكتائب اللبنانيّة بيار الجميل. ما زلتُ أذكرُ ذلك المُحيّا أو المظهر الصافي والشعور المريح.

* مترجمة وكاتبة ورسامة كتب أطفال، صاحبة دار الميناء الأصفر الفرنسية لأدب الأطفال. سلّطت الضوء على الإبداع العربي في مجال أدب الاطفال.

** مقتطف من كتاب **عن أحوال كتب الأطفال**، منشورات صنوبر ـ بيروت سنة ٢٠٢١.

وأذكرُ أنَّ المقابلة هذه استمرَّت ساعات، تناقشنا فيها بأمور الأدب وكتب الأطفال واللُّغة العربيَّة والتربية ونظرتنا للعالم. سألته في نهايتها بالفرنسيَّة: «كيف نترجم عبارة «Ligne Editoriale» إلى العربيَّة؟» فتناولنا الاحتمالات جميعها لحصر الفكرة، ووصلنا إلى ترجمة أقنعت كلانا: السياسة النشريّة. وكانت فائدة هذه الترجمة كبيرة، إذ استعنتُ بها كثيرًا لاحقًا في إطار تحضير رسالة الدكتوراه الخاصّة بي.

في الأسابيع التي تلت تلك المقابلة، اخترتُ أن أكرِّس بحثي لأطروحة ماجستير حول كتاب سماح الأوّل للأطفال: **قصّة الكوسى**، كونه كنزًا أدبيًّا حقيقيًّا، من الناحية الإنسانيَّة والسرديَّة والاجتماعيَّة واللّغويَّة والتصويريَّة.

شكَّلت لي أعمال سماح إدريس للأطفال، في وقت لاحق، مصدر إلهام دائم في بحثي لرسالة الدكتوراه: الظلم الاجتماعيّ والعنصريَّة وعلاقة الأبناء بأهلهم، وتحرُّر البنات، وتأكيد الهويّة الطفوليَّة...

الفائدة السرديَّة ومستوى اللغة العالي وشعريَّة الواقع وضرورة إيصال رؤية للعالم والالتزام السياسيّ المبطّن؛ كلّ هذه الثيمات قال سماح عنها إنَّها نابعة من قصص كان يحكيها لابنتيه لتحفيزهما على تناول الطعام: مقابل كلّ لقمةٍ كِسرةٌ من القصّة. يؤكِّد سماح أنّه بدأ بكتابة القصص لأنَّ ساريَّة وناي لم تكونا تحبّان الأكل والقراءة باللّغة العربيَّة.

من هنا، نبدأ فطورنا بصحبة «قصة الكوسى،» الكتاب الأوّل لسماح من سلسلة أسامة، التي تروي حكايات ولد من بيروت.

قصّة الكوسى: تحفة من السّرد النصّي والتصويريّ (رسوم ياسمين طعّان):

القصّة بسيطة: تريد أمّ أسامة أن يأكل ابنها أسامة طبق الكوسى باللّبن، وهو واحد من الأطباق المرغوبة جدًّا لدى اللبنانيّين، وأسامة لا يحبّ الكوسى. فتحتال عليه الأمّ، وتكمن الحيلة في الظهور العجائبيّ مرارًا وتكرارًا لحبّات الكوسى تلك، والتي لأسامة اقتناع راسخ بأنَّه ابتلعها قبل الذهاب إلى الردّ على ذلك الهاتف الذي لا يتوقّف عن الرّنين. وعندما يكتشف أسامة حيلة أمّه التي تضيف كلّ مرّة قطعة كوسى جديدة، يلجأ هو نفسه إلى مزحة يدّعي من خلالها أنَّه لا يريد المثلّجات.

«قصّة الكوسى» قصّةُ تواطؤ بين الأهل والأولاد، وجميعهم يفتقر إلى المثاليّة. كثيرة هي كتب الأطفال التي تظهر أخطاء الطفل، لكنَّها نادرة جدًّا تلك التي تطرح السؤال الخطر: هل الأهل دائمًا على حقّ؟

عالم سماح إدريس يهوى البحث بعمق في صدوع هذه المسألة؛ من الضروريّ لفت النظر إلى أنَّ منشورات **دار الآداب** للصغار وعالم سماح، يكادان يكونان الحيّز الوحيد في العالم العربيّ حتّى

اليوم، حيث يستطيع الوالدان استقاء صورة من الواقع توفّر عليهما السَّعي إلى أن يكونا مخلوقات مثاليَّة.

فأمّ أسامة ليست أيقونة يقتصر دورها على حماية ابنها والسّهر على سعادته، بل هي تستهزئ بغضبه وتتلاعب به بين الحين والآخر، وتدفع به بعيدًا للبحث عن **أمّ جديدة**، أمّ أفضل منها: هي أمّ تدفع إلى الاحتكاك بالعالم والخروج من أمان المنزل والداخل. وهي أمّ تتحايل على أسامة وتلعب عليه ومعه. بل إنَّ سماح يتعمَّق في مسألة معصوميَّة الأهل من الخطأ، غير موفِّر الآباء؛ فالوالد في **حين قرَّر أبي** يتَّخذ قرارًا حازمًا وجذريًّا، مقسَّمًا بطريقة لا نقاش فيها، أمام زوجته وولديْه، ومع ذلك لا يفي بوعده، ويعود إلى التدخين. وأمام محكمة استقصاء زوجته وولديْه، يصير الأطفال أوصياء على أبيهم، فيعترف الأب: لقد عدتُ إلى التدخين. هكذا تشكِّل العائلة عند سماح جسمًا متحرِّكًا مؤلَّفًا من أفراد يتداورون على الاحتكاك بمواطن الضعف، ويخرجون من تجاربهم هذه أكثر إنسانيَّة ومِراسًا، فيما تعزّز الأواصر العائلة لتبقى متينة منيعة.

إلَّا أنَّ جرأة سماح تتخطَّى الثيمات لتصل إلى تأمُّلاته حول اللُّغة العربيَّة المستعملة في كتب الأطفال والناشئة، حتّى أنَّه استخدم هذا الموضوع في كتابه الثوريّ **قصّتي**، ليتطرَّق إلى مسألة حبّ القراءة، وعلاقة الطفل العربيّ بلغته الفصحى المكتوبة.

«أين كتبكِ العربيَّة؟ من الآن لا كومبيوتر ولا أفلام إن لم تطالعي بالعربيَّة.»

بهذه الكلمات تُستهلّ **قصّتي**، وهي بمثابة مانيفستو معاصر يطالب بكتاب مختلف للأطفال العرب. يعود سماح، المزوّد بقلم لاذع ومتبصِّر، إلى تفحّص الإشكاليّات الكبرى التي يطرحها كتابٌ الناشئة المصوّر: ما السبب وراء عدم إقبال الأطفال على القراءة وكراهتهم للقراءة بالعربيّة؟ لماذا تتسلّط الأفكار المسبقة على الراشدين في شأن كتب الأطفال؟ لماذا تصبح اللغة العربيّة منغلقة وباطنيّة ما إن تُكتب؟ ويتساءل سماح أخيرًا عن إمكانية اللقاء بين الكتاب والطفل العربي.

«طيّب، طيّب، فهمتُ، سأقرأُها. ولكن اتركيني الآن لأقتل الديناصور!» سيما، وهي إحدى بطلتَي القصة، ستقرأ. حتى ولو كانت الكتب العربية تُضجِرها بإسهابها في سرد قصص الحيوانات الفاضلة أو الماكرة، التي تحمل العِبر الأخلاقيّة للبشر. وهي ستقرأ، حتّى ولو عفا الزمن على الكتب العربية، ومهما صعبت لغتها، ولو كانت بمضمونها مبتورة عن واقع الطفل. ستقرأ مكرهة لا مقتنعة... ولكن بعد أن تنجح في قهر ديناصور لعبتها الإلكترونيّة.

بالنسبة إلى طفل عربيّ، القراءة ليست نشاطًا مسلّيًا، بل هي عبء. يفنِّد كتاب **قصتي** الأسباب في هذا الواقع، تمامًا كما يفعل بيان يدعو إلى التجديد في الكتابة والقراءة، يصرخ به الصغار في وجه الكبار. بحسب سيما، فإنّ الكتاب العربيّ مشروعٌ مرصود إلى حمْلها على اليأس من القراءة. فالحكايات مكرّرة وعتيقة الطراز، بل قل كاذبة إن هي قُرئت على ضوء حياتها اليوميّة. إذًا، لمَ بذْلُ هذا الكَمّ من الجهد في مثل هذه السخافات؟! القراءة صعبة، وعلاوة على ذلك، الكتاب مقدّس. تشكو سيما جمود اللغة وخشبيّتها، وانحصار الأقلام المحرِّرة للكتب بـ«أعلام الأدب» الذين يستأثرون بها، وينتجون كتابة يشعر معها القارئ الناشئ بالارتباك والحيرة، إن لم تتركه مُعْدَمًا تمامًا. تحذِّر ديمة، أختُها الصغرى، مشهرةً كتابًا «ضخمًا:»

انتظري ثلاث سنوات لتطالعي القصّة التي أعطتنا إيّاها المعلمة. ستنفلقين بالتعليم والمعلومات.

ولا يلبث الأب أن يدخل في الحكاية، ثائر الحفيظة ومدافعًا عن الكاتب لأنّه «لبناني معروف منذ أيّام أجداد أجدادي!»

تعترض حينها ديمة قائلة:

هنا المشكلة تمامًا [...] انظر يا بابا إلى هذه الكلمات! لمن يكتب هذا الكاتب المعروف منذ أيّام أجداد أجدادك؟

فالكتاب، قلبًا وقالبًا، مقدّس. أحاطت ديمة، في الكتاب الذي تعتمده مدرِّسة الصفّ، بالخطّ الأحمر الكلماتِ التي لم تفهمها: تسعة ألفاظ مبهمة في صفحة مزدوجة واحدة، أتبعتها بعلامات استفهام واقتراحات لاستبدالها بكلمات شبيهة مألوفة أكثر، وباقتحامات بالإنكليزيّة مثل «Look up word» (ابحثي عن الكلمة في القاموس)، و«What does this mean?» (ماذا يعني ذلك؟). لتنتهي بملاحظة فكاهيَّة: «I come in peace» (آتية بسلام)، خَطّتها بجانب رسمة مخلوق مرّيخي، لشعورها العارم بأنّها لا تعيش والكاتب على كوكبٍ واحد... غير أنّ ردّ فعل الوالد أمام الكتاب المشطّب، يفيدنا عن علاقته بالكتاب، إذ ينتزعه من يدَي ديمة قائلًا لها بتعجّب:

أفّ، ماذا فعلت بهذا الكتاب المسكين؟ يا حرام!

يُصدم الأب لعدد الكلمات المظلّلة بملاحظاتٍ والمسطَّر تحتها بالأحمر، ليس لأنّها تكشِف عن المرارة التي تكابدها الفتاة أثناء القراءة بالعربيّة، بل لأنّها تفسِد حال الكتاب. يخطر في بال سيما فكرة عندئذ، وأمام هذا الكَمّ من الصعوبات، وهي أن تؤلِّف كتابها الخاصّ، باللغة العربيّة التي تفهمها وتعرفها، أي بلغةٍ تتكلّم بها كلّ يوم. لقد اختار سماح مخرَجًا فصيحًا لتحرير بطلته؛ فهو يُرجّع صدى نهجه الخاص كمؤلِّف، وإرادته الشخصيّة في ابتكار كتب قادرة لغويًّا على إشعار القارئ الصغير بمتعة القراءة.

وقد اقترح سماح على الرّاشدين استخدام اللغة المحكيّة لوضع القصّة في متناول الأطفال، وهذا اقتراح يدمجه سماح إدريس في كتابته عينها، وبخاصة في سلسلة **حكايات ولد من بيروت**.

هذه السلسلة تروي حكايات ولد من بيروت، بلغة تحاول أن تقترب من حديثنا اليوميّ، مبتعدةً عن «الوعظ» الذي بات سمة كثير من كتب الأطفال. كما أنّ السلسلة تحاول التخفيف من الاغتراب الذي يشعر به الأطفال وبعض الأهل حيال العربيّة.

بدأتُ مغامرتي هذه بعد اثني عشر عامًا من ترؤّس سماح تحرير مجلة *الآداب*، وبعد عشرين عامًا من الإسهام في تأليف أضخم معجم عربيّ ـ عربيّ حديث. خلال هذه الفترة، تكشّفت لي طواعية العربيّة، بقدر ما تجلّى أمامي تزمّت بعض اللغويين الذين تعاملوا معها بوصفها كائنًا محنّطًا معزولًا عن الحياة اليوميّة والتأثيرات الخارجيّة... ذلك خلافًا لواقع التراث الأدبيّ العربيّ القديم نفسه.

هذه الخطبة المسهبة والإرادويّة مكتوبة طوعًا بلغة عربيّة فصيحة، كما لو أنّ صاحبها أراد أن يحدّد ضمنيًّا أنّ خيار لغةٍ قريبة من الدارجة ليس عيبًا من عيوب الثقافة اللغويّة والأدبيّة. يطيب لسماح التذكير بأنّه عمِل لسنوات طوال مع والده على وضع معجم عربيّ ضخم، وبأنّه قد عقد العزم على الفراغ منه ونشره على الرغم من وفاة أبيه. ويشرح كذلك أنّ للكاتب المثقّف، عندما يتعامل مع الألفاظ، الخيار بين المرادفات المختلفة التي تزخر بها اللغة العربيّة الأدبيّة، وأنّ له المقدرة بالتالي على أن يختار الكلمة الأسهل على فهم القارئ الناشئ في بلاده. لكنّ هذا النهج يقتضي في بعض الأحيان، شيئًا من البحث المعجميّ، أو شيئًا من الجسارة. يقول عن **قصّة الكوسى**: «كان بمتناولي عددٌ من التعابير الأدبيّة جدًّا، أجعل بها أسامة يقول لأمّه حين يكتشف حيلتها،

يبدو سماح إدريس سبّاقًا في هذا الالتزام الواعي والمدعّم بحيثيّات تبيّن ضرورة الكتابة للأطفال بأسلوبٍ يأخذ متعة القراءة بعين الاعتبار

أنّه رآها وعرف ما فعلت. ولكنّني فضّلت أن أجعله يقول 'كَمَشْتُكِ.' ففعل 'كمش' فصيح، كما أنّنا في بيروت نستخدم هذه الكلمة تلقائيًّا. والطفل اللبنانيّ يفهم بوضوح صيحة أسامة مع التحريكات التي أضفناها.» يبدو سماح إدريس سبّاقًا في هذا الالتزام الواعي والمدعّم بحيثيّات تبيّن ضرورة الكتابة للأطفال بأسلوبٍ يأخذ متعة القراءة بعين الاعتبار. ذلك أنّ مستوى اللغة، بالنسبة إلى مدير دار الآداب للصغار، ليس هو المشكلة؛ إذ ما إن يجد المرء متعة في القراءة، حتّى يصبح قادرًا على قراءة كلّ شيء، واكتشاف كلّ ما ينطوي عليه التراث الأدبيّ العربيّ. من ناحية أخرى، يقلب سماح إدريس الأفكار السائدة رأسًا على عقب في مجال الوحدة العربيّة والمسألة الهويّتيّة، ويقترح المشاركة في تشكيل هويّة عربيّة واعية وغنيّة بتنوعها: «عادلَتُ القوميّة العربيّة في السبعينيّات، المطالبة بتوحيد البلاد العربيّة. ومنذ ذلك الوقت، تتطوّر فكرة أنّ لبلداننا لغاتٍ وتقاليدَ متنوّعة، لا تشكّل إعاقة أمام توحيد العالم العربيّ. على العكس، يساهم تعريف الآخرين بهذه الخاصّيّات في الحركة التوحيديّة. إنّ الخيار اللغويّ الذي اتّخذتُه في كتبي يشكّل إعاقةً تجاريّة في الوقت الحالي، ولكنّه خيار إنسان آمَن بالوحدة العربيّة، لا بالقوميّة اللبنانيّة!»

باريس

المحرِّر الساحر الذي آمن بالشباب

مهدي زلزلي*

رحيل سماح إدريس المبكّر مجموعةٌ من الخسارات؛ فحضوره وتعدّد مهامه وساحات نضاله، جعلت منه عدّة رجالٍ في جسدٍ واحد، استطاع إنجاز الكثير في عمر قصير. كان سماح الإنسانَ، والمناضل في مواجهة التطبيع الثقافي، والكاتب، والناقد، والناشر، والمترجم، والمثقّف المشتبك. لم يهمل قضيّة حقّ بحجّة الانشغال بغيرها. كلّ صفة من صفاته قرَّبته أكثر إلى قلبي، وكلّ نضالاته لأجلنا أشعرتني بالأمان. ولكنني خبرتُ سماح عن قُرب كمحرّر، بحكم نشر قصصي في *الآداب*. حتّى صرتُ، إن تحدَّثت عنه بهذه الصفة وذكرت بعض مآثره، لا أخشى اتّهامًا بالشطط أو المبالغة، وغير ذلك مما يحضر أحيانًا في مقام الرثاء.

متعة التحرير مع سماح

سألني صديق ذات مرّة، عن الغاية من نشر عدد لا بأس به من قصصي في *الآداب* قبل صدورها في كتاب، مذكّرًا إياي بمدى إضرار الأمر بالقدرة على تسويق الكتاب عند صدوره. فأجبته بأنَّ الأمر مرتبط أوّلًا بإيماني بـ *الآداب* ومشروعها، وثانيا بقدْر من «المصلحيَّة.» فأنا لن أحظى بلمسةٍ تحريريَّة لقصصي كتلك التي يضعها سماح، المحرّر الوحيد الذي يدفعك إلى الإعجاب بنصّك أكثر بعد أن يخرج من تحت يده. وأعترف أنَّني أحببت كثيرًا نصوصي بعد تحرير سماح لها، وكنت أعيد قراءتها باستمتاع، لا فرق في هذا بين قصَّة قصيرة وبين مقالة.

والأمر هنا لا يتعلق بالموهبة والخبرة والتمكّن من قواعد اللغة وتقنيّات الكتابة السرديَّة والصحفيَّة فحسب، بل بالإخلاص للكتابة وللقضيَّة المكتوب عنها في آنٍ، وبالرغبة غير المحدودة في العطاء. كان لسماح الاستعداد ـ النادر بين المحرّرين العرب ـ لإنفاق ساعات من وقته الثمين في مراجعة نصّ لكاتب آخر، وتمحيصه، وتدقيقه كلمة كلمة، بل حرفًا حرفًا، والحذف والإضافة والتعديل وإعادة الصياغة، لتخرج الفكرة بأجمل صورة ممكنة وأوضحها. ويتخلّل كلّ ذلك حوارات مع الكاتب لفهم ما يودّ قوله بالضبط هنا أو هناك، حتّى لا تضيع الفكرة الأصليَّة. ثم يُطلع الكاتب على النصّ في الختام وينتظر رأيه بالتعديلات؛ فإن لم تكن تصحيحًا لأخطاء لغويَّة، فهي غير ملزِمة وللكاتب الحقّ في رفضها، برغم الجهد الذي بذله سماح في العمل عليها. كان تغييب جهد سماح في إعادة صياغة النَصّ يتمّ بإرادته ورضاه. أمَّا تغييب اسم *الآداب* حين ينشرُ موقعٌ إلكترونيٌّ ما إحدى موادها، مكتفيًا بالإشارة إلى اسم الكاتب، فقد كان يستفزّه، فيعبّر عن ذلك صراحة.

دعم الأقلام الواعدة

آمن سماح بمشروع *الآداب*، فكانت ساعات التحرير الطوال عنده، جزءًا من مسيرة بدأها سهيل إدريس وينبغي لها أن تستمرّ. وقد آمنتُ بدوري بمشروع سهيل إدريس من دون أن أعرفه. عرفتُ سهيل و*الآداب* من خلال سماح. كان سماح خير رسول لكلّ ما يمثّله والده من قيم أو قضايا. وهو ما دفعني إلى تجنيد نفسي في *الآداب*، فصرتُ أستقطب لها نصوصًا من كتّاب لبنانيين وعرب، وأجيال مختلفة، لم ينشروا فيها من قبل. وكنت أظنّ أنَّني تعلّمت من سماح سرّ الصنعة، فأنكبّ عليها تحريرًا وتصحيحًا وتشذيبًا، وفي ظنّي أنَّها لن تحتاج منه سوى إلى قراءة سريعة. ولكن، كان لسماح الساحر ما يفعله دائمًا مع النصوص، وكانت لمسته التحريريَّة الساحرة تدفع بي إلى السؤال مرَّة بعد مرَّة: كيف فاتتني هذه؟!

معظم من استكتبتُهم كانوا من اليافعين الذين يكتبون على استحياء، ولا مشروع كتابيّ لديهم، بل تجربة يتيمة أو هشّة. ولكنّ النشر في *الآداب*، بما يمثّله من قيمة معنويَّة، والاستفادة من ملاحظات سماح، حفّزهم على الاستمرار. والأسماء التي زكّيتها للكتابة في *الآداب* عيّنة صغيرة من العدد الكبير من المواهب الشابّة التي احتضنها سماح، وشكّلت جزءًا أصيلًا من مشروعه. بهذا المعنى، كان سماح المحرّر مدرّسًا لتقنيّات الكتابة في الوقت نفسه. وكان لا يكتفي بالنشر في *الآداب* أو صفحة المجلّة على مواقع التواصل الاجتماعيّ، بل يشارك النصوص عبر صفحته الشخصيَّة. أمّا المتبرّمون من تحرير سماح، فكانوا قلّة، غالبيّتهم من فئة الكُتّاب المخضرمين الذين اعتادوا النشر في كُبريات الصُّحف، من دون أن تمرّ نصوصهم في غرابيل التحرير. ولكنّهم كانوا يغدون أكثر تقبّلًا بعد أن يعلموا أنَّ اقتراحاته التحريريَّة ليست ملزمة إلّا ما تعلّق منها بأخطاء لغويَّة. كما في كلّ ميدان آخر، كان سماح المحرّر يعرف ما يريده، ويسعى بجدّ حتّى يصل إلى هدفه؛ وهو تقديم ما يليق بـ *الآداب* وسمعتها وقرّائها. وفي وداعه، ليس لنا إلا أن نعاهده على أن نتلمّس طريقنا جيّدًا، ولا نحيد عنه حتّى نصل إلى هدفنا أو نهلك دونه.

لبنان

* كاتب من لبنان. له مجموعتان قصصيّتان: **وجهُ رجلٍ وحيد**، و**بنايةُ الشيوعيين**.

الكاتب كالطِّفل وناشره كأبيه

أسامة جلالي*

الطريق إلى الآداب

كان ذلك في صيف ٢٠١٦، حين بدأتُ البحث عن مجلّة للنشر، لأبدأ دربي في الكتابة. وجدتُ حينئذٍ عددًا من المواقع والصحف الثقافيّة من مختلف الأقطار العربية، إلّا أنّ واحدة فقط راقَت لي، تلك التي كان شعارها «أكثر حداثة، أشدُّ التزامًا.»

راسلتها، وصرتُ لأشهر بمثابة تلميذ في ورشة للتدريب على الكتابة؛ أرسلتُ إليها عددًا لا بأس به من النصوص الّتي رُفضِت كلّها. وفي كلّ مرّة يكون السبب متعلّقًا بـ«فنّيات» القصّ: الأحداث أنهكَت النصّ، السرد طويل ومملٌّ... وأبقى أنا ذو الستّ عشرة سنة، أفكّر في ما سأفعله بنصّي الفاشل أمام هذه التهم التي يصعب عليّ اكتناهها.

أخيرًا: نصّي الأوّل

نُظّمت في تونس، تلك السنة، مسابقة وطنيّة بين الولايات في الشعر. دُعيتُ لأمثّل معهدي بنصّ عنوانه «غيلان الكردي.» أُرسِل النصّ بعد أن راجعته مع أستاذتي في مادّة اللغة العربيّة، إلّا أنّ الاختيار وقع على نصّ آخر ليمثّل الولاية.

سادني شعورٌ أنّ نصّي يستحقّ مشاركته، وأنّه قد ظُلم بعدم تأهّله. قلت في نفسي بانفعال: ما زلتَ تملك فرصةً أخيرةً، أرسِل النصّ إلى الآداب. وإن لم يُقبل هذه المرّة أيضًا، عُد إلى ألعاب الفيديو، وأَنهِ الأمر. أرسلتُ المادّة ولم أتفقّد بريدي بعد ذلك. ولم ألحَّ عليهم في المجلّة، كما في كلّ مرّة، في السؤال إن كانوا قد اطّلعوا على المادّة. اكتفيتُ بنسيان، أو تناسي الأمر.

جاءتني رسالة في يوم ٢٦ جانفي ٢٠١٧، تقول: «أرسل صورة لك، القصيدة ستُنشر غدًا في المجلة.» هي الصورة نفسها التي قد ترونها في موقع الآداب. أتذكّر أنّني كنت أقفز فرحًا لهذا الخبر؛ لقد نال النصّ ما يستحقّ فعلًا، واحتُفيَ به كما وجب الاحتفاء. فرحة النصّ الأوّل كفرحة بدايات الحبّ الأوّل. شارك سماح إدريس وقتها، نصّي على فيسبوك معلّقا: «أسامة جلالي، ١٦ عامًا، من تونس في الآداب، لمَ لا؟ أوّل نصّ نشره لي سهيل إدريس كنت في عمر أسامة تمامًا. اليوم، حين أقرأه يحمرّ وجهي خجلًا. لكن لو

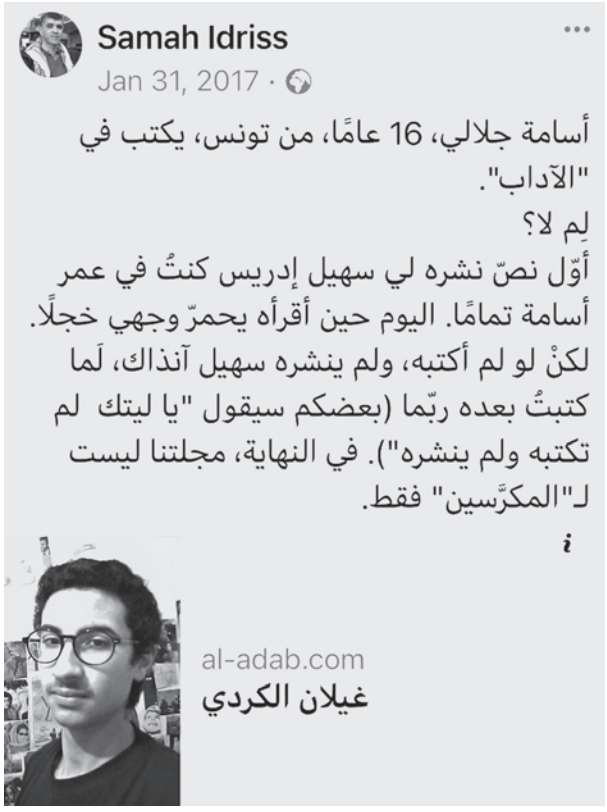

لم أكتبه، ولم ينشره سهيل آنذاك، لما كتبتُ بعدَه ربّما (بعضكم سيقول: يا ليتك لم تكتبه ولم ينشره). في النهاية، مجلّتنا ليست لـ«المكرسين» فقط.»

بعد عامين كتب ثانية: «أسامة جلالي (١٨ عامًا) يكتب في الآداب من جديد. لا عمر «مناسبًا» للكتابة... ولا للنّشر.»

الكاتب كالطفل وناشره كأبيه

كان تواصلي مع مدير الموقع الإلكترونيّ لا مع سماح. لكن، بعد مغادرة مدير الموقع، أخبرني سماح أنّ الاتّصال سيكون مباشرة معه حتّى إشعار آخر. وأنا لم أكن أكثر من فتًى يافعٍ متلهّف، يريد أن يكون اسمه حاضرًا في الأعداد جميعها؛ إذ أسأله في كلّ مرّة قبل إرسال المادّة: «أستاذ هل اكتمل العدد؟ أستاذ هل

* طالب في مرحلة تكوين مهندسي تكنولوجيا المعلومات في تونس. له عدّة مقالات وقصص منشورة في جرائد عربيّة مختلفة، بينها عشرة موادّ منشورة في الآداب، أوّلها حين كان في السادسة عشرة من العمر.

ستنشر المادّة في هذا العدد أم العدد القادم؟» ويجيبني بكلّ هدوء: «أرسل حتّى وإن اكتمل العدد!» فكنت أَمطره بالرسائل والنصوص، وفي كلّ مرّة كان يخصُّني بشيء من وقته، ويجيبني بكلّ رحابة صدر. أتذكّر أنّي مرّة، في سياق الكلام عن مادّة أرسلتُها، قلت: أرجو أن تقرأها. أجابني: «من؟! أنا؟! أنا أقرأ كلّ شيء يصل المجلّة.» كان ألطف من أن يقرّع طلبي الحاملَ اتّهامًا، بأكثر من هذا الاستنكار.

عهدتُه قبل ذلك كاتب مقالاتٍ وافتتاحياتٍ، ومدافعًا عن فلسطين شعبًا وأرضًا، ورئيسا للتحرير. هذه الصفة الأخيرة جعلتني في البدء، أخشى التعامل معه، وألتجئ إلى الرسائل الإلكترونيّة عبر بريد الموقع، خوفًا من أن يردّني لصغر سنّي، أمام اهتماماته ومشاغله التي تتجاوزني. لكنّ الواقع كان مغايرًا؛ فلم يبخل يومًا بالاطّلاع على موادي. وكان يراسلني من حين إلى آخر، ليسألني عن بعض التراكيب التي كانت تحتاج إلى تعديل. وأحيانًا تصلني منه نسخٌ من نصوصيّ معدّلة، وأحيانا أخرى يقول لي: «يمكنك أن تكتب بطريقة أفضل.» وكنتُ أقبل ذلك على مضض، فيقول: «أتريد أن نعيد النظر فيها؟» (وكأنّه لا يردُّ قاصده) فتغمرني الفرحة بفرصةٍ قد تخوّلني النشر في ذلك الشّهر. توطّدت علاقتي بأستاذي الذي جعل اسمي يظهر بين قامات في الأدب والترجمة والنقد، ولم يُثنه صِغر سنّي عن احتوائي كأصغر كتّاب الآداب وقتئذٍ.

أختـــــنا الكـــــبرى[1]

سماح إدريس

احاط افراد العائلة الصغيرة بقالب الحلوى الكبير وقد غرست في وسطه خمس وعشرون شمعة مضاءة . اطفات امي نور الكهرباء . وما ان انحنى رب الاسرة عـلى الشمعات ليطفئها ، حتى تدفقت في نفسي الصور ...

* * *

ـ ولكن مصيبته كبيرة ...
ـ وما هي هذه المصيبة الكبيرة ؟
ـ ان سماح ، لسوء الحظ ، يتذوق الادب ..!
ـ وهل تسمي هذه الموهبة مصيبة ؟!
ـ والله اخشى .. اخشى ان يصبح هذا العفريت اديبـــا ..!
ـ تخشى ؟!
ـ اما راى ما قد عانيت طـوال ربع قرن ؟ اخشى عليه من مصاعب حياة الاديب في بلادنا ..

هذا هو الحوار الذي يـــدور دائما بين ابي واحد ضيوفه الادباء الذين يزوروننا في البيت او في المكتب .

* * *

واذكر ان امي تناولت مرة عددا مــن « الآداب » لم تطلع على مادته كلهـــا وتوقفت عند مقال بعينــــه ، فسالت ابي :
ـ اتراك نشرت هذا المقال لانه ذو موضوع واسلوب جديدين أم لان ...
ـ أم « لان » ماذا ؟
ـ ام لان كاتب هذا المقال فتاة تريد مجاملتها ؟
فابتسم قبل ان يقول :

ـ هل نسيت مقالاتك الاولى ؟
فضحكنا وقالت رنا :
ـ اطمئني يا ماما ، فلا خوف عليــه من ان يتزوج ثانيـــة !

* * *

ما ان يتسلل اول خيط ذهبي من خيوط الشمس الىغرفتهما، حتى ينهض من فراشه فيتناول الترانزستور ويديره على أحدى الاذاعات لسماع آخر التطورات فــي الوطن العربي . وما يلبث أفراد الاسرة أن يتململوا فــي

اسرّتهم ثم ينهضوا واحدا تلو الآخر . وبعد فنجان قهوة ذات نكهة خاصة من يدي رنا الحلوتين ، ينزل الى مكتبه الكائن في بناية هرمة ، سيرا على القدمين . واذ يدخل دار الآداب ينصرف الى اعماله الكثيرة ويستقبل عــلى غير موعد في اغلب الاحيان اصدقاءه من الادباء القدامــى ووجوها جديدة من الادباء الشباب .

وعند الظهيرة يعود الى المنزل حيث يتنــاول طعام الغداء الى جانب عائلته الصغيرة . انها احـــلى الاوقات يقــول . ونلاحظ عليه كم يتحاشى التكلم في امور الدار والمجلة . فتلحّ عليه رائدة ان يحدثها عن سير الشغل . فيتافف ويحول وجهه نحوي قائلا :

١٠٠

المقال الأول لسماح في الآداب ١٩٧٧

لم يحترس منّي، عملًا بالشّعار: «أكثر حداثة... أشدّ التزاما.» هذا هو أستاذي السمح كما أَلِفتُه: معلّما بمثابة أبٍ، يعطف على طلبته، ويحرص على ترسيخ درسه.

اليوم، وبعد مرور أكثر من أربع سنوات على أوّل مادّة أنشرها، أفتخر بالقول إنّ لي ١٠ موادّ منشورة فيالآداب، وإنّني أحد أصغر كتّابها. لكنّ بي حسرة وحزنًا أن أعود إليها بعد عامين من الغياب، لأكتب شهادة حول رحيل صاحبها وصاحبنا، وقد تعجز الأعذار عن التبرير.

مرّ بخاطري الأستاذ سماح (وهذا لقبه الأثير عندي) قبل أيّام من رحيله، تساءلتُ: كيف سنكون إذ يرحل عنّا؟ ولأخفّف عن نفسي عبء الفكرة، فكّرتُ في من تعاملت معهم وتركوا مواقعهم في المجلّات. يجعلني ذلك أحسّ بأنّي فقدتُ طريقي إلى تلك المجلّة أو الجريدة، وأنّ عليّ البحث عن طريق جديد؛ لكنّ مسيرة البحث الأولى يملؤها الفرح، أمّا الثانية فيشوبها الإحباط. بيد أنّ هذه المرّة غير تلك المرّات العديدة؛ إذ يرحل صاحب الدّار والآداب، ويبقى «المشاركون» من الخليج إلى المحيط من دون ذلك السند الذي جمعهم على حبّ الآداب.

في هذه اللحظة وأنا أخطّ هذه الشهادة، يملؤني الإيمان والشّعور بأنّ أصحاب الأثَر لا يموتون، وإنّنا نراهم دائمًا عبر ما يتركونه، على الشاشات، وفي قلوب طريّة.

بنزرت، تونس

تصوير بلال جاويش

يا رفيق

٧٤ برفقة سماح: بين نيويورك ولندن وبيروت ..... وين ـ جين أويان

٨٠ خلطة سماح إدريس السحريَّة ..... شوقي بزيع

٨٢ رحل رافعًا راية فلسطين وثقافة المقاومة ..... رشاد أبو شاور

٨٤ صديقي سماح: الرّفيق والأمثولة ..... أحمد دلال

٨٦ بيروت سماح إدريس: النضال المستمرّ والحوار المتجدِّد ..... مالك أبي صعب

٨٨ تركنا ونحن بأمسّ الحاجة إليه ..... منير شفيق

٨٩ قصَّتي مع سماح إدريس ..... جوزيف مسعد

٩١ على دين فلسطين ومذهب العروبة ..... أحمد بهاء الدين شعبان

٩٢ سماح... ألا تيأس ولو قليلًا؟! ..... نصري الصايغ

٩٤ الرثاء عن بُعد ..... هشام صفي الدين

٩٦ رحيلك مجحف... لكن، ما أجملك! ..... شربل نحاس

٩٧ الرفيق الذي رحل باكرًا ..... شوقي عطية

٩٨ آفاقُ سماح الرحبة ..... رانية المصري

٩٩ الرّجل الكتيبة الذي قاوم الهزيمة بالإبداع ..... غسان بن خليفة

١٠٠ رسالة إلى سماح ..... علوية صبح

١٠١ خير جليس في الغربة ..... نجيب صفي الدين

١٠٢ المناضل الصلب والأديب المرهف ..... لبيب قمحاوي

١٠٣ قصيدتان إلى عُبادة وسماح ..... خريستو المرّ

١٠٤ رسالة الأسرى في رثاء سماح إدريس ..... الرفاق في سجون الاحتلال

برفقة سماح: بين نيويورك ولندن وبيروت

وين ـ جين أويان*

لندن. صيف ٢٠٠٢. أنتظر مجيء سماح على ناصية رَسْل سكْوِير. تساءلت عمَّا إذا كان لا يزال نحيفًا مثلما عهِدتُه. كان قد مضى ما يزيد على عقدٍ من الزّمن مذ رأيتُه آخر مرّة، لكنّي شعرتُ خلال مكالمتنا الهاتفيَّة تمهيدًا لزيارته أنَّه لم يتغيَّر. زيارة سماح إلى لندن كانت بدعوة منّي للمشاركة في مجموعةٍ من الفعاليّات في كلّيّة الدّراسات الشّرقيَّة والأفريقيَّة (سُواس)، والّتي أفضت لاحقًا إلى تأسيس معهد الشّرق الأوسط في جامعة لندن. كنت قد انتقلت إلى لندن سنة ١٩٩٧، إثر حصولي على فرصةٍ مهنيَّةٍ أفضل. رحلت حينها عن الولايات المتَّحدة، وشارلوتسفيل، وجامعة فيرجينيا بعد أن اتّخذت قرارًا بالعيش في مدينةٍ كوزموبوليتيّة حيثُ للشّرق الأوسط حضورٌ راسخ وواسع، وحيث باستطاعتي أن أعمل في مؤسَّسةٍ أكاديميَّةٍ تُعنى فعلًا بالبحث في الأدبِ العربيِّ وتُقدّره.

ولم أندم على قراري هذا. لم يكن باستطاعتي دعوة سماح إلى جامعة فيرجينيا. لم تكن المناسبة لتفرض نفسها. كانت دراسات اللغة العربيَّة هامشيَّةً في كلٍّ من الجامعة والمدينة الصّغيرة في جنوب الولايات المتّحدة. وقد قضيتُ فيها معظم الوقت، أدرِّس اللغة العربيَّة في منهج لست مؤمنة به. أمَّا في «سُواس،» فتحتلُّ العربيَّة موقعًا جوهريًّا في رسالة المؤسَّسة. وقد نالت مهامّي في كلٍّ من التدريس والبحث والتّوعية قدرًا عاليًا من الأهميَّة، بدءًا من يومي الأوَّل في العمل.

تقع «سُواس» في قلب حيّ بلومزبري وسط لندن. كانت، ولا تزال، واحدةً من دور العِلم البارزة في الحياة الفكريَّة العربيَّة. يتوقّف عندها أكاديميُّون يأتون إلى لندن، من شتَّى أصقاع الأرض. كم كان يفاجئني صوت بعضهم يناديني علـى عتبة باب مكتبي الواقع في مبنى فيلبس: «وين ـ جين، نحنُ في لندن! فقط أردنا أن نرى إن كان بمقدرونا أن نجدك هنا في مكتبك،» فينتزعني هتافهم من سديم الكتابة.

في تلك الأيّام، ولعدَّة مرَّاتٍ كلَّ أسبوع، كانت «سُواس» ودار الكوفة (ملتقى أدبيّ) تستضيفان شعراء وروائيّين ومسرحيّين وفنَّانين ومُفكِّرين عربًا، مقيمين في لندن أو يأتون من الخارج، وكنتُ حاضرةً في خضمِّ ذلك كلِّه. ذات مساء، التقيتُ بسعدي يوسف في قطار الأنفاق المؤدِّي إلى دار الكوفة. كان جالسًا بجواري، ورآني أقرأ كتابًا باللغة العربيَّة، لكنَّه لم ينطق ببنت شفةٍ إلى أن خرجنا من القطار، حيث ربَّت على كتفي، ثمَّ تحدَّث إليَّ بالعربيَّة. كان سماح هو من دفعني الى الاشتغال بالأدب العربيّ المعاصر لكتّاب من أمثال سعدي يوسف أثناء مرحلة دراساتنا العليا في جامعة كولومبيا.

مع سماح في نيويورك: حيويّة وتجديد فكريّ

يصغرني سماح بسنةٍ وستَّة عشر يومًا. التحقَ بجامعة كولومبيا سنة ١٩٨٦، بعد أربع سنوات من بداية دراستي فيها. كان بصدد إنهاء دراسة درجة الماجستير في الجامعة الأميركيَّة في بيروت. حضر إلى نيويورك وفي ذهنه مهمّة محدّدة؛ لم يكن مهتمًّا بمتابعة مسيرة مهنيّة في الحقل الأكاديميّ. أراد الحصول على درجة الدّكتوراه قبل أن يعود إلى بيروت فور تخرّجه، كي يتسلّم تحرير مجلَّة *الآداب* من والده سُهيل إدريس، ويساهم أيضًا في أعمال دار الآداب. كان قد بدأ العمل على قاموس مفصّل على مقاس تطلُّعاته، وهو قاموس عربيّ ـ عربيّ، أراده سماح سهل الاستخدام لغير المُلمّين باللغة العربيّة الكلاسيكيّة.

وخلافًا للطلّاب العرب الآخرين الذين التحقوا بجامعة كولومبيا في ذلك الوقت، كان سماح متقنًا لِلُّغة العربيَّة، ومدركًا لما يريد أن يصنع بها. كانَت اللغة جزءًا مهمًّا من رؤيته للحياة الفكريَّة العربيَّة: على المثقّف أن يتمتَّع بمعرفةٍ لا تشوبها شائبةٌ بلغته وتراثه الثّقافيِّ، لكن ليس باعتبارهما هدفين للدّراسة بحدِّ ذاتهما، بل بوصفهما أداتين أساسيّتين لجعل الماضي ذا منفعة في إعادة صياغة الحاضر. في الخامسة والعشرين من عمره، كان سماح غارقًا بالفعل في المناقشات الدّائرة بشأن مستقبل لبنان الّذي مزَّقته الحرب، والعالم العربيّ، والعرب. واعتبر أنّ فلسطين تُمثِّل الموقعين المادّيَّ والرّمزيَّ لنضالات العرب جميعهم، من أجل إنهاء الاستعمار وإيجاد مكانٍ لهم في العالم من غير أن يفقدوا هُويَّتهم واحترامهم لذواتهم.

في تلك الفترة، كان سماح المثقّفَ نفسه الّذي عهدناه حتّى آخر أيّامه. أمّا أنا، فكنت أبعد ما يكون عن ذلك. هل من الممكن

* أستاذة اللُّغة العربيَّة والأدب المقارن في جامعة سواس، لندن، حائزة شهادة الدكتوراه في دراسات الشرق الأوسط من جامعة كولومبيا في نيويورك. صدر لها عدّة كتب ودراسات حول الرواية العربيَّة الكلاسيكيَّة والحديثة.

وين ـ جين وسماح في جامعة كولومبيا

أن أكون مثقّفةً عربيّةً، وأنا صينيَّة من تايوان، أي من صين ما قبل ثورة ١٩٤٩، رغم أنّي نشأت في ليبيا؟ كان اهتمامي بالعصر الكلاسيكيِّ يفوق اهتمامي بالعصر الحديث، وكنت أحاول أن أتبيَّن السّبيل إلى القيام بمقارنةٍ أدبيَّةٍ عربيَّةٍ ـ صينيَّةٍ تحت إشراف المستعرب بيار كاكِيّا، والذي كان يشرف على دكتوراه سماح أيضًا. في كولومبيا، بتُّ منشغلةً ما بين قراءاتٍ عديدةٍ عن الاستشراق، والتهام الأعمال العربيَّة الّتي لم تكن في متناولي في ليبيا، ودراسة الأدب الصّينيِّ، واستكشاف أميركا. مع ذلك، ما لبثتُ أن شعرْتُ بخيبة الأمل من الجامعات النّخبويّة والعالم الجديد. كذلك اعتراني ضجرٌ عظيمٌ.

جاء سماح فقضّ مضاجعنا الفكريّة وألهبَ نارًا في حياتنا الأكاديميّة. خلال حلقات دراسة الأدب مع كاكِيا، والّتي كان النّقاش فيها انسيابيًّا وغير منضبط، أبدى سماح اعتراضه على الأعمال الأدبيَّة الّتي كنّا نقرأها، كأعمال أحمد شوقي وطه حسين وتوفيق الحكيم وعبّاس محمود العقّاد وإبراهيم المازنيّ وسلامة موسى. فهي، في تقدير سماح، قد أصبحت قديمةً. ينبغي أن نقرأ أعمالًا معاصرةً من شعرٍ وروايات وقصصٍ قصيرةٍ ومسرحيَّات. كان بيار أستاذًا ذا عقلٍ منفتح، فأفسح المجال لسماح كي يضيف مساهماته في المقرَّرات الدّراسيَّة في المساقات الأدبيّة تحت إشرافه. عندئذٍ صرنا نقرأ لمؤلّفين ومؤلّفات من أمثال غسّان كنفاني وإلياس خوري وسحر خليفة وحنان الشّيخ وإدوار الخرّاط. وكان إدوارد سعيد محوريًّا في المشاحنات الكلاميّة في الصفّ. لم يكن عددنا يزيد عن ثلاثة طلّاب أو أربعة في الفصل الواحد. بيد أنَّ المواقف كانت منقسمةً بحدَّةٍ ما بين معسكرَي ميشيل ريفاتير وإدوارد سعيد في فهم النّصوص الأدبيّة: بين اعتبار أنّ النّصّ سيّد نفسه بحسب المعسكر الأوّل، وبين أهميّة السّياق، حيث السّياقُ كامن في النصّ ضمنًا بالضّرورة، بحسب المعسكر الثاني.

ثمّ كانت هنالك مسألة الدّور الذي يؤدّيه الأدب في النّشاط السّياسيّ. فللأدب حياةٌ رحبة خارج حجرة الدّراسة. ما زلتُ قادرةً على سماع سماح يمازحني بصوته الممتلئ ضحكًا ووِدًّا، فيقول: «عليكِ أن تخرجي من صحراء فكرك الليبيَّة، يا وين ـ جين، وأن تري العالم العربيَّ على حقيقته.» كان سماح يصحبنا، وأقصدُ زملاءنا في الدّراسة ومجموعةً من الطّلّاب الجامعيّين الّذين كان يُدرِّسهم، لنرى ونسمع بأنفسنا كيف كان يتحدَّث كلٌّ من أنطون شمَّاس وإميل حبيبي وإلياس خوري عن فلسطين، والأدب العربيّ، والسّياسة العالميَّة.

كما أنَّه دعا الكثيرين أيضًا إلى الحَرم الجامعيِّ، بحيث ضجّ الحرم بحيويّة سماح وغيره من طلّابٍ لبنانيِّين وفلسطينيِّين. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان كلٌّ من أحمد دلّال، وطيّب الهبري، ومحمَّد علي الخالديّ، وعمر برغوثيّ، وناصر برغوثيّ زملاء دراسة في كولومبيا. كانوا يحشِدون، وينظِّمون الفعاليّات، ويناقشون في الاستشراق، ويقودون الاحتجاجات الدّاعمة لفلسطين، ويدعمون الفنّانين العرب الّذين كانوا يمرّون بظروف عصيبة، ومنهم إيليّا سليمان الّذي لم تكن مسيرته السّينمائيَّة اللامعة قد انطلقت بعد. اعتدنا، بعد كلِّ مناسبة، أن نجلس على الدّرَجات أمام لو ميموريال هول، حيث نشرد في أفكارنا، ونثرثر إن جاز التّعبير. لم أكن في الواقع عضوةً ضمن دائرته، لكن، حينما جاء إلى كِنت هول، مقرّ الدّراسات الشّرق أوسطيّة في جامعة كولومبيا، كي يُثبِّت وصوله، استقبلته في الطّابق السّادس وكأنّني وحدي حفلة ترحيبٍ بأكملها. كنّا نجتمع ونتسكّع كلّما اتّصل سماح واقترح «نروح نكَزْدِر؟» (بمعنى: هل نذهب ونتنزّه؟)، وهذا ما اقترحتُه عليه هذه المرَّة حين وصوله إلى لندن.

مع سماح في لندن: أبًا وقصّاصًا ومحاضرًا ومتسكّعًا

عندما أطلّ في رسْل سكوير، رأيتُ بدايَة ساقيه الطّويلتين ومشيته. أستطيع التعرّف إلى مشيته من على بعد أميال. تذكّرتُ حذاءه الرياضيّ الأحمر المميّز الذي كان ينتعله. «قدماي مسطّحتان،» قال لي ذات مرَّة، «أحتاج إلى أحذية خاصَّة. فالأحذية العاديّة لا تصلح لقدميَّ.» كان ينتعل حذاءً أسود هذه المرَّة، لكنَّه لم يتغيَّر كثيرًا عمَّا كان عليه آخر مرَّة التقينا فيها. أحضر لي رواياتٍ جديدةً، وقال لي إنَّه يجب أن أقرأ **مريم الحكايا** لعلويَّة صبح. كما أحضر لي القِصص الّتي كتبها للأطفال، والّتي قضيتُ الليل في قراءتها. شارك بمداخلة في مؤتمر الشّرق الأوسط في لندن تحدَّث خلالها عن الإعلام، وعن دور المثقّف في السّياسة، وتجربته، وبالطّبع فلسطين. أرادوا في الـ «**بي بي سي عربيّ**» إجراء مقابلةٍ معه، وكذلك عددٌ من المنابر الإعلاميَّة العربيَّة هُنا. كان الجميع يريدون حصَّةً منه، لدرجة أنَّني تعرَّضت إلى اللومِ لأنِّي كتمتُ خبر مجيئه إلى لندن.

تسكّعنا في خضمِّ الصخَب الّذي كان يستحوذ على اهتمامه. تجوَّلنا وعرَّفتُه إلى لندن الخاصَّة بي. حدَّثني عن ابنتيه، سارية وناي. وعرفتُ من بريق عينيه، ودفء صوته، وإيماءات يديه إلى أيِّ مدى تسعده الأبوَّة. تبضَّعنا من أجل عائلته أيضًا. غير أنَّ ما أراد فعله حقًّا كان قضاء الوقت في محلّات بيع الكتب. ذهبنا إلى مكتبتَي فويلز ووترستون. انتهى به المطاف في الجناح المخصَّص لكتب الأطفال. ثمَّ خرج بعد ساعات وبحوزته عدّة كتب، أثار أحدها اهتمامه على وجه الخصوص: «انظري إلى هذا الكتاب، إنَّه يتناول تأثير وسائل التّواصل الاجتماعيِّ في اللغة. أريدُ لابنتيَّ أن تريا هذا. أريد أن تتعلَّما العربيَّة على نحوٍ سليم، وهذا واحدٌ من الدّوافع وراء كتابتي كتبَ الأطفال.»

سماح المحرّر المنضبط والطّالب المتمرّد

كان سماح جادًّا في ما يخُصّ اللغة العربيَّة وعمله في مجال الأدب العربيّ، سواءٌ في مجلّة *الآداب* أو دار النّشر التي أسّسها والده، أو في دراساته النّقديّة. حدَّثني عن السّاعات الّتي قضاها في تحرير مقالات المجلَّة، وتصحيح التّرجمات والرّوايات للدّار. وأذكر انضباطه أثناء اشتغاله على مشروع الدّكتوراه. كان سماح يعمل لساعاتٍ طوال كلَّ يوم؛ يقرأ الرّوايات، ويلخِّصها، ويجهِّز الموجزات، ويكتب، ويعيد الكتابة، ويطلب من الأصدقاء مراجعة ما كتبه. في حين أنَّني، باعتباري مسوِّفةً وانعزاليَّة، لم أباشر العمل بدوامٍ كاملٍ على رسالتي إلَّا حينما أدركت أنَّه لن يكون في وسعي كتابتها بين عشيَّةٍ وضحاها. لم يخطر ببالي قطّ أن أطلب من صديقٍ أن يقرأ ما كتبت، ناهيك عن تحريره. كنتُ دومًا على عجلةٍ من أمري، وفي طبيعة الحال لا أشرع في كتابة أيّ مشروع إلّا في آخر لحظة. وها نحنُ هُنا، في لندن، نتبادل ما فاتنا من أخبار منذ مغادرتنا نيويورك، أي بعد أن ناقشنا أطروحتينا في اليوم نفسه، في الأوَّل من تمّوز/يوليو ١٩٩١، يومَ تقاعد مُشرفنا كاكيا. رجع سماح إلى بيروت وانتقلتُ أنا إلى شارلوتسفيل لألتحق بأوَّل عملٍ لي في الحقل الأكاديميّ.

يا ترى هل أفادنا كلُّ ما درسناه لأجل الحصول على شهادة الدّكتوراه؟ كنّا ننصرف عن اللغات المفروضة علينا دراستها حالما استوفينا شروطها، أو نجحنا في اختبار مهاراتنا اللغوية فيها. ظلّت العربيّة والإنكليزيّة لغتينا المستخدمتين. وتعمّقت معرفتنا بهما عبر استخدامنا لهما. كنّا نعرف الفرنسيّة من قبل لكنّها ظلّت هكذا: تحلّق في مكانٍ ما في نصف وعينا. ودرسنا الفارسيّة. لعلّني كنت أكثر جدّيّةً في دراستي الفارسيّة من سماح، لقناعتي بأهمّيّتها في دراسة الأدب المقارن العربيّ الصينيّ، ولا سيّما في ما يتعلّق بفترة ما قبل العصر الحديث. لكنّ أستاذ الفارسيّة في حينه، آغاي كاشف، ما فتئ يوبّخنا؛ كان يصفُنا بـ«تنابل» أو ينادينا بـ«الكسالى،» لأنّنا كنّا نستند إلى معرفتنا بالعربيّة لإعانتنا على دراسة الفارسيّة. زِد على ذلك أنّنا لم نكترث البتّة بتعديل لفظنا ليتلاءم مع مخارج الحروف بالفارسيّة. ما زالت كلمات آغاي كاشف ترنّ في أذنيّ: «ابذلا جهدًا.»

وللألمانيّة قصّة أخرى. كنت أودّ تعلّم الإسبانيّة بدلًا منها لكن لم يُوافق على طلبي. توجّب عليّ دراسة الألمانيّة، وكذلك على سماح. وتتالت الأمور فقرّرنا القيام باختبار الكفاءة معًا بعد رسوبنا في محاولتنا الأولى. وكنّا قد توجّهنا طبعًا إلى رئيس قسم اللغة الألمانيّة، واعترضنا على محتوى الاختبار؛ إذ كان كلّه عن الأدب الألمانيّ. كيف يمكن لأحد أن يتوقّع من طلّاب الأدب العربيّ

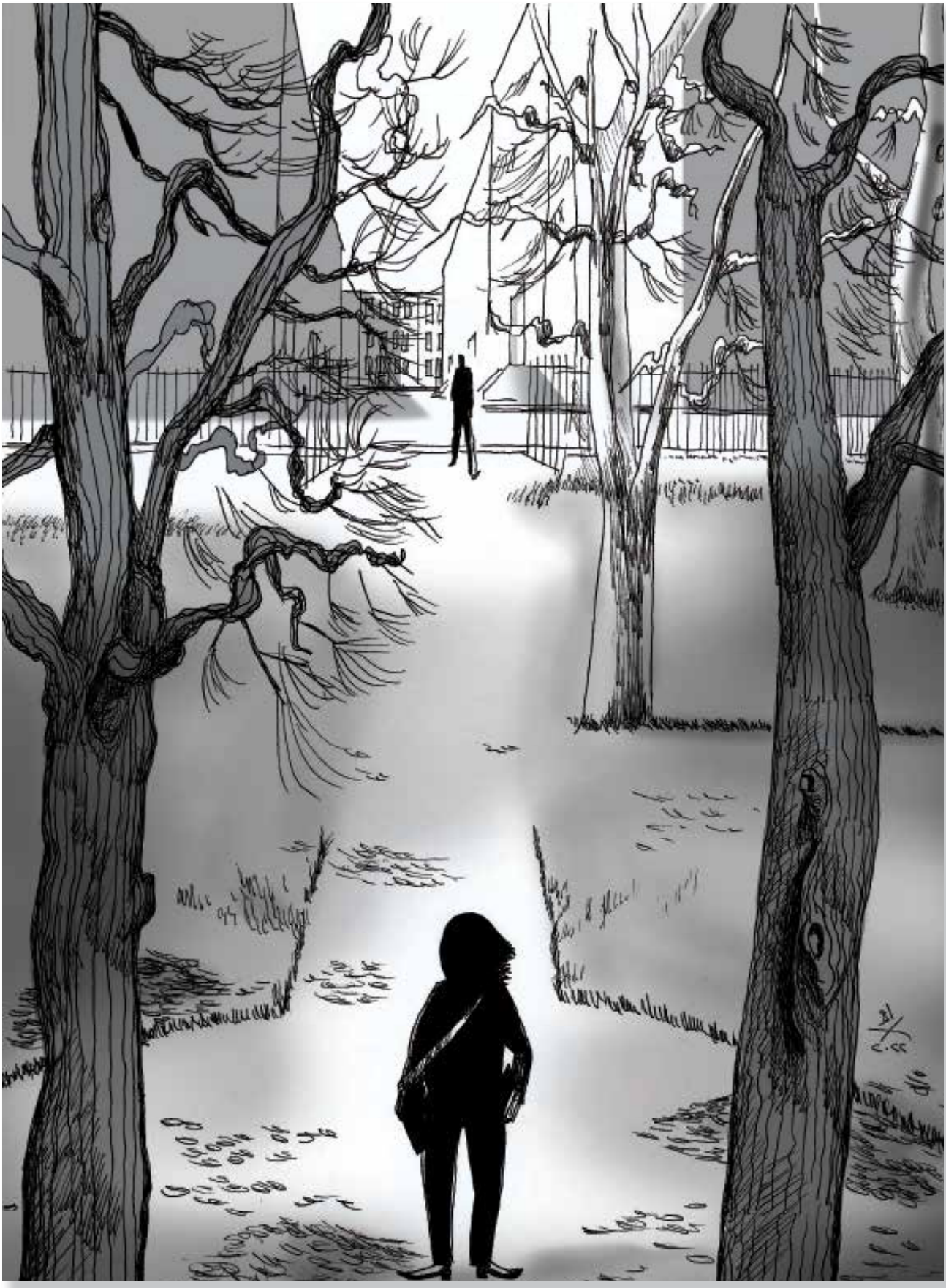

رائد شرف

معرفة أيّ منه؟ وأضف إلى ذلك أنّ الاختبار كان أطول من اللازم، ولم نُعطَ الوقت الكافي لإتمامه. جلسنا، أحدنا بجانب الآخر، عندما قمنا بمحاولتنا الثّانية. كانت لدينا خطّة واضحة، فسيحلّ كلّ منّا أجزاء مختلفةً من الاختبار، وينسخ الأجزاء الأخرى عن الآخر. كان الاختبار أقصر من سابقه، لكن كذلك كانت المدّة المعطاة لإنهائه. انهمكنا في البحث عن المفردات الألمانيّة في القاموس، ومحاولة ترجمة الفقرات بالألمانيّة إلى الإنكليزيّة، فيما تركنا كراريس الإجابات مكشوفةً تمامًا عند حافّتي مقعدينا، بحيث يتمكّن واحدنا من اختلاس النّظر إلى إجابات الآخر. نجح سماح ورسبت أنا مرّة أخرى.

وكان لدينا تساؤل آخر: لماذا يسعى طالبان تخرّجا من قسم اللغة العربيّة في جامعة عربيّة، إلى الحصول على شهادة الدّكتوراه من جامعة أمريكيّة؟ فمعرفتنا باللغة العربيّة والأدب العربيّ كانت متفوّقةً على الشّروط الدّراسيّة جميعها في ذلك الوقت. بالنّسبة إلى سماح، كان يريد الحصول على شهادة دكتوراه من إحدى الجامعات المرموقة. استغلّ وقته في جامعة كولومبيا ودرس النّظريّات النّقديّة. كما التحق بصفوف كان يعلّمها إدوارد سعيد ومايكل ريفاتيري تزفيتان تودوروف.

أمّا أنا، فهل كنت ألاحق حلمَ والديّ الأمريكيّ؟ لم أكن أكيدةً، لكنّني عرفت أنّني أحبّ عالم الفكر. قرأت النّظريّات النّقديّة وحدي، وحضرت مساقات في الأدب الصّيني والثّقافة الفارسيّة، وأيّ موضوع لم أكن آلفه في الدّراسات الإسلاميّة، وتحديدًا الفلسفة. وكانت مساقات جورج صليبا عن العلوم عند العرب أكثرها إلهامًا، فقد علّمتني أنّ معرفتي بالإسلام بحاجة إلى تعديل، وأنّه كان عليّ إعادة التّفكير في ما كنت أعرفه عن الأدب العربيّ والعالم العربيّ والإسلام، و وأنّه عليّ إيجاد منهج بحث خاصّ بي، والعمل على الإقناع بالحجّة في الكتابة.

ظهر سماح في هذه اللحظة من التمعّن في حياتي، فجلب معه ثقافة البحث الخاصّة بالجامعة الأمريكيّة في بيروت. وفي العام ذاته، قدِمتْ أستاذة الأدب العربيّ، وداد القاضي، إلى جامعة كولومبيا لتحلّ محلّ كاكيا أثناء إجازته البحثيّة. وقد عرّفتني إلى الأدمغة الّتي ابتدعت الأعمال الّتي كنت معجبةً بها عند دراستي في جامعة الفاتح (أي جامعة طرابلس قبل حكم القذّافي وبعده). كنت معجبةً بوداد القاضي، هي وإحسان عبّاس، ولم أستطع أن أصدّق أنّني على وشك الدّراسة في حضرتها. وهي أحيت اهتمامي بالأدب العربيّ الكلاسيكيّ في اللحظة الّتي كنت فيها على وشك الانصراف عنه. ألهمتني معرفتها وفضولها وكرمها. كانت تشعّ طاقةً.

في سنته الأولى للدّكتوراه، أعدّ سماح، بإشراف وداد، دفاعًا عن أطروحته للماجستير في الجامعة الأمريكيّة في بيروت عن رئيف خوري، ونجح بتفوّق. من بعدها سيتقفّى سماح العلاقة بين المثقّف العربيّ والسّلطة السّياسيّة في مشروعه الجديد، والّذي سينشره بالعربيّة تحت عنوان **المثقّف العربيّ والسّلطة: بحث في روايات التّجربة النّاصريّة** (دار الآداب، ١٩٩٢). وما بين رئيف خوري والرّواية العربيّة السّياسيّة، قضينا أعوامًا نلحق بوداد من جامعة كولومبيا إلى ييل (Yale)؛ حيث قرأنا معها أنواع النّصوص المختلفة، وفكّرنا في الثّقافة والتّاريخ والدّين والأدب، في وقت ظلّت الحرب الأهليّة الطّائفيّة اللبنانيّة، وتحدّي إدوارد سعيد لفكرة الاستشراق في الخلفيّة. شغلت هاتان القضيّتان أحمد دلّال ونغين يقاري، أستاذا التّاريخ الإسلاميّ في مجموعتنا. أمّا أنا وسماح، فقد حضرنا الدّروس هذه بصفتنا طالبين زائرين في جامعة ييل لمدّة سنة. كانت النّدوات تتبعها أمسيات عشاء في بيت وداد في هامدن، ومزيدٌ من الأحاديث في المساء. مع الوقت، بات علينا التّوقّف عن التّسكّع، فقد احتجنا جميعنا إلى التّركيز على كتابة أطروحاتنا.

لأجل ذلك، غِبنا عن الأنظار. لم ينتشلنا من أوكارنا الكتابيّة إلّا وصولُ كمال أبو ديب في عامنا الأخير ليُدرّس مساقات الأدب العربيّ وبيار في إجازته البحثيّة الأخيرة. كان سماح على معرفة مُسبقة بكمال. والأخير سكن في المبنى الذي أنا فيه، أي «باتلر هول.» فأدّينا دور المستضيفين لكمال. حتّى أنّني وددتُ حضور إحدى محاضرات كمال عن **كتاب البديع** لابن المعتزّ، والّذي كان من اهتماماتي البحثيّة. لكنّني كنت منشغلة تمامًا عن المتابعة. فكانت موائد الغداء والعشاء والأحاديث، وحتّى الزّيارات الليليّة إلى غرف الطّوارئ ممتعةً ومحفّزةً للفكر.

كان الذّوق الأدبيّ من أهمّ القواسم المشتركة بيني وبين كمال. وكان كمال، مثل وداد، يمنحنا مودّته، ويطعمنا وجبات يطبخها في بيته، وهو يحفّز عقولنا على التّفكير. وشاءت الأقدار أن أعمل في «سُواس» في القسم ذاته الذي يعمل فيه كمال. لكنّ كمال كان يقطن في أوكسفورد، ولم تسنح لسماح فرصة رؤيته عندما زار لندن. كانت لندن بمثابة استراحة سماح من بيروت وتوتّراتها وسجونها غير المرئيّة، استراحة لم تخفّف من حماسه للعودة إلى عائلته وإلى عمله في بيروت. في زيارته الخاطفة، تذكّرنا كمال، بأصالته وفرادته وبدفئه وإنسانيّته، وطبعًا بترجمته لكتاب إدوارد سعيد **الثّقافة والإمبرياليّة** الّتي حرّرها سماح ونشرها. نشأنا على أعمال كمال (وكذلك أعمال أدونيس)، وغيّرت آراؤهما الثّوريّة علاقة جيلنا بالشّعر العربيّ والنّقد الأدبيّ.

مع سماح في بيروت: مشاريع وآمال

بعد لقائنا سنة ٢٠٠٢، شعرت بالتّقصير لعدم متابعتي إصدارات *الآداب*. فسجّلتُ اشتراكي فيها فور ركوب سماح سيارة الأجرة أثناء زيارته لندن. لكن، سرعان ما تخلّفتُ عن متابعتها مرّة أخرى. تحت قيادة سماح، تحوّلت المجلّة إلى مطبوعة أكثر انخراطًا في

السّياسة من ذي قبل. وقد علمْتُ أنّ الاشتراكات في المجلّة لم تعد قادرةً على تغطية التّكاليف المتزايدة لنشرها، وأنّ هناك جهودًا مبذولةً لجمع الأموال، وأنّ هناك أفكارًا لنقلها إلى منصّة إلكترونيّة. وأخيرًا، وصلتني الأخبار عن دور أحمد دلّال أثناء عمله في الجامعة الأميركيّة، في تمكين نشر المجلّة إلكترونيًّا ورقمنة جميع أعدادها الماضية، وجعْلِها متوفّرةً مجّانًا لكلّ من يودّ قراءتها.

في تلك الفترة، لم نكن على تواصل منتظم، لكنّني كنت أتابع آخر أخبار سماح ومشاريعه عبر معارف مشتركة بيننا. كنت أصادف أصدقاءه وعائلته في سفراتي، كذلك. تعرّفتُ إلى أختيه رنا ورائدة في معرض أبو ظبي للكتاب سنة ٢٠١٨، قبل بضعة أشهر من وطءِ قدمَيّ أرض بيروت للمرّة الأولى في حياتي في تشرين الأوّل/أكتوبر. زرتُ لبنان تلبيةً لدعوة الجامعة الأمريكيّة في بيروت للاحتفاء بمسيرة طريف الخالدي المهنيّة. وطبعًا بحثتُ عن سماح هناك. اقتطَعَ عندها وقتًا من برنامجه الحافل ودعاني إلى العشاء في شارع الحمرا.

كنت قبلها قد تجوّلت مع فريد دونر، أستاذ تاريخ الإسلام في جامعة شيكاغو، وتساءلت بتعجّب عن نعت بيروت بباريس أو سويسرا الشّرق. لم أفهم حتّى أخذني سماح في جولة. رَكَن السيّارة ونزلنا، مشينا قليلًا ثمّ دلفنا إلى شارع جانبيّ. وإذ بباريس تنكشّف أمام عينيّ. جلسنا إلى طاولةً في أحد المطاعم الّتي كان يرتادها. وفكّرت في أنّه لم يتغيّر؛ تذكّرت أنّه كان معتادًا على الّذهاب إلى مطعم في منطقة برودواي في نيويورك تقريبًا، كلّ يوم لتناول طبقٍ ساخنٍ من الأرُزّ والفاصوليا السّوداء. كنت أخبره أنّ الطّاقة الأموميّة للنّادلة هي سرّ تعلّقه بالمكان، وكان يضحك ويقول إنّ النادلة باتت تعامله كابن لها بالفعل.

تبادلنا أطراف الحديث. فقد كان قد مرّ ما يقارب العشرين عامًا على رؤية بعضنا البعض. تكلّمنا عن السّياسة وعن لبنان وعن سوريا وفلسطين، وعن آماله المعقودة على جيل شابّ من النّاشطين وعلى إبداعهم والتزامهم. وتكلّم كذلك عن الأبوّة، وعن كونه أبًا وحيدًا لشابّتين، وعن شعوره المتجدّد بحرّيّة العزوبيّة. كنت قد فقدت شريكي لون ـ يُن في شهر آب المنصرم، ولم أكن جاهزةً بعد لمشاركته الشّعور بحريّة العزوبيّة المستعادة. لم يجاوز لون ـ ين الستّين من عمره بأشهر، ولم يكن مريضًا. كان المستقبل بانتظاره. وكان قد كرّس جزءًا كبيرًا من حياته للعمل على تدريب جيل من الموسيقيّين الشّباب في تايوان وتحسين فرصه المهنيّة. ترك كلّ المخطّطات الّتي بدأها بدون قبطان.

لست مستعدّة بتاتًا للحداد على فقدان سماح بعد ثلاث سنوات من ذلك اللقاء. يُخلّف سماح وراءه، وفي العمر نفسه الذي رحل عنه لون ـ يُن، مشاريع وأحلامًا لعالم عربيّ أفضل. لماذا يموت الأشخاص الطيّبون في عمر مبكّر؟ يبقى المستقبل مسلوبًا من دونهم، ومن دون رؤيتهم وشغفهم والتزامهم وحكمتهم المستقاة من حياة مُعاشة بالكامل. لقد شهدتْ السنوات الثّلاث الأخيرة ما يكفي من الاضطرابات، ونال قطاع التّعليم العالي نصيبه من النكسات. صعّدت جائحة كوفيد ـ ١٩ الأزمة في أقسام اللغات والعلوم الإنسانيّة. أدّت عمليّات خفض الوظائف إلى إغلاق الأقسام والبرامج الجامعيّة، وخنَق تفاقم تكاليف النّشر الأصوات المعارضة. والآن نحتاج أكثر من أيّ وقت مضى إلى أقسام علوم إنسانيّة نشطة تدافع عن الدّور الأساسيّ الذي يؤدّيه الأدب والفنون في تشكيل أخلاقيّات الحياة اليوميّة، بدءًا من السّياسات العالميّة الخّاصة بفلسطين، وانتهاءً بإدارة الحياة اليوميّة الفرديّة والمجتمعيّة المتمثّلة في النّضالات الّتي يخوضها كلّ فلسطينيّ.

علّمنا سماح بأنّ الأدب نشاط سياسيّ، وأنّ الالتزام بالأدب هو تكريس الحياة للعدالة والحرّيّة. لا يتطلّب الأمر إيماءات ضخمة؛ بل يكفي العيش وفق المبادئ، والعمل نحو تحقيق الأهداف هذه بدرجات صغيرة. عاش سماح وفق شعاراته وأكثر.

سيحضر سماح في بالي خلال الدّرس الأوّل الّذي سألقيه عن الأدب الفلسطينيّ الحديث، بعد عشرة أيام من كتابة هذه السطور. ابقَ معنا يا سماح. نحتاج إلى روحك لتعيننا في المعركة من أجل العلوم الإنسانيّة وقيمتها العامة.

لندن

خلطة سماح إدريس السحريَّة

شوقي بزيع*

أكثر ما يؤلم في رحيل سماح إدريس ليس غيابَه المبكّر، بل عدم استعداده مطلقًا لهذا الغياب. صحيح أنّ سماح كان يؤمن، كسواه، بأنّ الموت هو الكأس المُرّة التي لا مفرّ منها، إلّا أنّ الموت لم يكن ضمن أولويّاته أو هواجسه. وقد يعود ذلك إلى سببين: أوّلهما طبيعة الشاب المستنير الذي رأى الحياة بوصفها الأعطية الثمينة التي لا تتكرّر، والتي يجب أن يفترع جمالاتها ومتعها بكلّ ما يملكه من شغف؛ وثانيهما كون الأهداف التي حدّدها سماح لنفسه تحتاج إلى أكثر من حياة واحدة لإنجازها. فمن أين لهاجس الموت أن يجد طريقه إلى عقل وريث سهيل إدريس الذي لا يملك ترف الانشغال بالاستحقاقات المؤجّلة وشؤون ما بعد الحياة؟

لم يكن سماح، منذ صباه المبكّر، بغافل تمامًا عما تخبّئه له أقداره من كمائن وأشراك. وكان يدرك أنّه ليس بالأمر السهل أن يكون ابنًا لسهيل إدريس؛ حيث يتوجّب عليه أن ينهض بالأعباء العديدة التي حملها الأب الراحل، ومن بينها مجلّة *الآداب* والرواية والقصّة والترجمة والعمل المعجميّ، إضافة إلى دار النشر. صحيح أنّ أمّه عائدة، وأختيه رنا ورائدة حملن مع الشاب الفارع والوسيم، بعضًا من الأعباء المنوطة به، إلّا أنّه أخذ على عاتقه المهمّة الأكثر دقّةً وجسامةً، والمتمثّلة بمتابعة إصدار المجلّة والحيلولة دون توقّفها، مهما كلّفه ذلك من ثمن. وعلى رغم أنّ الدوريّات العربيّة المماثلة، باستثناء الرسميّة منها، قد آلت بمعظمها إلى التوقّف، بفعل صعوبات التوزيع وغياب مصادر التمويل، فإنّ سماح بذل، ومعه سائر أفراد العائلة، كلّ ما في وسعهم لمنع المجلّة من التوقّف عن الصدور، حتّى لو اضّطروا إلى الإنفاق عليها من موارد دار النشر.

لم يكن التمويل وحده هو ما وضع سماح وجهًا لوجه أمام جدار الأسئلة المؤرّقة، بل كان المأزق الأخطر متمثّلًا في انسداد الأفق الأيديولوجيّ والسياسيّ للمجلّة، بعدما تمخّض ذلك الأفق

* شاعر من جنوب لبنان. له العشرات من الدواوين الشعرية إضافة إلى كتابات نثريّة ومقالات نقدية.

عن هزيمة عبد الناصر، ومعه الحلم القوميّ برُمّته، في حزيران ١٩٦٧. وفي هذا، حاول إدريس الابن، رغم الصعاب، إضفاء لمساته الخاصّة على *الآداب*، بما يتناسب مع تبدّلات العصر، واختلاف تحدّياته وأسئلته من ناحية أخرى.

وإذا كان بعضنا يأخذ على سماح، المتّقد حماسة وحيويّة على صعيد الدفاع عن فلسطين وسائر قضايا الأمّة، والمؤمن أشدّ الإيمان بأنّ الثقافة في عمقها أبعدُ من أن تكون مجرّد ترف جماليّ أو كشوف تخييليّة مجانيّة، أنّه عمل على تحويل *الآداب* إلى منصّة سياسيّة وعقائديّة؛ فإنّه من غير الإنصاف في المقابل أن نغضّ النظر عما أضافه إلى المجلّة من لمسات الجدّة والتغيير، سواء من حيث الملفّات والمحاور الثقافيّة والفكريّة التي تمّت مقاربتها، أو من حيث فتح الأبواب واسعةً أمام أجيالٍ جديدة من الشبّان، أو من حيث التفاعل الإيجابيّ مع قصيدة النثر التي لم تكن تجد لها موطنًا يُذكر على صفحات *الآداب* في حقبة صدورها الأولى.

لقد بذل سماح إدريس كلّ ما في وسعه لتحويل حياته إلى ساحة سباق دائم مع الأحلام الكثيرة التي وضعها نصب عينيه. والواقع أنّ العبارة الشائعة «الولد سرّ أبيه،» لم تكن لتنطبق على أحد من الأبناء بمقدار انطباقها على سماح بالذات. إلّا أنّ وراثته لعصاميّة الأب وكفاحه العنيد لتحقيق أهدافه، لم تدفعه الى استنساخ سهيل و»إعادة إنتاجه» على المستويين السياسيّ والابداعيّ. صحيح أنّه تقاطع معه في مسائل الالتزام بالإنسان وقضاياه، ومناهضة الاستعمار وربيبته الصهيونيّة بمختلف وسائل المناهضة والاحتجاج. لكنّه لم يتحرّج في المقابل، من الافتراق عنه في بعض المواقف الأخرى؛ كموقفه الحَذِر من التجربة الناصريّة التي لم تستطع إيجابيّاتها الكثيرة أن تطمس، من وجهة نظره، وجوهها السلبيّة المتمثّلة بالنزوع الفاقع إلى التفرّد والاستحواذ، وبالعمل على تدجين المثّقفين، أو زجّ المعارضين منهم في غياهب السجون. وإذ عرض سماح، بالكثير من التفصيل، لمجمل هذه الإشكاليّات في كتابه اللافت **المثقّف العربيّ والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصريّة**، فإنّه لم يفُتْهُ أن يستعيد أسلوب الأب في المرح والدعابة المحبّبة، حيث استهلّ مقدّمة الكتاب بالقول: «أودّ بادئ ذي بدء أن أشكر أبي سهيلًا، وآمل أن لا تخيّب أفكاري واستنتاجاتي آماله!»

لقد كان على سماح إدريس، وهو يقطع الطريق الشائك إلى أهدافه النبيلة، أن يحارب على غير جبهة، وأن يطعن بنصال عزيمته الصلبة أكثرَ من تنّين.

إلى جانب كلّ ذلك، أخذ سماح على عاتقه المثقل بالأعباء، مهمّة استكمال المعجم العربيّ ـ العربيّ، والذي شرع كلٌّ من سهيل إدريس وصبحي الصالح بإنجازه في ثمانينيّات القرن المنصرم، من دون أن يكون هو نفسه بعيدًا عن هذا الإنجاز. ومع أنّ افتتانه بلغة الضاد شكّل أحد الدوافع الأهمّ لمتابعة هذا المشروع الشاقّ، والذي يتطلّب الكثير من الأناة والمثابرة والمعرفة الواسعة بأسرار اللغة الأمّ، فإنّ ذلك الأمر لم يأخذ كتاباته وأعماله باتّجاه التقعّر والصرامة والتزمّت الأسلوبيّ. وهو ما بدا جليًا في كتبه الموجّهة إلى الأطفال والفتيان، حيث تصبح اللغة صنوًا للبساطة والانسياب التأليفيّ الرشيق، فيما يتمّ تطعيمها، في الوقت ذاته، بالكثير من المفردات والصيغ التعبيريّة المحكيّة.

لقد كان على سماح إدريس، وهو يقطع الطريق الشائك إلى أهدافه النبيلة، أن يحارب على غير جبهة، وأن يطعن بنصال عزيمته الصلبة أكثرَ من تنّين. ولقد نجح إلى حدّ بعيد، في تحويل عقود حياته الستّة إلى نوع من الخلطة السحريّة القائمة على التوأمة الدائمة بين موجبات الدفاع الصارم عن قيم الحرّيّة والعدالة والكرامة الإنسانيّة من جهة، وبين الافتتان بجمال العالم والانقضاض «الذئبيّ» على ما يُتاح له من مُتع العيش وأطايبه وملذّاته، من جهة أخرى. لكنّ صلابة سماح وتشبُّثه بالحياة، لم يجدا ما يسندهما على أرض الواقع العربيّ المثخن بالهزائم والتصدّعات والانهيارات المتلاحقة. وإن استطاع السرطان أن يربح جولته الفاصلة مع جسد سماح المثخن بالآلام، فإنّه لن يجد بالتأكيد سبيلًا لإزهاق بريق عينيه العصيّ على الانطفاء، والباحث من دون كللٍ عن قوافل النجوم التي تقوده إلى فلسطين.

بيروت

رحل رافعًا راية فلسطين وثقافة المقاومة

رشاد أبو شاور*

أعطى سماح إدريس كثيرًا في عمره القصير نسبيًّا. وترك رحيله صدمةً وحسرةً في قلوب كلّ من عرفوه، ورافقوه، واتّفقوا معه، أو خالفوه أحيانًا، كثيرًا أو قليلًا. فهو اتّسم بالصدق، والنزاهة، والأمانة، والوضوح، والثبات.

قبل تلقّي نبأ رحيله، كنت قد اتّصلت بأحد الأصدقاء في بيروت لأطمئنّ على وضعه، فجاءني صوت الصديق حزينًا: المرض تفشّى في كلّ بدنه يا صديقي! فداهمتني نوبة حزن وإحباط. ولكنّني منّيت النفس بأنّه سينجو. وقد ظلّ سماح يقاوم أثناء تلقّيه العلاج، لكنّ المرض كان أشدّ وطأةً، فحرمنا المثقّف والكاتب والناشر المقاوم والميداني. فُجع الفلسطينيّون برحيله، مثقّفين، ومواطنين مقاومين. فهو واحد من أبرز كُتّابهم، ومثقّفيهم، ومقاوميهم الكبار. أبّنوه بحزن وحسرة وشعور فاجع جامع بالفقدان، داخل فلسطين، وفي الشّتات القريب والبعيد.

واليوم أكتب له وعنه. لا أُخفي أنّني أكتب وأنا مرتبك، بل عاجز عن ترتيب أفكاري. ففي رأسي تدوّي عبارة ذلك الصديق البيروتيّ: لماذا يا صديقي نفقد كبارنا الآن، ونحن، وقضايانا، وفي مقدّمتها فلسطين، أحوج ما نكون إليهم؟

شبّ على العروبة واحتضن فلسطين فاحتضنته

بعد أيّام معدودة من وفاته، شاركتُ في ندوة عبر الزوم مع الأهل في مخيّم الدهيشة بالقرب من بيت لحم. ما ان افتتحتُ الندوة بالوقوف دقيقة صمت وتلاوة الفاتحة على روحي الكاتب العربي المقاوم سماح إدريس وآخر شهيد سقط في منطقة بيت لحم، حتى ضجّت القاعة بالتصفيق.

أثق أنّ بعض شوارع فلسطين ستحمل يوما ما اسم سماح إدريس؛ فشعب فلسطين وفيٌّ ولن ينسى رفاق الطريق. وأذكر في هذا المقام، أنني فوجئت عندما علمت أنّ الاسم الحركي لأحد الذين شاركوا واستشهدوا في معارك الأغوار إثر هزيمة ٦٧ كان سهيل إدريس. وعندما أعلمت سهيل إدريس نفسه بالأمر، وكنت يومئذ برفقة صديقي الشاعر أحمد دحبور، حاول الأب المؤسّس لـ *الآداب* الاستفسار عن هذا الفدائيّ، ومعرفة كلّ شيء عنه، وعن ثقافته.

عكسَت حماسة سهيل إدريس هذه مقاربتَه ومقاربة رفيقة عمره عايدة مطرجي للصراع مع العدوّ الصهيوني. فوالدا سماح عروبيّان تقدّميان ديموقراطيّان. حملا باستمرار راية فلسطين، وبشّرا بحتميّة تحريرها بالمقاومة، ولم ييأسا عند وقوع هزيمة حزيران. بل جعلا من مجلّة *الآداب* منبرًا لأدب المقاومة، وثقافة المقاومة، وشجّعا المبدعين العرب على الكتابة الملتزمة بثقافة المقاومة ردًّا على الهزيمة المُرّة في حزيران ال٦٧.

وقد امتدّت ثقافة المقاومة تلك لتشمل هموم الأمّة من محيطها إلى خليجها، من ثورة الجزائر إلى ثورة عدن، ومن إدانة سياسة الأحلاف إلى فضح العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦. ومن تأميم قناة السويس إلى بناء السدّ العالي، ومن وحدة مصر وسورية إلى إدانة الانفصال وتجريمه سنة ١٩٦١. وُلد سماح في هذا الفضاء المُشبَع بمبادئ العروبة والحُريّة والديمقراطيّة التي صقلت شخصيّته.

وفي زمن المطبّعين واللصوص
وباعة الدم والضمير وإعلام
التخدير والتزوير وتغييب الوعي،
بقي سماح مُتمسّكًا بالقيم التي آمن بها

المثقّف العابر للحدود والنقد البنّاء للسلطة

رحل المُعلّم الأب، فواصل سماح رسالة *الآداب*. وحين أغلقت أبوابُ الرقابة الحدودَ في وجهه، واستشرت محاولات الترويض، أصدر سماح المجلّة إلكترونيًّا. اجتذب أقلامًا مبدعةً شابّةً، ولم يُدر الظهر لمن رافقوا *الآداب* في زمن الأب المعلّم ـ وأنا منهم. فقد كتب لي ولآخرين طالبًا أن نشارك بقصصنا ومقالاتنا. وبهذا أزال الحدود المُفتعَلة والرقابة الضيّقة الأفق بين الأقطار العربيّة. فوصلت *الآداب* الإلكترونيّة إلى مختلف أصقاع الأرض بحلّة أنيقة حديثة، وبأقلام موهوبة، وبتجديد سار بـ *الآداب* نحو آفاق فسيحة.

* قاص وروائي فلسطيني (١٩٤٢) من الخليل. إنخرط في صفوف المقاومة الفلسطينية، ثمّ عمل في الإعلام مع منظّمة التحرير.

والتجديد من سمات سماح الفكريّة الأصيلة. عندما ألقيت محاضرة في المنتدى العربي في عمّان، بعنوان «هل يمكن تجديد الناصرية عام ٢٠٢١،» وضعتُ أمامي كتاب سماح بعنوان **المثقّف العربي والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصريّة**. كنت قد قرأت الكتاب وأنا في تونس بعد أن أهدانيه سماح بُعيد صدوره. وقد استعدت أثناء محاضرتي علاقة الناصريّة بالديمقراطيّة، والتي أشار إليها سماح من خلال الإهداء الذي خطّه في مستهلّ الكتاب: إلى الأخ والصديق الروائيّ والقصّاص الفلسطينيّ العربيّ. كيف نكون ناصريين حقًّا؟ وديموقراطيين حقّا أيضًا؟ مع حُبّي واحترامي.

في كتابه، ناقش سماح بعمق أزمة الناصريّة في العلاقة مع المثقّفين بمختلف مشاربهم، من خلال أعمالهم الروائيّة. وضع أيضًا محدّدات لدور المثقّف العربيّ، وما يحميه من السقوط في شراك السلطة، أيّ سلطة، في الماضي والحاضر والمستقبل. وقد تحدّثت في النّدوة عن أهميّة تجديد الناصريّة، لا بتقديسها والولاء لقائدها الراحل جمال عبد الناصر، ولكن بنقدها، والوقوف أمام سلبيّاتها، وعدم المجاملة والتغطية على أمراضها وأسباب هزيمة حزيران ٦٧.

صلة الوصل بين الأجيال

لم يتناول سماح المفكّر والمقاوم إرث الماضي فحسب، فقد انتقل بقصصه إلى عوالم الشباب والأطفال. وذهب إليهم في المخيّمات الفلسطينيّة، مخاطبًا العقول، موقظًا الوعي، فاتحًا البصائر على ما ينتظرهم، مُمتعًا ككاتب، مُدهشًا كحكّاء بارع. بعد أن قرأت روايته للناشئة **خلف الأبواب المُقفلة**، سألني: هل أعجبتك؟

أجبته: يا سماح، أنت تكتب عن شباب لا نعرف عنهم سوى القليل، لأنّك منهم. صحيح أنّك تكتب لهم، ولكنّك تكتب عنهم، وعن هواجسهم، ومشاغلهم. لذا فأنت تُعرّفنا إليهم، وتساعدنا على الاقتراب منهم، فضلا عن أنّك روائيّ بحقّ!

سماح كان مرِحًا، جذّابًا، مؤثّرًا، بعيدًا عن الحقد. كان محاورًا عنيدًا، يعمل طيلة الوقت، لا في المكاتب والعالم الافتراضيّ فحسب، ولكن مع الناس، صغارًا وكبارًا، في المساحات العامّة والأندية الثقافيّة والتظاهرات الشعبيّة.

الوصيّة في زمن الانتهازيّة

وفي زمن المطبّعين واللصوص وباعة الدم والضمير وإعلام التخدير والتزوير وتغييب الوعي، بقي سماح مُتمسّكًا بالقيم التي آمن بها؛ فكتب افتتاحيّةً غاضبةً عن حثالات الخراب في لبنان الذين يُغرقون بيروت وأخواتها في العتمة، ويقطعون البنزين والمازوت، ويرهنون كرامات الوطن ومصيره، ويبيعونه بأثمانٍ بخسة، وينهبون ثرواته. وصرخ بهم علّهم يتّعظون فيرتدعون، وهو يعلم أنّ لا حياة لمن تنادي. لكن ذلك لم يُثنِه عن مواصلة المسير فكتب: لا نملك مهنةً غير الكتابة والنشر المستقلّين. سنواصل هذه المهنة، مهما صعبت الظروف، ومهما تعثّرنا، أو تأخّرنا، أو كبَونا. وسنكون إلى جانب كلّ من يعمل، بكدٍّ وتفانٍ، وحبٍّ، على الخلاص من سارقي أحلام شعبنا في الحياة الكريمة الحُرّة.

كتب وهو يواجه المرض الذي فتك بجسده، بكلّ يقين، وبكبرياء، معاهدًا، وواعدًا، باسمه، وباسم من سيواصل رسالة *الآداب* من بعده. وكأنّه بذلك ثبّت خطّ *الآداب*، ودار النشر، وترك وصيّةً وعهدًا. هذه وصيّة سماح، وهذه مدرسة *الآداب* التي أنجبته، وتربّى ونشأ على قيَمها.

لروحك السلام أيها المقاوم والمفكّر الميدانيّ.

سيبقى اسمك مرفوعًا في الميادين، ومع رايات فلسطين، وفي أناشيد المقاومين ووعودهم في كلّ بلاد العرب. وستبقى ملهِمًا لكلّ المثقّفين الصادقين والشرفاء والمستقلّين.

عمّان ١٦ديسمبر٢٠٢١

صديقي سماح: الرّفيق والأمثولة

أحمد دلال*

رأيت سماح لآخر مرّة في ٢٢ تشرين الأوّل من العام الماضي، عبر تقنية الفيديو، بعد خروجه من وحدة العناية الفائقة. كان بالكاد قد استعاد قدرته على الكلام. على الرّغم من ذلك، لم يتحدّث عن مرضه أو عن صحّته المتردّية؛ بل سألني عن صحّتي، وعن عائلتي، وعن عملي. ومع علمي أنّ احتمالات استئناف علاجه وتعافيه كانت ضئيلةً جدًّا، إلّا أنّه كان ثاقب الذهن، يتكلّم، بل يضحك. أقنعت نفسي بالأمل، ظننتُ أنّني سأسافر بعد شهرين إلى بيروت كي أجلس بجانبه وأمسك يده، وأسانده، ولو لبضعة أيّام. ولكنّ القدر شاء خلاف ذلك.

أكتب هذا النّصّ عنه بعد رحيله، بمشاعر مختلطة. كان سماح دومًا رصينًا في كتاباته، وأخشى أن أخذله إن لم أُجارِه في ذلك في كتابتي الآن. لا أستطيع أن أخفي الأسى العميق الّذي يسكن قلبي المثقل، والذّهول الّذي يداهمني لغياب هذه الحياة الغنيّة من بيننا. لا يوجد كلمات تساعد على تخفيف هذا الحزن والشّعور بالخسارة اللذين أصابانا، جماعيًّا وفرديًّا، لرحيل هذا الرّفيق الاستثنائيّ؛ يُقال إنّ «المرء لا يتخطّى الخسارة أبدًا، بل يتعلّم العيش معها.»

ولكن، حتّى في حزننا وغضبنا إزاء هذا القدَر، ينبغي ألاّ نكبِتْ ومضة السّعادة القابعة في أعيننا الدّامعة؛ هي فرحةٌ تُولد من يقيننا أنّ حياة سماح موسومة بإنجازاتٍ كبيرةٍ لا يقدر عليها الكثير منّا. حياة سماح الغنيّة تستحقّ أن يُحتفى بها. وفي لحظة غيابه، حريّ بنا أن نتذكّر بعضًا من إنجازاته الكثيرة والعقبات الّتي تغلّب عليها والبهجة الّتي زرعها في قلوبنا. وأن نستحضر أيضًا الأشياء الصّغيرة الّتي تفرّد بها.

نصير الحقّ دون مواربة، وحارس اللغة دون كلل

منذ اللحظة الأولى الّتي تعرّفت فيها إلى سماح، كان نصيرًا لضحايا الظّلم وقضاياهم. كان التزامه الرّاسخ بقِيَم المساواة والعدالة، وبكرامة الإنسان وحرّيّته، أكان ذلك في فلسطين أو لبنان أو في سائر العالم العربيّ، جزءًا من هُويّته، ما جعل فصل سماح الرجُل

سماح إدريس وأحمد دلال أيّام الدراسة الجامعيّة

عن سماح القضيّة عمليّةً مستحيلة. كان يمقت العنصريّة والطّائفيّة، ولم تكن مناصرته الدّؤوبة للقضايا العربيّة ضيّقة الأفق، بل كانت مترسّخةً في النّضالات العالميّة من أجل العدالة بشكلٍ فعليّ.

استطاع دائمًا أن يوازن بين تضامنه من جهة، وبين تحليله النّقديّ الشّجاع للآفات الاجتماعيّة والسّياسيّة للمجتمعات الّتي أحبّها وخدمها من جهة ثانية. أدرك تمامًا حجم التّحدّيات الهيكليّة الّتي تُعوِّق التّنمية في العالم العربيّ، وجذور الخوف واليأس. ولكنّه لم يسمح لهذه المعرفة بأن تتغلّب على تفانيه في بذل كلّ ما في وسعه لتغيير هذا العالم، وتركه مكانًا أفضل ممّا وجده عليه.

وصَف الأمور كما رآها. وعلى الرّغم من وفرة مصادر الإغراء، لم تُفسده القوّة ولم تُرهبه السّلطة. لم يعرف الخوف. لكنّ شجاعته لم تكن غريزيّة، كان يستمدّها من إعمال عقله ومعرفته وجهده الّذي لا ينقطع. كان سماح ثابتًا في مواقفه. في وقت الشّدّة، آمن بقوّة الكلمة؛ وبِغضّ النّظر عن مدى هشاشتنا، آمن أنّ علينا

* رئيس الجامعة الأمريكية في القاهرة. شغل سابقًا منصب عميد جامعة جورج تاون في قطر، وكان رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية في نفس الجامعة، ووكيل الشؤون الأكاديمية للجامعة الأمريكية في بيروت من عام ٢٠٠٩ إلى ٢٠١٥. لديه العديد من المقالات ومشاركة في فصول من كُتب، بالإضافة إلى العديد من الكتب منها: **ردّ إسلامي على علم الفلك اليوناني: كتاب تعديل هيئة الأفلاك لصدر الشريعة** (١٩٩٥)، **والإسلام والعلم وتحدّيات التاريخ** (٢٠١٢)، **والعقيدة السياسية لتنظيم داعش: الأنبياء والمخلصون ومحو المنطقة الرمادية** (٢٠١٧)، **والإسلام بدون أوروبا ـ تقاليد الإصلاح في الفكر الإسلامي في القرن الثامن عشر** (٢٠١٨).

ألاّ نمتنع عن الجهر بمعتقداتنا، حديثًا وخطابةً وكتابةً. كان وفيًّا لمبادئه حتّى آخر لحظة، وعبر إخلاصه الّذي لا يتزعزع خلّف بصمةً جليّةً في تاريخ النّضال من أجل حياةٍ أفضل لشعوبنا.

ومثلما كرّس حياته لمُثُل العدالة والمساواة، تفانى في خدمة اللغة العربيّة. أَحَبَّ العربيّة وأمضى ساعاتٍ طويلةً متفكّرًا في كيفيّة استخدامها المرهف والدّقيق. جهد في استعمال الكلماتِ كحِرفيٍّ يصوغ قطعةً فنّيّةً هشّة. فهِم قوّة هذه اللغة. على عكسي، كان دائمًا رقيقًا حتّى في غضبه. ولعلّ ذلك يرجع إلى قدرته على المناقشة والكتابة عن مشاعره الجيّاشة بلغةٍ جميلةٍ وبليغة. ولكنّ اللغة بالنسبة إليه لم تكن مجرّد أداة، بل كانت تجسيدًا لكلّ ما يحبّه.

فهِم قوّة المعرفة وضرورتها. التحق بجامعة كولومبيا للدّراسة، ولكنّه لم يفكّر للحظة في الانخراط في مسيرة مهنيّة أكاديميّة. علم دائمًا أنّه سيعود إلى بيروت من أجل تولّي قيادة مجلّة *الآداب*، هذا الصّرح الثّقافيّ الّذي أثرى الأدب العربيّ الحديث، وصنع مسيرات العديد من أجيال الشّعراء والرّوائيّين العرب. علم سماح أنّه سيعود للعمل على المعجم، وأنّه سيعود للبحث عن أساليب مبتكرة لنشر اللغة العربيّة وآدابها في خدمة العدالة والكرامة الإنسانيّة.

اهتمّ سماح أيضًا اهتمامًا شديدًا بالشّباب والأطفال. وتمكّن من التّواصل معهم بطرق قَلّ من يتقنها. ألّف قصص الأطفال بعناية ومحبّة. أراد أن يحفظ جوانبَ من حياته، فكتب جزءًا من نفسه في هذه القصص. فكّر مليًّا في كيفيّة استخدام اللغة لكتابة قصص يستمتع بها الأطفال وتليق بهم. كتب لابنتيه سارية وناي، أراد أن يُحبِّبَهما باللغة العربيّة. ولكنّه كتب أيضًا لأطفالنا جميعًا لأنّه كان يحترمهم بصدق. كتب لأولادي، وكان يسألني باستمرار إذا كنت أجهد في تدريسهم العربيّة. أخبرته أنّ قصصه كانت قصصهم العربيّة المفضّلة. وهي قصص قرأتها لهم قبل نومهم، قصص جعلتهم يتعلّمون ويضحكون. كان فخورًا بأولادنا وبابنتيه الشّجاعتين والذّكيّتين. سيَحيا بهما وبكلّ النّاس الّذين أحبّهم وألهمهم.

رفقة عمُر وذكرى لن تغيب

طلاقة سماح في اللغة جعلته متحدّثًا موهوبًا ومقنعًا وواثقًا، وأحيانًا، كما كنت أقول له، عنيدًا. في جامعة كولومبيا، أمضينا معظم أيّامنا معًا. أوّل لقاءاتي مع سماح كانت عابرة. لكنّنا أصبحنا رفيقين مقرَّبين في منتصف الثّمانينات عندما كنّا ندرس معًا في القسم ذاته في جامعة كولومبيا. كنّا لصيقين لخمسة أعوام. أكلنا معًا، درسنا معًا، أخذنا العديد من الدّروس معًا، وكنّا دائمًا يستعين أحدنا بالآخر. عشنا في شققٍ صغيرةٍ، ولكن قضينا ساعاتٍ طويلةٍ في رحاب المكتبة الواسعة، ندرس بجانب رفيقتنا «نجين» على طاولاتٍ خشبيّةٍ فسيحة. وقضينا ساعاتٍ أطول نردش خارج المكتبة خلال استراحات لا تنتهي.

ما زلت أرى سماح جالسًا على الطّاولة في المكتبة، ناشرًا أمامه كتبه، يدوّن ملاحظاته المستفيضة بانضباط وبانتظام. حتّى في زمن الكومبيوتر، كان دومًا يفضّل القلم والورق. هذه هي الصّورة الرّاسخة في ذهني عن سماح منذ أيّامنا في جامعة كولومبيا: متأمّلًا، يقرأ بعناية، يعمل بكدّ من أجل العثور على الكلمة المناسبة، يكتب ملاحظاته عن كلّ صفحة يقرأها. وبين الدّراسة وكتابة الأوراق في فصول الدّراسة، كان يعمل دائمًا على المعجم. هذا العمل على المعجم كان بمثابة البوصلة لسماح، يُوطّد ارتباطه بما هو مهمّ في الحياة.

كان أوّل من يعرف أخباري، وكنت أوّل من يعرف أخباره. تشاركنا أحزاننا واحتفالاتنا، وأجرينا مناقشات حادّةً لا نهاية لها عن مسائل شتّى. وتشاركنا دائمًا أخبارنا الحميمة، رغم علمنا أنّنا سنختلف ونتبنّى آراءً متباينة. لقد أردنا أن نتشارك في حياتنا، وأن نعرضها كما هي دون حواجب. سماح كان رفيقي وأخي، أخي المسَلّي والمطمْئِن والسّاخر.

كان ذلك الرّفيق الّذي يقف بجانبك مهما اختلف معك. بعد التّخرّج، بدأت مسيرتي المهنيّة في الولايات المتّحدّة وعاد هو إلى بيروت. ولكن عند كلّ زيارة لبيروت، كنت أجد في شخصه الرّفيق المتقبّل والمحبّ الّذي عرفته دائمًا، كأنّ شيئًا لم يتغيّر، على الرّغم من تغيّر العالم من حولنا. وبعد مرور عشرين سنة، عندما انتقلت بدوري إلى بيروت، كان صديقًا فريدًا، لديه القدرة الهائلة على مناقشتي وعلى تحدّي قناعاتي، ولكن لم أشكّ أبدًا بحبّي له أو بحبّه لي. بذل سماح جهدًا لكي يرى في نفسي أشياء لا أستطيع أن أراها أنا. ولطالما تذكّر تفاصيل عنّي كنت قد نسيتها، ولم أكن لأتذكّرها من دونه. برحيله، سأنسى جزءًا من نفسي.

كطلاّب شباب في منتصف الثمانينات، اعتبرنا أنفسنا مثقّفين عضويّين. طيلة حياته، لم يتخلّ سماح عن هذا الالتزام. ولطالما شكّك سماح في نفسه، لدرجة أنّ من لا يعرفه قد يظنّه ضعيف الثّقة بهذه النفس. ولكنّ التّناسق الملحوظ للحياة التي قادها يُثبِت العكس. جوهر هُويّة سماح لم يكن أبدًا موضع شكّ وحيرة؛ سماح هو الصّديق الّذي يحثّك على التّفكير وإعادة التّفكير، ويحثّك على إدراك مكامن القصور في يقينك. وجوده الثّابت في حياة أصدقائه جعل منّا أناسًا أفضل. أنا ممتنّ لصداقة رجل لم يتخلّ أبدًا عن أمل تحقيق عالم عادل وأفضل.

سماح، يا صديقي،

ترحل عن عالم أكثر تأزّمًا منه عندما بدأت كفاحك من أجله منذ عدّة عقود. ولكنّك قمت بدورك وأنجزت مهمّتك. إنّ اسمك محفور في قلوبنا، ووجودك في حياتنا جعلنا، وما زال، أناسًا أفضل. ذكراك لن تغيب.

القاهرة

بيروت سماح إدريس: النضال المستمرّ والحوار المتجدِّد**

مالك أبي صعب*

تردّدتُ كثيرًا في كتابةِ كلماتٍ أودّع بها صديقًا نادرًا ورفيقًا غاليًا على قلبي كسماح إدريس. وذلك ليس إيقافًا لدموعٍ ستنهمر، بل لأنّني حين أستحضرُ سماح أعرف بِأننّا كنّا نعيشُ حالةً من الحوار المتجدّد والممتع حول الحياة والنّضال، حوار لا أريد له أن ينتهي بكلمات الأسف. لهذا، لن تكون كلماتي هذه بمثابة وداع، بل مواصلة لِما بدأناه من لقاءات فكريّة حميمة، تابعتُ فيها مشاريعَه النضاليَّة والسياسيّة والثقافية، والتي كانت فلسطين دائمًا فيها قُطبَ الرحى.

بيروت المقاومة

ولا يسعني هنا أن أحيط بما تمتَّعَ به سماحُنا الغالي من صفات نادرة ومزايا نضاليّة وإنسانيّة نبيلة، وطاقات فكريّة خصبة. بل يكفي القول إنّني مع غيابه، شعرت بأنَّ منارةً من منارات بيروت والعالم العربيّ قد هوت، بعد أن اقتفى نورَها الكثيرات والكثيرون. وَخَسارة بيروتُ بِسماح كبيرة، فمن جايل سماح وبيروت التي عرفها وأحبّها، «بيروت سماح إدريس،» يدرك أنّها كانت في نظره عنوانًا للنّضال الوطنيّ التحرريّ التقدميّ العلمانيّ، ضدّ الإمبرياليّة والصهيونيّة من جهة، والتآمر والرجعيّة العربيّة من جهة أخرى. بيروت سماح إدريس هذه، هي التي كانت تكتب على جدرانها «سحقًا سحقًا بالأقدام يا دعاة الاستسلام.» وهي التي كانت تزفُّ شهداءَها حين سقطوا دفاعًا عن عروبةِ لبنان والمقاومة الفلسطينيّة، ومن أجل نظام ديمقراطيّ وطنيّ. بيروت سماح إدريس هي التي أجبرت الغزاة الصهاينة على الخروج منها بلا شرط. وسماح لم يهدأ ولم يهادن العدوّ لا ثقافيًّا ولا نضاليًّا ولا حتّى لغويًّا، فشارك في محطّات عديدة، ليس آخرها انتصارَا الألفين والألفين وستّة.

بيروت الفكر والثقافة الحيّة

هكذا كنتُ أرى بيروت في عيون سماح، وكنت أقرأ عنها في مجلّة *الآداب* التي كان سماح قبطانها منذ سنة ١٩٩٢ حتّى وفاته. سماح الذي حمل إرثًا ثقافيًّا ونضاليًّا عريقًا، إرث أمّه وأبيه، نجح في رفع كلمة *الآداب* عاليًا في سماء الإبداع والثقافة المستقلّة والملتزمة. من خلال *الآداب*، قاوم سماح هيمنة اللّيبرالية الجديدة والإمبراطوريّات الإعلاميّة التي يغذّيها البترو ـ دولار. وإلى جانبِ بيروت الكتب، ودورِ النّشر الساطعة، تعرّفت من خلال سماح إلى بيروت المقاهي والمطاعم الشعبيّة التي كان شغِفًا بها، وبيروت الموسيقى التراثيّة والإبداعيّة الجديدة، لا «الهشتك فشتك» كما كان يسمّيها. وكان يحرص على إعادة بلورة مفهوم الالتزام ومعاني الصحافة الملتزمة بقضايا الناس في لبنان والبلدان الفقيرة، والتّذكير بالثوابت الإنسانيّة. وكنّا نقتفي معًا بحماسة الكتب والدراسات القريبة إلى نفسينا؛ فيَسعد عند حديثنا عن الثوّار والتّحرير والطبقات الكادحة في أيّ بقعة كانوا. كنا نتطرّق إلى ثورة ظفار أو ثوّار البوليساريو، ومناضلات ومناضلي السودان والجزائر والمغرب وتونس، وأشكال المقاومة في فلسطين. وما عليكم إلّا أن تتخيّلوا ملامح وجهه، عندما كنت أحدّثه عن برامج تعليم اللّغة العربيّة وآدابها في جامعة ماكغيل (مونتريال) حيث أعمل؛ ترتسم ضحكة الأطفال في عينيه وأنا أحدّثه كيف شكّلت أعمال غسّان كنفاني، وهو أحد أهمّ مُلهمي سماح الثوريّين، مادّة تعليميّة حيويّة في صفوفنا. كان يستمع باهتمام أيضًا إلى الانطباعات العميقة التي تركتها رواية كنفاني، **رجال في الشمس**، على التلاميذ والتلميذات، وعن الحيرة إزاء السؤال الذي كنت أكرّره: «لماذا لم يدقّ أبو قيس ومروان وأسعد على جدارن خزّان الماء؟» وكنّا نتطرّق إلى دور «أبو الخيزران» (أبو مازن حاليًّا).

بيروت سماح إدريس صادقة، عفويّة، مرتبطة بجذورها، لا زيف فيها. تقتفي رائحة الفلافل والفول المدمّس والقهوة، وتفرج لك عن مكنوناتها الثوريّة، برغم هجوم ثقافة السوليدير وأسعار العقارات والربح السريع وأبشع أنواع استغلال العاملات الأجنبيّات والعمّال المهجّرين والمهاجرين. بيروت سماح تعطيك انطباعًا بأنّ «الدنيا بعدْها بألف خير،» وتحيطك بالدّفء والأمل والقوّة، ولا سيّما عندما يجمعك سماح بالمناضل الكبير الراحل ماهر اليماني، وبرفاقه ورفيقاته دونا وعُبادة ومجدولين وعفيفة ورانية وجمال وعبد الملك وهشام ورائف وآخرين. ما إن تصل بيروت، حتّى يتّصل بك

---

* أستاذ التاريخ في جامعة ماكغيل في مونريال (كندا). من مؤلّفاته: **مناضلاتُ أمّةٍ هشّة** (بالإنكليزيّة، ٢٠١٠)، و**شيعة لبنان: الحداثة، الشيوعيّة، إسلاميّو حزب الله** (بالإنكليزيّة، بالاشتراك مع رلى الجردي، ٢٠١٥).

** نص كلمة ألقيت خلال حفل تكريميّ بعنوان **سماح إدريس يكرِّم رفاقه** بتاريخ ١٦ كانون الأول ٢٠٢١.

سماح ليعطيك «جردة» بالنّشاطات التي عليكَ تسديدها في طريق النّضال، كاجتماع لحملة مقاطعة داعمي «إسرائيل،» أو مظاهرة أمام البنك المركزيّ ضدّ إحدى شركات الأمن الإسرائيليّة التي كانت تعمل في بيروت وبشكل «شرعي!» هذه أمثلة على جذوة النضال المتّقدة أبدًا في قلب سماح ورفاقه ورفيقاته، وهذا ما كان يُبقي بيروت عصيّةً على الانكسار، أصيلةً لتاريخها الثوريّ ولشرائحها المهمّشة مهما هبّت عليها العواصف العاتية والهواء الأصفر.

بيروت الحوار المتجدّد

تعدّدت حواراتنا، الفكريّة ـ السياسيّة والنّضاليّة تحديدًا. وكنّا نشعر بأنّها تحتاج إلى متابعة وتطوير سوف نقوم به يومًا ما. ونظرًا لضيق الوقت، سأمرُّ على موضوعين أو ثلاثة بِحُكم أهمّيتها وراهنيّتها. بالطّبع كانت طبيعة مقاطعة «إسرائيل» وأشكالها في الطليعة، حيث كان لسماح ورفيقاته ورفاقه في حملة المقاطعة، دورٌ مركزيٌّ في كلّ أعمال المقاطعة وأنشطتها، مع إبقاء العين ساهرةً على محاولات التداول التجاريّ والثقافيّ والفنّيّ والرياضيّ مع العدوّ. وقد وُسمت أنشطة المقاطعة هذه بالفعاليّة والاستمراريّة، مقارنةً بسابقاتها من هيئات ولجانٍ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، «هيئة مقاومة الغزو الثقافيّ،» والتي اتّسمت بالضبابيّة ولم تهتمّ بأنواع الغزو الأخرى، ومع الوقت لم نعد نسمع بها. المقاطعة الحاليّة التي كان سماح أحد رؤوس حربتها وقلبها النّابض، صبّت جهودًا متنوّعةً وفاعلةً قانونيًّا واجتماعيًّا ضدّ الكيان الاستعماريّ الاقتلاعيّ، برغم انحسار الإمكانيّات الماديّة. أمّا الأصوات المُعترضة التي ظنّت بأنّ نشاط المقاطعة لا يزعج «إسرائيل،» وفي الوقت ذاته يتناسب مع أصول الناشطات والناشطين البورجوازيّة، أجيب بأنّ دور سماح القياديّ النّضاليّ طويل ومتجذّر؛ فقد كان سماح عضوًا في النّواة التي أسّست جبهة المقاومة الوطنيّة (جمّول) في بيروت، كما هو مُثبتٌ في أرشيف أحد الأحزاب اليساريّة العريقة. سماح كان في طليعة المقاومين الذين هبّوا لطرد الغزاة من بيروت سنة ١٩٨٢، وانخرط في أعمال المقاومة على كلّ الأصعدة، من كفاح مسلّح إلى كفاح ثقافيّ وأدبيّ وإعلاميّ، وكرئيس تحرير مجلّة *الآداب*.

أمّا الحوار الآخر الذي كنّا قد بدأناه، فيتعلّق بمسائل العروبة والدولة الحديثة وركائز الوحدة العربيّة اليوم وأُطرها. فأنا كمؤرّخ، أعتقد أنّ الدولة الحديثة، والتي هي نفسها الدولة القُطريّة التي نشأت بعد انهيار السلطنة العثمانيّة، قد وصلت إلى نهاياتها التاريخيّة. لذلك، هي تعاني في هذه المرحلة التفكّكَ والانحدارَ، إذ يتنازعُ المشهدَ اتّجاهان أساسيّان: الأوّل هو اتّجاهٌ يسعى إلى بناء دولة على أساس طائفيّ أو عرقيّ أو مذهبيّ، ممّا يتلاقى مع مصالح «إسرائيل» وطبيعتها العنصريّة. أمّا الاتّجاه الثاني، فهو حفاظ الدول المهيمنة

بيروت سماح إدريس صادقة، عفويّة، مرتبطة بجذورها، لا زيف فيها

الحاليّة على الكيانات التي تمخّض عنها سايكس ـ بيكو. والاتّجاهان لا يَعِدان بإنجاز مهمّات مرحلة التحرّر الوطنيّ؛ فالاتّجاه الأوّل رجعيّ بطبيعته، والثاني محافظ. لذلك، أقصى ما يمكن إنجازه، هو إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل اندلاع الانتفاضات وما سُمّيَ «الرّبيع العربي.» وكنّا نحاول أن نستشرف موقع اليسار ودوره من هذه التحوّلات؛ فالرفيق سماح بحسّه العمليّ النّضاليّ المتوثّب، طرح المشكلة من زاوية أخرى، فسأل: «من أين نبدأ؟» إنْ كنّا متّفقَيْن على أنّ للعرب دورًا أساسيًّا في أيّ عمليّة تغيير تشمل دول المنطقة. ومن ثمّ كان يسأل: «كيف يستفيق العرب من سباتهم؟» إذا كنّا متّفقَين أيضًا، بأملٍ كبير، على أنّ فلسطين ستبقى القضيّة المركزيّة التي تحول دون الاستمرار في الحروب الجانبيّة المدمّرة.

استكمال المسيرة

وأُكمل حديثنا، بيني وبين نفسي، لأقول إنّ أيّ مشروع يساريّ لا يواجه هذه التحوّلات، أو يعتبر الوطن الذي يعيش داخل حدوده وطنًا نهائيًّا، هو مشروع محكوم بالفشل. إذًا، لِنحلم كما قال لينين، ولنحوّل هذا الحلم حقيقةً، على ضوء الظروف والمعطيات الجديدة. ماذا يعني اليوم اصطفافُ ثلث العرب تقريبًا مع «إسرائيل،» والثلث الثاني مع تركيا، والثلث الثالث مع إيران؟ أين العرب الآخرون من هذا الواقع؟ ألسنا بحاجة إلى قيام مشروع أو كيان يجمع مصالح الشعوب العربيّة والإيرانيّة والتركيّة التقدميّة وتطلّعاتها؟ قد يكون العرب هم الأكثريّة في هذا الكيان، ديموغرافيًا وثقافيًا واقتصاديًّا. أعرف يا سماح أنّك لن تقول إنّ هذا المشروع ضربٌ من الخيال، لأنّك تعرف بأنّ هناك مشاريع قد تتخطّى الحدود القوميّة لتحافظ على إرثنا القوميّ ذاته، ولكن داخل أطر أخرى.

والسؤال الأخير الذي أثرناه معًا، كان: «ما السّبيل إلى تحقيق مشروع ينهض بمقاومة علمانيّة تحرريّة حقيقيّة؟» أو كيف ينهض المارد الفلسطينيّ فينهض معه الشعب العربيّ؟ وهنا اتّفقنا أيضًا على أنّ بناء مسار ثوريّ فلسطينيّ بديل عن مدريد وأوسلو، هو بداية رحلة الألف ميل هذه. في آخر حديث مع سماح أوصاني بمسألتين: أن أتابع الكتابة في مجلّة *الآداب*، وأن أساعد المسار الثوريّ. وأنا يا رفيقي النّقيّ الصلب سماح، أعاهدك بذلك، وبأن نحفظ ما بَنَتهُ يداك طوال حياتك الغنيّة بالعطاءات. ألف سلام وتحيّة لروحِكَ.

مونتريال

تركنا ونحن بأمسّ الحاجة إليه

منير شفيق*

الكتابةُ عن سماح إدريس، بعد فقدانه المفاجئ والمفجع، مسؤوليّة كبيرة؛ فهي فعل وفاء، وضرورة لإبقائه قدوةً حيّةً أمام الجيل الحالي والتّالي. تتمثَّلُ هذه المسؤوليّةُ في تقديمه بصورة موضوعيّة قدر الإمكان، كي لا يأتي التقديم منحازًا بالحبِّ له، وبالحزنِ على رحيله. أمّا الوفاء، فهو من شيم الصداقة والحبّ والتقدير. وهي شيم كان سماح حريصًا عليها مع فقده مَن أحبَّ، أو احترمَ، أو صادقَ. وأمّا الاقتداء، فهو في ضرورة متابعة ما أنتجه سماح كمثقّف مشتبك، في مجالات الفكر والأدب والسيّاسة والإبداع.

السِّمةُ الأولى هي نجاته من شَرَكِ سقوط المناضلين في المساومة والتراجع عن المبادئ، بعد تقدّمهم بالعمر؛ فالزمن الشبابيّ للمناضل الثوريّ يتّسم بالنقاء والشّجاعة والعطاء والتفاني في مكافحة المظالم وبهدف تغيير العالم. لكن، مع التقدّم بالعمر، تبرد هذه الحماسة بسبب طول الرحلة وتعبها، وما تخلّلها من نكساتٍ واهتزاز قناعاتٍ وتوجّه نحو الذات، والاهتمام بالأسرة والأولاد والمستقبل.

كان سماح من القلّة النادرة التي اجتازت امتحان الأربعينيّات والخمسينيّات، مواصلًا الرماية في الاتّجاه الصحيح. وقد اشتدّ ساعده فيها، فلا تعبٌ أخذ منه، ولا نكساتٌ أفقدته البصر والبصيرة، ولا مغريات آتية من بلاد النفط أو الغرب جذبته، ولا طول الطريق هدّ عزيمته.

بكلمةٍ، بقي سماح شابًّا مبدئيًّا، متقشّفًا متأجّجًا بالحيويّة، معطاءً بلا حدود، ومستعدًّا للتضحية كثوريّ في التاسعة عشرة من عمره، فيما هو يطوي الأربعينيّات والخمسينيّات. هذا ممّا يجعله قدوة.

السِّمة الثانية هي حفاظه على مبدئيّته بالنسبة إلى العروبة والوحدة العربيّة وتحرير الأمّة ونهضتها. الأمر الذي كان يحتاج إلى التمسُّك بالثوابت التي نشأ عليها في كنف والدَيه، وبتأثيرٍ من تراث مجلّة *الآداب*، وجيل الرئيس جمال عبد النّاصر. وذلك في مواجهة الانحرافات القُطريّة، والانجراف مع سيول التخاذُل والعولمة والتطبيع والتخلّي عن القضيّة الفلسطينيّة.

رفض سماح أنْ يستخدم الموقف من الاستبداد للاستنجاد بأميركا. ورفض أنْ يكون التمسّك بحقوق الإنسان والحرّيّات الشخصيّة، مقابلَ التخلّي عن رفض الهيمنة، أو الذهاب إلى التطبيع والترويج له. وحرِص على تحديد الموقف الصحيح لكلّ حالة، والتركيز على الأولويّات. وعندما اشتدّ خطر الهرولة نحو التطبيع، وقف بشدّة ضدّ المدافعين عن التطبيع، واعتبرهم الخطر الفكريّ والسياسيّ الداهم. شكّل سماح بممارسته الكفاحيّة وتحريضه وكتاباته، مدرسةً ونهجًا لتصويب النشاطات الشبابيّة المناهضة للتطبيع وتحصينها من الانحراف، أو الانخداع عبر تسلّل سموم الليبراليّة بأشكالها المتعدّدة الى تلك النشاطات أو الرؤية الداعمة لها.

أمّا **السِمة الثالثة** فهي استكمال رسالة والده سهيل إدريس، من خلال إصدار «معجم عربيّ» يجمع بين الأصالة والتجديد. وهي مهمّة ينوء بحملها مركزُ أبحاثٍ بأكمله. وعمل في الوقت نفسه، على تشّجيع الناشئة العرب على تلقيّها واستيعابها بما يُشوّقهم إليها، ويُسهِّلها عليهم. فراح يُقدّم في مقالاته في *الآداب*، ما يمكن اعتباره من السهل العربيّ المُمتنع. كما قدّم عبر رواياته للصّغار، نماذجَ من لغةٍ عربيّةٍ أصيلةٍ مجدّدة ومعاصرةٍ، ومُستوعِبةٍ مفرداتٍ جديدةً. وهي مهمّة تتوجّب مناقشتها ومواصلتها، والبناء عليها، الأمر الذي يقدّم لسماح استكمالًا لهدفٍ سعى إليه، وغادرنا قبل أن يكمله. وأحسبه كان يطمح لإخضاعه للحوار والنقد والتطوير؛ لأنّ التعاطي مع اللغة وتجديدها، وتقريبها من الأجيال الصاعدة في ظروف الهيمنة العالميّة للإنكليزيّة، مصحوبةً بالهيمنة العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والإعلاميّة والتكنولوجيّة، ليس بالأمر السهل. وليس بالمعركة الواحدة، خصوصًا وأنّ النظام العربيّ أصبح مُعوّقًا مع ما حلّ به من انهيارٍ سيّاسي. وتمثّلت **السِّمة الرابعة** في تطويره مجلّة *الآداب* أثناء تولّيه رئاسة تحريرها. وقد حَوَت في عهده كما في عهد والدَيه، تراثًا أدبيًّا وقَصصيًّا وشعريًّا ونقديًّا ونظريًّا، شاركت فيه أجيال من حملة القلم، أدباءَ وشعراء. وقد ناءت المجلّة الجميلة في حلّتها الورقية ومتعة تقليب صفحاتها، تحت أعباء ماليّة، دفعت بسماح إلى أن يُحوّلها مجلّة رقميّة، من دون أن يؤدّي ذلك إلى انحرافٍ عن الخطّ التحريريّ الثابت، أو إلى المساومة على قيمتها الأدبيّة. فاحتضنت العديد من الأقلام الواعدة، والتي لا بدّ من أنْ يبرز بعضها في المستقبل، كشهادة حيّة على مساهمة سماح في الثقافة العربيّة.

كان سماح صديقًا، اتّفقت معه في العديد من الأمور، وأجّلنا النقاش في قضايا خلافيّة لربّما لطغيان ودّ وصداقة بيننا، أو اكتفاءً بما توافقنا عليه. وفي كلّ الأحوال، يا لهول خسارتنا بفقدانه مبكّرًا.

بيروت

* مفكّر عربيّ وإسلامي، ومناضل فلسطينيّ. ألّف عدّة كتب عن الثورة الفلسطينيّة، والوحدة العربيّة، والفكر الإسلاميّ، والماركسية اللينينية ، وقضايا التنمية والاستقلال، والنظام الدوليّ الجديد.

قصَّتي مع سماح إدريس

جوزيف مسعد*

قابلتُ سماح إدريس صُدفةً في السنة الأولى من دراستي لتحصيل الدكتوراه في العلوم السياسيّة، أي منذ ثلاثة عقود، في جامعة كولمبيا في نيويورك. وكان سماح قد تخرّج قبل وصولي بأشهر، وحصل على درجة الدكتوراه من قسم الدراسات الشرق أوسطيّة في الجامعة، إلّا أنّه كان يزور الجامعة بعد تخرّجه بصحبة زملاء لي، قاموا بتعريف أحدنا إلى الآخر. كان لقاؤنا عابرًا، عند بوّابة الجامعة الخلفيّة المطلّة على شارع أمستردام. لكنّي ما زلتُ أذكر تلك الابتسامة الدافئة التي ارتسمت على مُحيّاه عندما تصافحنا. تبادلنا حديثًا سريعًا، ومضى كلٌّ منّا في طريقه، من غير أن يخطر ببال أيّ منّا أنّ صداقةً ستربطنا بعدها بسنوات.

لم نتقابل بعدئذٍ ربّما لعشر سنوات، تخرّجتُ أثناءها وبدأت العمل أستاذًا مساعدًا في جامعة كولمبيا، في قسم الدراسات الشرق أوسطيّة الذي تخرّج فيه سماح. كنت أعرف أخباره من ضمن متابعتي للمشهد الثقافيّ والسياسيّ اللبنانيّ، ولمجلّة *الآداب*، وعن طريق أصدقاء مشتركين. كان لقاؤنا التالي، على ما أذكر، في بيروت. وكان سماح قد طلب منّي قبل ذلك، دراسةً أو مقالةً لنشرها في *الآداب*؛ فأرسلت إليه دراستي «عن الصهيونيّة ونزعة التفوّق العرقي اليهوديّ»[1] فنشرها. أسعدني هذا النشر، وفتح باب التعاون، فطلب منّي سماح نشر دراسة ثانية في العدد التالي.

معارك وهموم مشتركة

كُثر الاتّصال بيني وبين سماح على إثر وفاة إدوارد سعيد في أيلول ٢٠٠٣. وكان إدوارد أستاذي وزميلي في العمل، وصديقًا مقرّبًا وأبًا روحيًّا، كما كان أستاذ سماح من قبْل وصديقه. كتب لي سماح معزيًّا بإدوارد، وطلب منّي مساهمةً في عدد خاصّ عن سعيد، نُشرت أثناء زيارتي لبيروت في كانون الأوّل ٢٠٠٣، حيث التقيْتُ بسماح وجهًا لوجه، بعد أكثر من عقد من الزمن. دعاني سماح إلى بيته للعشاء، وعرّفني إلى زوجته وابنتيه. وما زلت أذكر تناغم نقاشاتنا السياسيّة. وكم كنتُ سعيدًا عندما شاءت الصدف أن تلتحق ابنته ناي بجامعة كولمبيا، وتصبح تلميذتي سنة ٢٠١٨. وكان سماح يرسل لي رسائل بين الحين والآخر عن انطباعات ناي (الإيجابية بالطبع!) عن محاضراتي، معبّرًا عن سعادته وفخره بابنته.

وتقاطعت معاركنا بُعيد وفاة إدوارد سعيد وسيادة جوّ من الإرهاب الفكريّ في جامعات الولايات المتّحدة، على إثر هجمات ١١ أيلول؛ فتعرّضتُ إلى حملة ضارية من قوى يمينيّة وصهيونيّة من خارج الجامعة بدأت في صيف ٢٠٠٢، واستمرّت لأكثر من سبع سنوات، كادت أن تقضي على مستقبلي الأكاديميّ، لكنّها باءت بالفشل. كان سماح نِعم الصديق والحليف في تلك الفترة العصيبة. وخاض هو أيضا معركةً قضائيّةً في لبنان سنة ٢٠٠٧، بعد أن أقام عليه فخري كريم دعوى سبّ وقدح نتيجة موقف سماح ضدّ احتلال العراق. وكان المدّ اليمينيّ والصهيونيّ قد طغى أيضًا على العالم العربيّ وعلى لبنان كما فعل قبلها في نيويورك.

على الرغم من تحالفنا وصداقتنا عن بعد، كانت الصلة بيني وبينه وطيدةً نتيجة هذه الحملات الجائرة التي تعرّضنا لها. ناهيك عن أثر فقداننا الأحبّة: إدوارد سعيد سنة ٢٠٠٣؛ وأبي سنة ٢٠٠٥، وأبيه سنة ٢٠٠٨. لقد تشاركنا الحزن على فقدان الآباء، روحيّين كانوا أم بيولوجيّين، أم الإثنين معًا.

مشاريع فكريّة وكتابيّة

سعدت جدًا عندما ترجمت دار الآداب كتابي «ديمومة المسألة الفلسطينيّة.» كان أوّل كتاب لي ينشر بالعربيّة. وكان سماح قد نشر لي دراسة في السنة ذاتها، بعنوان «كيف يجب ألّا ندرس النوع الاجتماعيّ (الجندر) في العالم العربي»[2]، نالت نصيبها من عداء الليبراليين الذين هاجمتْهم المقالة. وكان يهديني كتبه من قصص الأطفال التي كنت أهديها بدوري لأبناء أخواتي.

لم ينحصر انشغال سماح في كتابة قصص هادفة للأطفال، بل أيضًا في العمل على مشروع المعجم العربيّ الذي لم يكتمل. أذكر أنّني سألته عبر السنوات أين وصل في المعجم؟ مرّةً قال لي في مكتبه:

---

* أستاذ السياسة وتاريخ الفكر العربيّ الحديث في جامعة كولومبيا في نيويورك. يَنشر مقالاتٍ صحفيّةً في جريدة الأخبار، ومجلّة *الآداب*، وموقع **عربي ٢١**. مِن كُتبه (صدرتْ بالإنكليزيّة وتُرجمتْ إلى العربيّة): **ديمومةُ المسألة الفلسطينيّة، اشتهاءُ العرب، الإسلامُ في الليبراليّة، آثارٌ استعماريّة ـ تشكّلُ الهويّة الوطنيّة في الأردن.**

(١) نُشرت في *الآداب*، العدد ٥ ـ ٦ في أيار/حزيران من سنة ٢٠٠٢.

(٢) مجلة *الآداب*، https://al-adab.com/sites/default/files/aladab_2009_v57_07-08_0020_0026.pdf

«حرف العين.» قرّرتُ بعدها ألّا أثقل عليه بالسؤال إلى حين فراغه من المشروع الذي كنت، وما زلت، أنتظره بفارغ الصبر.

تحدّيات السنوات الأخيرة

توطّدت علاقتنا التضامنيّة أثناء الانتفاضات العربيّة، ولا سيّما بعد الانقضاض الغربيّ على ليبيا. كنت في بداية الانتفاضات في نيويورك، أتابع ما يحصل في تونس ومصر والبحرين وليبيا وسوريا والأردن والسعودية واليمن والمغرب ليلَ نهارَ. وحين كنتُ في طريقي إلى مسقط لإلقاء محاضرة عن غسان كنفاني في شباط ٢٠١١، علمت بسقوط حكم حسني مبارك! فشربتُ نخب الثورة على الطائرة مع مضيفين مصريّين احتفالًا بسقوط الطغيان.

أمّا وقد تحوّلت الانتفاضة في ليبيا إلى انتفاضة أنظمة الخليج، وبدأ القصف الغربيّ على ليبيا، باتت المؤشّرات واضحة لما يتمُّ تخطيطه لمستقبل البلاد، بحسب التآمر الإمبرياليّ ـ الخليجيّ. تعاونت مع سماح وأسعد أبو خليل على كتابة بيان يدعم الثورة، ويندّد بالتدخل الغربيّ في ليبيا، ونشرناه في جريدة السفير في ٢٨ آذار ٢٠١١. وقد رفض العديد من المثقّفين العرب والليبيين المتأثّرين بالدعاية الغربيّة توقيعه.

بعد ذلك، جمعني مشروع آخر بسماح. إذ دعاني في ٦ كانون الأوّل ٢٠٢٠ إلى حوار مصوَّر على شبكة الإنترنت، رعته مجلّة *الآداب* وحملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان، كي أتحدّث عن «إسرائيل» كعدوّ أيديولوجي، حاورتني فيه الزميلة رانية المصري، ثمّ نُشر في *الآداب*[1]. تبادلت أطراف الحديث مع سماح في بداية اللقاء وقبل التسجيل عبر الشاشة. كانت هذه آخر مرّة أراه فيها.

في السنة الأخيرة، كنت أتواصل معه عبر الواتساب، ونتبادل آخر مقالات كتبناها. وفي ١٧ تشرين الثاني ٢٠٢١، أرسل لي مقالة نُشرت في جريدة الأخبار، تصدّرتها مقدّمة عن مرض يعانيه منذ أسابيع. لم أكن قد سمعت الخبر قبل ذلك، ولا سيّما أنّي لا أملك حسابًا على فيسبوك، حيث يتمّ تداول الكثير من الأخبار الشخصيّة. سارعتُ في السؤال عنه، وأرسلتُ تمنّياتي له بالشفاء العاجل عبر واتساب. قرأ سماح رسائلي، لكنّه لم يردّ، وتوقّف عن فتح تطبيق الواتساب في ٢١ تشرين الثاني. لقد استعجله الموت بعد ذلك بأربعة أيّام. قبل رحيله، وخلال جميع المحطّات التي اختبرناها معًا، كان التزام سماح بالقضيّة الفلسطينيّة والقضايا القوميّة بوصلته الدائمة. وبرحيله، خسرت فلسطين ولبنان والوطن العربيّ، محاربًا ملتزمًا ومدافعًا شرسًا عن قضايانا.

نيويورك

(١) مجلة *الآداب*، https://tinyurl.com/yvcsxf9d

على دين فلسطين ومذهب العروبة

أحمد بهاء الدين شعبان*

الكتابة عن سماح إدريس بعد رحيله كالسّير على الجمر أو القبض على شفرة سكّين. فقد خسرتُ، في فترةٍ وجيزةٍ، أبي؛ وأخًا حبيبًا ولدته أمّي؛ وأخي الذي لم تلده: الرفيق الأعزّ سماح. وبرغم حتميّة الموت، يكاد ألم الفراق أن يُعجِز اليد عن الكتابة من عمق الفجيعة؛ فقد تسلّل شقيقي وسماح من بين أصابعنا بغتة، من دون أن نشعر أو نتوقّع. رحلا بنبلٍ وكبرياءٍ يليقان بالأحباء المخلصين، وكأنّهما شاءا ألّا يزعجانا بآلامهما، فلم يمنحانا حتّى الفرصة، لكي نقول لهما وداعًا بعد أن كانت ابتسامتهما تملآن الكون بهجة، وتُشعّان نورًا ومَوَدَّة.

على مداخل معابد المصريّين القدماء، كان الأجداد يكتبون: «ذكرى الرجل الطيّب تبقى إلى الأبد.» وسماح كان هذا الرجل الطيّب: طيّب السجايا؛ عفيف اليد واللسان؛ واضح المقصد والسبيل؛ لم تزرع يداه سوى الخير والعطاء. وكان، بهدوئه وابتسامته الودودة، يبني جسورًا للتواصل مع الآخرين من مختلف المِلل والأعمار، ومن دون جهدٍ أو افتعال. وكان في كلّ خطواته كارهًا لضيق الأفق والتعصُّب، ومفارقًا للتحيُّز والعنصريّة، وداعيةً إلى المحبّة والسماحة، بالمعنى الإنسانيّ الأرحب، ومنحازًا إلى كلّ ما في الحياة من أمل.

جمعني برفيقي سماح حلم واحد بسيط: أن يعيش إنسان أرضنا، المغلوب على أمره، عيشة إنسانيّة راضية. وكم كره، وكرهتُ، جبروت القوّة وغرور السطوة وعدوانيّة التسلُّط، أي كلّ ما يجسّده الظلم التاريخي الذي حاق بأشقّائنا الفلسطينيّين، حين طُردوا من أرضهم، وحلّ محلَّهم مغتصب مغرور بقوّته، ومحميّ بدروعه ودروع من تآمروا وداسوا على الحقّ والقانون والتاريخ والمبادئ، من الأقربين والأبعدين.

وقد منح سماح فلسطين الأرض والقضيّة، والبشر والذاكرة، وعن اقتناع، نصيبًا وافرًا من وقته وصحّته، وجهده وقدراته. فجمعَنا العمل المُشترك من أجل مُساندة القضية الفلسطينية، وتعزيز سُبل مقاطعة مؤسّسات العدوّ الصهيونيّ وشركاته ومراكزه ومرتكزاته: سلعًا وأفكارًا. وقد أبلى سماح بلاءً حسنًا في هذا السياق، مُعَرِّضًا نفسه ومصالحه للأذى والخطر. وأشهد أنّه مع فريق من الصادقين المتطوّعين الأكفاء، العاملين من خلال «حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان» وعلى مدى عقدين كاملين شكّلوا نموذجًا يُحتذى في المبدئيّة والمثابرة، والعطاء والإخلاص، والعمل العلميّ المُنظَّم، والذي استطاع أن يُشكّل خطرًا لا يُستهان به على العدوّ، ومشاريعه في الداخل والخارج.

وفي الحوارات التي دارت بيننا على امتداد نحو ربع قرن، كان الهمّ الفلسطيني مُرادفًا لديه للهمّ اللبنانيّ والمصريّ والسوريّ والعراقيّ واليمنيّ. كذلك كانت «العروبة» لديه، ضرورةَ وجود وكينونة ومصير وحياة. لكنّه آمن بعروبة غير تلك التي صُدِّرت إلينا مُكبّلةً بالطائفيّة والعنصريّة والتعصُّب المقيت، والقمع والاستبداد السياسيّ والدينيّ!

عروبة سماح عروبةٌ عقلانيّة وسمحة، علمانيّة ومنفتحة. تكره العنف العدوانيّ لكنّها لا تقبل الاستحذاء، ولا تتردّد في الدفاع عن حقوقها. تدعو للسلام، لكنّها لا تخضع للابتزاز أو لإملاءات خارجيّة أو داخليّة. هي عروبة تُبنى بالوعي والمعرفة والاقتناع، وبالمصالح المشتركة وبالتّخطيط والعلم والموضوعيّة، وباحترام تعدُّديّةِ أطرافها الثقافيّة والعقائديّة. وهي عروبة يجمعها حلم الخروج من مستنقع الجهل، والتخلّف، والطائفيّة، والفساد، والقهر السياسيّ والفكريّ، والتطرُّف الدينيّ والاثنيّ، والاحتراب الأهليّ المجّانيّ، بكافّة صُوَره وذرائعه وألوانه.

وعلى الرغم من أنّه راح ينظر بأسى في السنوات الأخيرة، إلى ما يُحيط بنا من «أمور وحقائق تبعث فعلًا على اليأس والإحباط والقرف والاغتراب، وتجعلنا جميعًا، شبابًا وكهولًا، نُفكّر بالهجرة أو 'الأصوليّة' أو الاستسلام،» إلّا أنّه راهن على الأجيال الجديدة من أبنائنا وأحفادنا. وراح يواجهنا جميعًا بغضب: «هل تساءلنا يومًا ماذا قدّمنا نحن، الأهل والكُتّاب، لأولادنا وأطفالنا كي لا يصلوا إلى ما وصلنا إليه نحن اليوم؟» ولعلّه كان الأسعد من بيننا، حين شهد انتفاضة حيّ الشيخ جرّاح، في القدس المحتلّة في مايو/ آيار ٢٠٢١، عندما هبّ الشباب العربيّ داخل ال ٤٨ في وجه المحتلّ، رافعًا راية النّضال الفلسطينيّ. وكان العدوّ الصهيونيّ قد تصوّر أنّه زرع في نفوسهم أفكارهُ العنصرية حتى يتبرّؤوا من انتمائهم لقضيّتهم. ففاجؤوه وفاجؤونا، من حيث لا نحتسب، ولا نتوقّع.

وها هو يرحل دون أن نحتسب أو نتوقّع. لعلّ عزاءنا الوحيد أنّه رحل «على دين فلسطين» كما عنونَ نعيٌ له، وعلى مذهب العروبة، كما نحن متأكّدون.

مصر

* الأمين العام للحزب الاشتراكي المصري.

نصري الصايغ*

سماح... ألا تيأس ولو قليلًا؟!

لم أقتنع بالتضامن مع سماح إدريس، هو يستحقّ العقوبة[1].
حضرت لتهنئته! لم يكن موقفي مواربًا، أو نضاليًّا بطريقةٍ ملتوية. حضرت لأقول له «مبروك.» لقد أصدروا حكمًا بحقّك لأنّك تجرَّأت على الذات «الإلهيّة الفساد.» لأنّك تجرَّأت على الغلط. ولأنَّك ارتكبت البراءة والنظافة والتطلُّع إلى الأفق. ثمّ لأنَّك سماح الذي لا يسامح أبدًا الخياناتِ الصغيرة والسقوط في وسخ المال.
حضرتُ حفل التضامن مع سماح متثاقلًا، كجنديّ في خندق مهجور. بعضنا أطلق كلامًا ناريًّا. كلامًا قاسيًا. غريب! لم يسقط أحد في الجبهة المقابلة، لأنَّ الجبهة مقفلة وموصودة ومحروسة بفرسان الأمن والنفط و الانتهاز والتجارة بالقضايا. إنَّما، ولإصراري على أنّي جنديّ متمرّس في تأدية واجبي كاملًا، في القضايا الخاسرة والنبيلة، وجدتُ من المفيد أن يكون التضامن إدانةً، إدانة لي ولغيري.
لا أمزح.
أعرف سماح لا يخشى عمل البشاعة. سماح يشبه سماح. لم أعرف مثيلًا له. وإن وُجد، فقلّة قليلة. تساءلت: هل أستحقّ رتبة جنديّ عاديّ جدًّا في معسكر الندرة الأصيلة؟ هل قلمي سلاح كافٍ، أم مطية لنزوات النظافة العابرة، والتلوُّث عامّ وشامل وناجح ومسيطر؟ ثمّ تساءلت: هل غيري تعرّض لاتّهام يستحقّه بسبب جرأته وجبهته العالية ويديه الصافعتين؟ من منّا دخل السجن وتخرَّج منه نظيفًا، متّهمًا بأنَّه مدسوس في حربه الملتوية ضدّ الفساد؟
أنا لست من هذا القبيل في شيء.
سماح من هذا القبيل؛ كلّ طعنة عنده تاج شهادة ناصعة.
أخفي حسدًا لذيذًا. أتمتّع بعذاب النقصان؛ إنَّني راغب ملحاح في أن أتجرّأ كسماح، أي أسمّي الأشياء بأسمائها. أن أقول للحرامي «حرامي» بصوت مجلجل. أن أمسك بيدي سارقًا متخمًا بالأخلاق المنافقة. أن أُشهر، لو بالحروف الأولى، مافياتِ الفكر والثقافة والمال، والناس، والحياة... أن اشتمَ انتهازيًّا وبائع نفوذ وقوّاد سياسة. أن أدوس على عنق آلاف من مروِّضي البشر، وفق تقليد **النمور في اليوم العاشر** لزكريا تامر.
ولكنَّني لست سماح، ولهذا أخفي حسدًا ممّا لديه من «فجور» مُحِقّ: يقف وسط الساحة، بقامته الراعنة، وصوته غير الزاجل، ليقول الأشياء الصعبة. ببساطة وقفةٌ، كأنَّه جنرال، ينازل الجميع، وهو أعزل من الألقاب والنياشين والأتباع. ومن حوله، على صورته، عراة، عراة أقوياء. يشبهون رقص المرايا في احتفالات الأفراح القادمة... ولا بدَّ أنَّها قادمة.
لست مثله، له نبض عالي النبرة... أنا مستغرق في وسائلي متَّكئًا على عقل تنقصه جرأة قول ما يعرفه. أودّ الانزلاق إلى الجسارة وأفشل، لا أحتمل مسؤوليّة جنوني العاديّ؛ فكيف أصمد والعاصفة تصنع المُدانين بالنقاء، لغةً وثقافةً وانتماءً؟! لذا، أنا لست مثله. ثورتي تعيش في داخلي، قد يرضيني ذلك مؤقّتًا، ثم أوبِّخ نفسي. إنَّه جحيمي الخاص ولا أفصح عنه إلّا نادرًا، أعرف الكثيرين من السفلة، من المحيط إلى الخليج، من «نعيم النفط» إلى جحيم الارتهان... أعرف الكثيرين، ولا أجرؤ على تسميتهم، وأسأل نفسي كيف أصافحهم؟ لا أعرف.
أقول لا، بالسرّ، أتساهل بالـ«نعم،» إلّا إذا بلغ السيل الخيانة. ولَكَمْ من الخيانات بلغنا تباعًا؟ عصرنا العربيّ عصر خيانات مغلقة، شعوب مغبونة، ترقص طربًا لارتكاب، تسمِّيه واقعيَّة الهامش العربيّ. عصرنا العربيّ كان مكان إقامة الذين اعتصموا بلا... وماتوا نَهرًا. المال نابغة، له قدرة تحويل الخيانة إلى جائزة... نحن مِن الذين يموتون قهرًا، نكسة بعد ثورة بعد تسلُّط بعد ارتهان: إحساس بانعدام وجودنا.
منذ نعومة علاقتي بالسياسة، وأنا متربِّص بالأعداء، هنا وهناك وهنالك. حفظتهم عن ظهر قلب، أخاف عليَّ منهم إن تهجّأت أسماءهم. والأسوأ، أنَّنا لا نعرف حجم هذه الفوضى التي يرتع فيها الخونة... ذات حرب لبنانيّة متمادية (من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠) وقعتُ في فوضى الاتِّجاهات: من معنا؟ من ضدّنا؟ من معنا وضدّنا معًا؟ من هم الذين معنا؟ لماذا كلّهم يرتكبون الفظائع والنهب والثروة و... الثورة. هل

---

* كاتب وصحافيّ عربيّ من لبنان. من مؤلّفاته: **بولينغ في بغداد؛ لو كنتُ يهوديًّا؛ حوار الحُفاة والعقارب: دفاعًا عن المقاومة؛ لستُ لبنانيًّا بعد؛ القاتلُ إنْ حكى: سيرةُ الاغتيالات الجماعيّة؛ مقامُ الجنس وتصوّفُ الحواسّ؛ مَصارعُ الاستبداد؛ محمّد: السيرة الذاتيّة، اريد حذاء لروحي، الخراب، يوميات شاعر في بيروت. خلص، ما عاد في شي، دفاعًاعن الخطأ والخطيئة.**

(١) في إشارة الى دعوى قدح وذمّ أقامها فخري كريم سنة ٢٠٠٧ ضدّ سماح على أثر شجب سماح دعم كريم لاحتلال العراق.

كانت تلك بنادق أم عصابات «عقائديَّة» و«دينيَّة،» اجترعت انتصار الخوات والتربّع على نفوذ، بكلفة قتل وخطف وسَحل؟

يومذاك، كان الناس، هنا وهناك، في ذمّة الخوف. راجعوا ذاكرتكم أيقظوها، إنَّها تحتفظ بكلّ المجازر والمحارق والتهجير. والقتلة، تمّ تطويبهم أمراء الحكم والحكومات والتحكُّم.

يومذاك، ثمّ بعده، اختلط عليَّ العدوّ والصديق، تساءلت مرارًا، لماذا يتشابهون في «الميدان؟» أعرف ذلك، وتعرفون أكثر.

يطيب لي، وأنا أتابع سماح إدريس، أن أجد له شبيهًا. عرفته مبادرًا وسريعًا وصديق الشارع والتظاهر والبيانات. يتَّصل بي: «ألو... نحن بصدد إصدار بيان والدعوة إلى تظاهرة.» كنت أسارع إلى التنفيذ... غريب هذا الرجل، يسبق الجميع إلى المبادرة، يجاهر بذكر المتخلّين عن فلسطين، ولا يرحم أحدًا.

يا اللَّه، من أين تأتيه عافية الأمل وقوّته بلا كلل؟ يدأب على الكتابة بالسكّين، حنجرته ليست صوتًا، بل هي سوط يُشهره بسهولة وفجاجة في وجه من يتساهل مع الصهيونيَّة، علنًا طربًا. وضع لائحة للمقاطعة، لم يترك مؤسَّسة أو سلعة إلَّا وأعلن عنها، من «نسكافيه» إلى «كوكا كولا» وسواهما... لديه قاموس واسع بعناوين الشركات الداعمة لإسرائيل. لا يتهاون في التذكّر، رغم أنَّ الاستجابة قليلة. كان يواظب على القيام بواجبه النضاليّ، «لا أبديَّة لإسرائيل، ولا خيانة أعظم من نسيان فلسطين وبيعها وتوزيعها حصصًا وإخفائها علنًا.»

أحيانًا، كنت أعيد صياغة شكله: صبيّ طويل القامة، رأسه لا ينحني، شفتاه موسومتان للنطق الحاد. العالم إزاءه، مجدول الشعر والعضلات وأرصدة الاستباحة... سمكة هو في بحر غصوب. يتأمَّل البحر من ثقوب الأفراس وسطوة الياطر. يدعو هذه السفينة العربيَّة الكسولة، الرابضة في عمقٍ متعدِّد الأخلاق والأنياب والأذرع... كان سماح يجدّ في مثاقفة لوثةٍ أصابت السياسة واحتلّت الثقافة وصيّرت لها الإبداع. ومع ذلك، لم يكن يستوحش وحدته... ثابت الخطوة يمشي رَعَدًا. إلى حيث يجب أن يكون واقفًا، يحترس ولا يزيح، كأنَّه مؤتمنٌ على حراسة الطريق المستقيم، بلا مواربة.

ألا تتعب؟! في دواخلي رغبة مؤذية: أنتظر فيك، متى تتعب ولو قليلًا كي أبرّر عزائي. أحيانًا أفكّر بالرضوخ للاستسلام... ما زلتُ مولعًا بما لا أستطيعه، وخائفًا مما يستحيل عليّ. الاستسلام موت بكامل الوعي.

عزيزي سماح، لا شكّ في أنّك تتذكَّر المسكين الشيخ علي عبد الرازق؛ حرموه، أقفلوا الأزهر في وجهه، حاربوه برغيف عيشه، خاف، ألزموه الصمت. صمتَ، ثمّ صمتَ، ثمّ تأبّد في الصمت.

يا رجل، متى نصمت؟ ألا تيأس ولو قليلًا؟

هل تتذكَّر طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي؟ محاكم التفتيش الدينيَّة المذهبيَّة، حرّمت عقلَه. أولئك الذين يعتمرون آية النص لا يرتكبون الخطأ، لقاء وفرة سريَّة في الحسابات المصرفيَّة، الزعران يبارَكون بالعطايا، والمفكّرون مزمومون، محكومون بخصي أفكارهم وتجريف كناياتهم... مسكين طه حسين. تصرَّف في ما بعد، وكأنَّ هذا الكتاب ليس من تأليفه؛ لم ينكره، لكنّه هجره بلا طلاق.

هل تذكر عبد الرحمن الكواكبي؟ مسكين هذا الشيخ العملاق، بعد أن كتب طبائع الاستبداد التمَّ أهلُ الكتب المصانة بالجهل، والمتآمرة على الحقّ والمعرفة والكشف، لتلقينه درسًا يقضي بانتقاله إلى الآخرة... مسكين هرب إلى القاهرة ومات فيها. حتى الآن، لم يُنقل جثمانه إلى مسقط رأسه في سوريا. تهجير قبل الموت وبعده... يا أُمّة! أكيد، كنت تعرف يا سماح، أنَّ حلب لم تستعِد ابنها بعد، جثمانه يخيف شياطين الفكر الإنسانيّ.

يا سماح، إنّ المؤتمنين على الفكر اغتيلوا في شرقنا الذي خسرهم؛ أتذكُر كيف أعدموا أنطون سعادة؟ كانت جريمة كبرى: اعتقال، ومحاكمة، وتنفيذ حكم الإعدام، في أقلّ من ٤٨ ساعة. والمفجع جدًّا أنَّ جسم المحاماة والقضاء وأصحاب الفكر، فضّلوا الخرس.

تبًّا... إنَّنا يا سماح نعيش في غابة.

التجرّؤ انتحار، ولم تخفْ أبدًا.

قلتُ هذا الكلام فيك قبل رحيلك الجارح. فماذا أقول الآن؟ لا أحد يستطيع أن ينكر ريادتك وعنادك الصافي، كنت مختلفًا جدًّا، عن جيل تهاون أو استسلم أو نقل بندقيّته من كتفٍ إلى كتف.

مضيتَ بسرعة، فمن يملأ مكانك يا سماح؟ من يشبهكَ بصوتك؟ كن على يقين، أنَّ رهاناتك على الشعب الفلسطينيّ، على الجيل الجديد منه فائزةٌ؛ سيرفع هذا الجيل الراية والبندقية، شاهرًا دمه، وماضيًا إلى وطن وسع فلسطين الأولى... فلسطين المولودة لأهلها، لا لمغتصبيها.

هذا أملُكَ، سنحفظه. أراك معنا، مطرحك هنا. مواقفك حفظناها، مطلوب منّا أن نرث الغضب والحسم والامتناع بتاتًا عن مفردة «نعم.»

آخر خبر: «إسرائيل» خائفة، وشعبها يرتجف. الفلسطينيّ ما زال فلسطينيًّا، يصوِّب ويصيب. هذا هو الأمل الذي صنتَهُ ودافعتَ عنه. أخيرًا، شكرًا سماح.

بيروت

هشام
صفي الدين*

الرثاء عن بُعد

احترفتُ الرثاء أثناء عملي في جريدة تورونتو ستار في كندا. وهو تقليد صحفي يحاول تسليط الضوء على أشخاص لم يكتسبوا شهرة، لكن قد تكون مسيرة حياتهم مثار اهتمام عند القرّاء. كنت أتصفّح قسم الوفيّات بحثًا عن إعلان وفاة جدير بمادّة للرثاء، ثمّ أتّصِل بعائلة الفقيد (أو الفقيدة). أقابلهم وأزور الأماكن التي ارتادها الراحل. أتمعّن في صُوَره، واستفسر عن جوانب من شخصيّته تُعينني على رسم صورة حيّة له في ذهن القُرّاء. كنت أدخل عالم المتوفّى لبضعة أيّام، وأخرج منه من دون عناء عاطفيّ كبير.

كانت هناك استثناءات لهذا الطقس. أذكر منها رثاء المؤرّخ الفلسطيني سامي هداوي، والذي وثّق استيلاء الصهاينة - بتواطؤ من الإنكليز - على الأراضي الفلسطينيّة قبل النكبة. صودف أنّني أجريتُ معه مقابلة قبل وفاته، أثناء وجوده في دار للعجزة في تورونتو. لم يقل كثيرًا، لكنه تحدّث عن زوجته الراحلة بشغفٍ، وأراني صورة زفافهما. أراد أن يُدفن في القدس، مسقط رأسه. هالني أن أرى صاحب كتاب **الحصاد المُرّ** يُصارع قدَرَه وحيدًا وبعيدًا عن أرضه وشعبه. عندما رحل عن عمر يناهز الـ ٩٩ عامًا من دون تحقيق مُناه، رثيته في الجريدة وفي قلبي غصّة وغضب.

على الرُغم من تعاطفي الشديد مع هداوي، إلّا أنّ علاقة صداقة لم تربطني به كتلك التي ربطتني بكَ. لم أعرفه عن كثب، فسهّلَ عليّ ذلك رثاءه؛ فأنا أجيد الرثاء عن بُعد. أمّا رثاء الأحبّة، فهو هجاءٌ صامتٌ للموت الذي سلبهم منّا، فما بالك وقد جرفك زحام الموت وأنت ما زلت تصبو الى عالم افضل في عالم يفنى؟! لم تنتصر على الموت. لا أحد ينتصر على الموت. الموت أعصى من طواحين الهواء، وأنت لست دون كيشوته. أنت وجوديّ لا عبثيّ. الوجوديّ لا ينتصر على الموت، لكنّه لا يرضخ له من دون مواجهة. لم تتصالح مع المرض، بل قاومتَه حتّى آخر رمق. فأنت تحبُّ الحياة كما تحبُّ فلسطين، وهذا الحبُّ من ذاك ولو أنكر المتحامِلون.

وإن كان رثاء الأحبّة صعبٌ، ففراقهم عن بُعد أشدّ مضاضة. أردتُ أن أعود من الخارج لأراك. وعدتُك بإجراء مقابلة مطوّلة معك. قلتُ لك عبر الهاتف سأجريها أثناء تعافيك، وقلت في سرّي قبلَ رحيلك. لكنّ القدَر لم يمهلك. عندما وصلني خبر وفاتك وأنا قابع في المقلب الآخر من الكوكب، استمعتُ وحدي الى ترنيمة أسبوع الآلام «وا حبيبي»، بصوت وديع الصافي. ناجيتُك مردّدا: يا حبيبي أيُّ ذنب قد أتيتَ أو كريه... فأثابوك جراحًا ليس فيها من شفاء؟

ثمّ قرأتُ وسمعتُ وشاهدتُ ما كُتب وقيل عنك عن بُعد. سُعدتُ بهذا الدفق الهائل من الحبّ والتقدير. وعجبتُ من الذين مدحوك ليمدحوا أنفسهم. عندما عدتُ إلى بيروت، اتّجهت الى مقبرة الشهداء برفقة صديقة حضرَت جنازتك، كي تدلّني على مثواك الأخير، لكن خانتها الذاكرة. رُمْتُ وإيّاها الأروقة الترابيّة الضيّقة بين شواهد القبور، ذهابًا وإيّابًا، من دون جدوى. هممنا بالرحيل قبل أن نصادف غسّالا للقبور أشار الى المكان حيث ترقد مع أبيك، تتفيّآن شجرة يتيمة ـ أو هكذا خُيِّل لي ـ وسط أرض يباب من الألواح البيضاء. دنوتُ من قبرك. لكنّي لم أجدك إلّا لاحقًا في دار الآداب، بين دفاترك الجامعيّة ومسوّدة معجمك الذي لم يُنجز، وما خلّفته من كتبٍ ومقالات.

بعد رحيلك، انكببتُ على قراءة ما كتبتَه، وكأني أعيد اكتشافك. كيف فاتتني قراءةُ كتابَيك عن التجربة الناصريّة ورئيف خوري قبل غيابك (نعم، كي أجادلك كعادتي)؟ لم تُحفِّزْني قطّ على قراءتهما. كنتَ نقيض الأكاديميين الذين يتباهون بأعمالهم وكأنّه اللؤلؤ المنثور. نفرتَ من الأبراج العاجيّة من غير أن تهاب تسلُّقَها. واحتضنتَ الميادين الثقافيّة العامّة ولم تقع في فخّ شَعْبويّتها. وعلى عكس غالبيّة المثقّفين العرب من أبناء جيلك، لم تُبهِرك الحضارة الغربيّة أو تُغريك الأموال الخليجيّة، أو تُنسيكَ الكتابةُ نُبلَ الكفاح المسلّح والنضال العمليّ. ولم يوهن من عزيمتك اتّساع الهُوّة بين المبادئ التي آمنتَ بها، والواقع السياسيّ والثقافيّ والاجتماعيّ الذي عايشته. لم تنكر مرارة الواقع من باب المزايدة الثورجيّة، وفي المقابل، لم تستسلم لهذا الواقع من باب المساومة البراغماتيّة. عملتَ بمبدأ غرامشي عن تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة، وآمنتَ بوصيّة جورج حبش أن لا سياسة من دون أخلاق، وبوصية سهيل إدريس أن لا ثقافة من دون سياسة. فشغلَتْك السياسة من باب النضال التحرريّ، واللغةُ من باب التواصل الإنسانيّ، والنقدُ من باب الالتزام الاجتماعيّ.

لم يأتِ هذا الالتزام على حساب جماليّة النَصّ. حتّى في أحلك الظروف كوقت وفاة أبيك، أسعفتكَ الحنكةُ الأدبيّة لتمزج التراجيديّ بالكوميديّ، وتُوظّف كليهما في نقد ظواهر اجتماعيّة كالطائفيّة والذكوريّة والطبقيّة. تجلّت الأولى في اقتراح إدارة

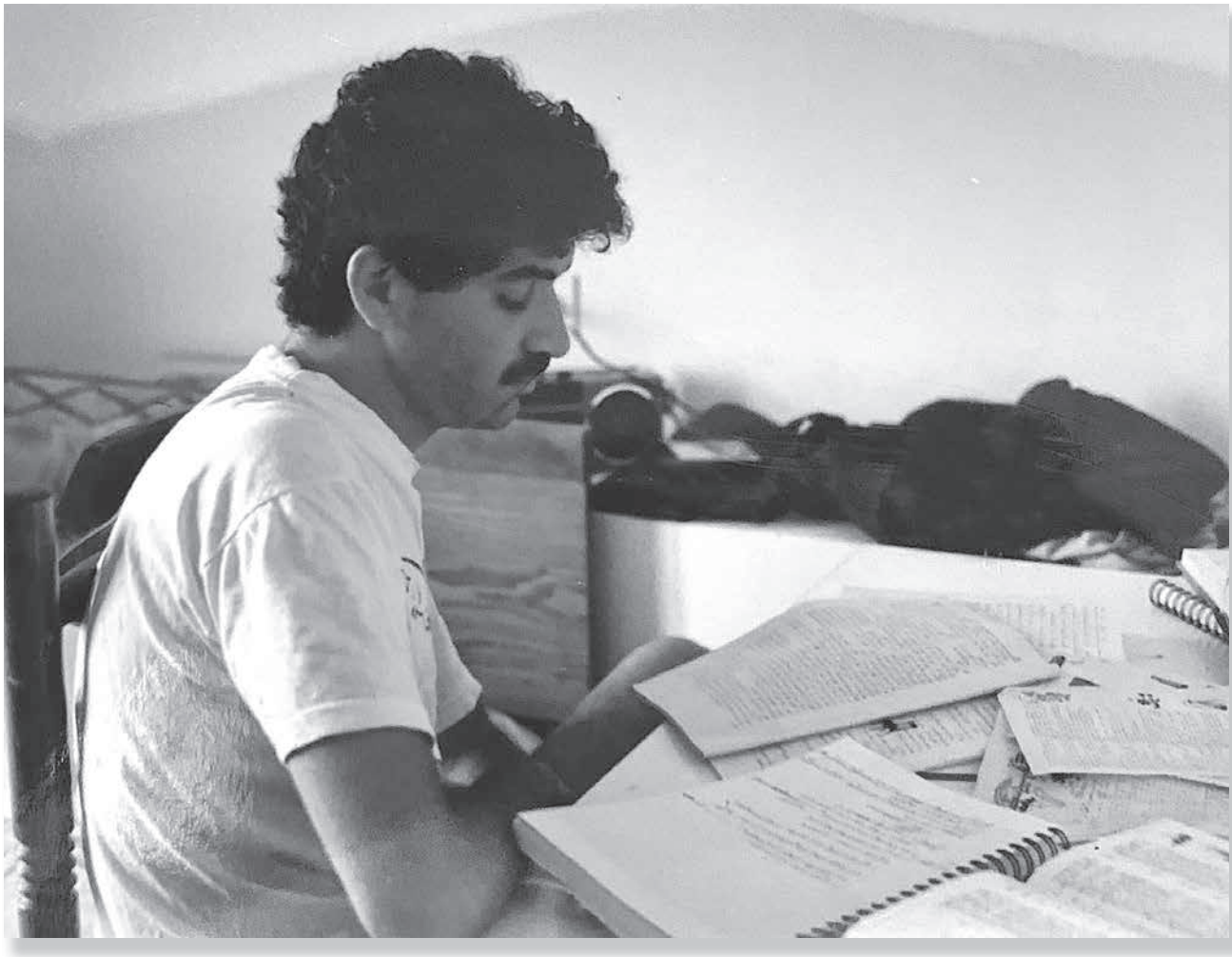

المدافن اختيار الصُحُف لنشر ورقة النعي بحسب طائفة المتوفّى؛ وتجلّت الثانية في طقوس فصل مجلسَي المعزّين والمعزّيات، ودعوة الرجال إلى الطعام أوّلاً؛ وتجلّت الثالثة في هرميّة مراسم الدفن بحسب الكلفة. قاومتَ الأولى والثانية، لكنّك رضخت للأخيرة. فمع أنّك حبّذت، كما تخبرنا، ترتيب جنازة متواضعة، وقع اختياركم كعائلة على الدفن «الدولوكس» تحسُّبا من شماتة الناس. تضمّن ذلك شراء ورودًا للمزهريّة التي ستزيّن الضريح بكلفة إضافيّة، لأنّ مزهريّة من دون ورود تعكس سوريّاليّة تتناقض مع واقعيّة سهيل إدريس. وسهيل، بخلاف جيله من الآباء، كان لكَ أبًا ومعلّمًا وصديقا في آنٍ، فكنتَ في المقابل خير وريثٍ ومجدّد لمسيرته الثقافيّة. هل كنتَ، من دون أن تدري، تستشرف قدرًا مستعجلًا عندما تطوّعتَ، أثناء ترتيب مراسم الدفن، لحيازة «الحقّ الحصريّ» في تحديد من يمكن أن يُدفن بعده في المكان نفسه من أفراد العائلة، وعلى رأسهم أنتَ؟

لم أحضر جنازتك كي أرثيك عن قرب. والرثاء عن بُعد تراجيديّ صرْف: هو عتابٌ للمهاجر قبل أن يكون رثاءً للراحل الذي لم يرتحل عن وطنه وناسه. ولم أجد وردًا ولا مزهريّةً عند زيارتي لضريحَيكما. وكأنّها علامة فارقة بين العصرَين: عصر الواقعيّة الرومانسيّة التي طبعت زمنَ الأب عند صدور *الآداب*، وعصر البراغماتيّة الفجّة التي طبعت زمن الابن عند أفولها! وإن فشلتْ تلك البراغماتيّة في أن تصبغ آدابك وتُكبّل مسيرتك. لقد ازدانت تلك المسيرة بالمحطّات المُشرقة في الثقافة، والمُشرِّفة في السياسة، ولكثير مِمّن عرفوك بشريط من اللقاءات الممتعة والذكريات الجميلة.

لم نلتق معًا، أنت وأنا وأسعد ورباح وعامر، كما خطّطنا بعد انقضاء كورونا. عاجلَنا مرضُك. لكنّنا ما زلنا نحتفظ بالمجموعة التي كنّا نتواصل من خلالها على التطبيق الهاتفيّ، والتي أرسلتَ إلينا عبرها آخرَ تسجيل صوتي لكَ وأنت تنشد «راجعين بقوّة السلاح.» أبقينا على المجموعة، لكنّنا غيّرنا اسمها من **فلا بدّ أن نلتقي** إلى **سماح**. فالأموات، كما يُذكّرنا غسّان كنفاني، هم قضيّة الأحياء. والأحبّة قضيّةٌ لا تنطفئ إلّا مع انطفاء الروح. موتهم هو موتنا المؤجّل، وحياتنا الباقية. وذكراك باقية فينا ما بقينا.

فانكوفر

رحيلك مجحف... لكن، ما أجملك!

شربل نحاس*

رحل الصّديق الحبيب سماح، الذي صِيغ بذاكرة مجتمعنا، ولاقى تحدّياتِه وأحلامَه بحرّيّة وشغفٍ وجرأة.

أخطأتَ التوقيت يا رفيق! صفوفنا منقوصةٌ من دونك. ومعركتنا فقدت برحيلك بعضًا من ذاتها. الموت بشع، حقيقةٌ نعرفها. أمّا أن تموت في وقتٍ يموت فيه البلد أو يكاد! فعذرًا، توقيتٌ مجحِفٌ. أنت صاحب الذوق الأكثر إرهافًا بيننا جميعًا. كان عندك من اللطف والأدب، بما بقي من هاتين الكلمتين من معنى، ما منع أيًّا منّا من حشرك بالعمل السياسيّ المنظّم. لكنّكَ بقيتَ على صلةٍ وودٍّ مع كثيرين. كم أضفتَ وكم نقلت رحيقًا، فاعتُبرتَ بريئًا بالقدر الكافي. لكنّك عرفت أيضًا كيف تتبرّأ من البراءة: في السّاحات المختلفة، وفي رفضك العنيد للبراغماتيّة. بأدبٍ وفي الأدب.

لستَ وحيدًا في مأساتِك. هذه حال خيرة أدباء العرب، كالمعرّي وابن رشد وابن خلدون وآخرين. أمّا الباقون، فساذجون متكيّفون، أو دجّالون واقعيّون، مهما برعوا في ترويض هذه اللغة الرائعة واللئيمة. كنتَ بريئًا من دون أن تكون ساذجًا. لم تعتبر الهويّات أسْرًا يلغي إمكانيّاتٍ غيرَ منظورةٍ في التاريخ، ويصدّ الأبواب على تاريخ مغاير، ويمنع صناعته، وصولًا إلى مقصل اليوم؛ فيبقى اليوم، كلّ يوم، مغايرًا.

يخوض النّاس حياتهم مأسورين ومتسلّحين بأدوارٍ مرسومةٍ. يستسيغونها وينغمسون فيها منذ صغرهم، فلا يرون أنفسهم ولا يرى بعضُهم بعضًا، إلّا من خلالها. يجهدون لأدائها معتقدين أنّ البراعة في الأداء غاية. لا تبقى بين الشّخص والشّخصيّة المرسومة له، إلّا شقوقٌ ضئيلةٌ وخروقٌ نادرةٌ، فيُخفونها. لكنّ قلّةً من الناس، مثلك، لا يكفيهم أداء الدّور المرسوم لهم. يناقشون النصّ، بل يسعون لكتابته. حاجة هؤلاء إلى سكب معنى في تجربة حياتهم، أقوى ممّا يكلّفهم رفضُ الأدوار المتوقَّعة منهم. وكذلك حاجتهم إلى اعتبار الحاجة إلى المعنى مشتركةً بين البشر، وإن أنكروا

تصوير بلال جاويش

وكابروا وارتضوا أجوبةً لا تُرضي، من هويّاتٍ ومقاماتٍ وأعرافٍ وخطابات رثاءٍ ومديحٍ وهجاء.

المعنى هو الجمال وهو الأدب. اللعنة على الأدب. هل في شرطيّة الجمال جوابٌ أو تعويضٌ عن عجزٍ مرجَّح وإن غير مُرتَضًى؟ لن نعرف. لا يهمّ. التقينا وافترقنا مع تلاقينا. لكنّ المعجم الذي نقرأ فيه تجربتنا الحياتيّة، هو ذاته. موتك دَيْن إضافيٌّ في مرحلة الإفلاس، ورافدٌ متجدّد وأليمٌ للحاجة العنيدة إلى المعنى.

بيروت

* أمين عام حركة مواطنون ومواطنات في دولة.

الرفيق الذي رحل باكرًا

شوقي عطية*

تعرّفتُ إليه عبر صديقتنا المشتركة عبادة، منذ ثلاث سنوات. أرسلت إليه مقالًا بناءً على اقتراحها، فردّه لي مع ملاحظات تحريرية مُذيّلة بقوله: «إن أردت تبنّيها.» لم يحدث أن حرّر أحدهم ما كتبتُه ودقّق لغته على هذا المنوال؛ الرجل نقَّطَ وشكَّلَ وشدَّدَ ونَقَلَ فتحتي التنوين إلى ما قبل الألف. فعلها مرّة ومرّتين لأوّل مقال، ثمّ للمقالات الأخرى.

مرّت الأيام وتعرّفت إليه أكثر. تناقشنا في كلّ شيء: من السيّارة التي كان ينوي شراءها، وهي من دُنيويّات الوجود، وصولًا إلى فلسطين، وهي بالنسبة إليه الغايةُ من الوجود واكتشفتُ أنّ مجلّة *الآداب* ليست عملًا له أو مهنة. *الآداب* جزء لا يتجزّأ من عائلته؛ هي أختٌ له من والده المغفور له سهيل. وفي كلّ مرّة ناقشنا فيها وضْع المجلّة وقدّمت اقتراحات، كان يقيني يزداد بأنّه لن يُساوم مطلقًا على خطّها ومستواها التحريريَّن، مهما كانت الخسارة المادّية أو المعنوية.

مع مرور الوقت، صرنا صديقين، وإن عن بُعد، إلى أن التقينا وجهًا لوجه، بعد لقائنا الرقميّ الأوّل بسنة. أمضيت معه، ومع أصدقاء آخرين لـ *الآداب*، يومًا من العمر في إهدن. لم تمضِ بضعة أسابيع إلّا وعلمتُ بالخبر المفجع: سماح يصارع المرض. كان مدركًا تمامًا ما ينتظره. هزمه المرضُ. لكن سماح انتصر في موته على من حاربه. إثر موته، امتلأت صفحات الفايسبوك بصُوَر سماح. هكذا المناضل، لا يموت. قد يغيب جسده، إلّا أنّ فكره يبقى إلى الأبد، وخصوصًا حين يكون مؤثّرًا في هذا العدد الكبير من الناس.

سماح بين العالم الافتراضيّ والمعرفة عن قُرب

تجربة سماح مع التواصل الاجتماعي، ولا سيّما مع فايسبوك، لم تكن سهلة؛ فهو كان يمضي أيّامه على الشبكة بين حظر وآخر. ويكاد لا ينهي حظرًا إلّا ليحصل على تنبيه، فإنذار، فحظرٍ من جديد. كنتُ أناشده: يا سماح، خفّف قليلًا. كان يضحك ويعِدُني بأنّه سيحاول. وما هي إلّا بضع ساعات، حتّى تقرأ له دفاعًا عن فلسطين، أو هجومًا على حركات الانبطاح المتعدّدة.

كان سماح المرجعَ لنا إذا أردنا السؤال عن أمرٍ يتعلّق بالمسألة الفلسطينية، أو عن مقاومة التطبيع ومناهضته. وما الدليل على نجاحه إلّا مدى الإزعاج والإحراج الذي سبّبه لمناصري التطبيع، خصوصًا المستتر منه في لبنان؛ كانوا يحارون في إيجاد مآخذَ موضوعيّة عليه، فيلجؤون إلى السخرية والتشهير.

رحل سماح بعد أن عاش مفهوم المثقّف المشتبك. وكانت *الآداب* خير تجسيد لمعرفته وثقافته. لكن، لن يعرف سماح على حقيقته إلّا من جالسه؛ سيصدمك نقاء هذا الإنسان، هو بريء، وديع بالمعنى النبيل للكلمة. ستدرك أنّه ليس خبيثًا، ما يقوله يصدر عنه بصدق، ومن دون أيّ مواربة. وما يمكن أن تعتبره من البديهيّات المُضجِرة، قد يكون مثيرًا لاهتمامه ويجلب له البسمة. ستكتشف بعد التقرّب منه، سماح المناضل العنيد الشرس الذي لم يتخلَّ عمّا يؤمن به، ولم يساوم يومًا، مهما تعرّض لمضايقات وتشهير.

تحدّث بلغة الأطفال

ولعلّ هذا الطفل الكامن فيه، قد يشرح لك لماذا كتب للأطفال، وقرأ لهم في المخيّمات، بالعربيّة الصحيحة. أذكر كم كان حزينًا عند بداية فترة الإغلاق الأولى، بسبب جائحة كورونا في ربيع ٢٠٢٠. وبرغم أنّنا كلّنا حزِنّا على انتزاع حريّتنا الشخصيّة، إلّا أنّ حزنه الأكبر كان لانتزاع فرحةَ لقاء أطفال المخيّم منه، ولأنّ فايسبوك لم يسمح له بالظهور المباشر. وقد استعاض عن ذلك بتسجيل القصص المكتوبة بأسلوبه الخاص، عبر موقع يوتيوب. وحين اقترحتُ عليه أن نقرأ قصصًا عالميّة على هذا الموقع، كان جوابه كشفًا للهدف من القصص؛ قال لي: «رفيق، أنا أقرأ لهم قصصًا كُتبت في مجتمعهم، في بلادهم، بلغتهم الأصليّة، وإن المبسّطة. أريد ما يربطهم بهذه البلاد، لا ما يربطهم بالخارج.» كانت القصّة عند سماح، كالرواية عند غسان كنفاني، مقاومةً. هي ما يربط بين الأطفال وقضيّتهم، وبلادهم، وهي ما يُبقي فلسطين في ذاكرة الأطفال حيّةً إلى الأبد. كان يدرك تمامًا أنّ فلسطين ليست قطعةَ أرض فحسب، بل هي فكرةٌ ونضالٌ مستمرّان حتّى النصر. «قد تسقط أجسادُنا» يا سماح، كما قال أنطون سعادة. قد تسقط بالشهادة أو المرض، مبكّرةً كانت أم متأخّرةً، «أمّا نفوسنا فقد فرضت حقيقتها على هذا الوجود.» نفسُك فرضت حقيقتَها على مَن عرفوك جميعًا، أحبَّوك أو نفروا منك. وأسمح لنفسي أن أبتسم حين أسترجع ذكراك؛ أبتسم لأنّ إيماني يقول لي إنّ روحَك فرحةٌ لأنّها، فوق فلسطين، ترفرف.

بيروت

* منسّق مختبر الديموغرافيا في مركز أبحاث معهد العلوم الاجتماعيّة ـ الجامعة اللبنانيّة وعضو اللجنة العلمية فيه. أستاذ وباحث في معهد العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية. عضو الفرقة البحثية في العلوم الاجتماعية ـ المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية. له عدد من المؤلفات والمنشورات، من بينها ستة كتب في الديموغرافيا والإعلام والسوسيولوجيا، أحدثها: **ديموغرافيا المشرق**.

آفاقُ سماح الرحبة

رانية المصري*

من عرف سماح وعاشره كان محظوظًا. وأنا كنتُ من هؤلاء المحظوظين، فقد عرفته وشاركته في تنظيم النشاط السياسيّ، وفي الغوص في النقاشات المُطوّلة. لكن، حين طُلب منّي أن أكتب عن سماح، تساءلت: ماذا باستطاعتي أن أقول؟ ماذا يمكنني أن أضيف إلى كلّ ما قيل؟ كيف يمكنني أن أتحدّث عن رجل وصديق عرفته لأكثر من عشرين عامًا؟ كيف ألخّص كلّ هذه السنين؟ لا يمكن أن اختزل سنين طويلة من معرفتي بسماح في نصّ واحد. لا يمكن تلخيص حياة زاخرة بتفاصيلها كحياة صديق العمر سماح. لذلك سوف أتحدّث عن جانبٍ واحد من شخصيّة سماح: عن درس من دروس تعلّمتها منه، والتي أتمنّى أن نقتدي كلّنا بها. كان سماح ـ وما أصعب الكلام عن سماح في صيغة الماضي ـ رجلًا يفتح الآفاق، ويخلق الآفاق، وبالأخصّ حين كانت الآفاق تُسدّ من حولنا. هناك شواهد كثيرة أستحضرها: من مجلة *الآداب*، إلى حملة المقاومة المدنيّة، وحملة مقاطعة داعمي «إسرائيل.»

عندما كنت ناشطةً في الولايات المتّحدة ضدّ العقوبات والحروب الأميركيّة، تواصل معي سماح وطلب منّي أن أكتب في مجلّة *الآداب*، فاعتبرتها فرصةً ليعرفني أبناء بلدي امرأةً عاشت معظم حياتها بعيدةً عن وطنها الأم، وتبحث عن وطن. وبعد عودتي إلى لبنان، شجّعني سماح على تأسيس قسم يُعنى بالبيئة في المجلّة، وخلق لي آفاقًا للتعبير عن نفسي. «اكتبي،» كان يقول لي. «اكتبي عن أيّ شيء يهزّ مشاعرك، لكن اكتبي.» لم يترك ضعفَ لغتي العربيّة يُشكّل عائقًا أمامي. بل على العكس، أخذ على عاتقه ترجمة مقالاتي من دون ذكر اسمه، بينما كان يحثّني دومًا على تقوية لغتي العربيّة.

سماح لم يُرحّب بي فقط على صفحات *الآداب*، بل أشعرني أنّه يرحّب بي في لبنان. لقد شجّعني على أن أتكلّم في الندوات، وعرّفني إلى أوساط المثقّفين والناشطين في العمل الوطني. لقد خلق لي آفاقًا كما فعل مرارًا وتكرارًا مع آخرين كُثُر؛ ففي بداية سنة ٢٠٠٦، دعاني سماح إلى المشاركة في ندوة ضمّت أحمد دلال وأسعد أبو خليل. بعد عدّة أشهر من مشاركتي في تلك الندوة، فتح سماح بيته لي فعليًا. في بداية حرب ٢٠٠٦، تحوّل منزل سماح لعدّة أسابيع، إلى مركز اجتماعات. اجتمعنا وتناقشنا لساعات عن كيفية مساهمتنا في الدّفاع عن وطننا كمدنيّين بوجه أعدائنا. أسّسنا حملة المقاومة المدنيّة. في السابع من آب ٢٠٠٦، نظّمنا قافلةً مدنيّةً مؤلّفةً من خمسين سيّارة لتتّجه إلى الجنوب، وإن لم تتمكّن القافلة من إكمال طريقها. تبنّى حملة المقاومة المدنيّة أكثر من ٢٠٠ منظمة لبنانيّة ودوليّة بهدف تحدّي استعمال «إسرائيل» للقوّة المفرطة الهمجيّة ضدّ الشعب اللبناني. شرح لنا سماح أنّه «من خلال العمل معًا والتضامن، سوف نتغلّب على تخاذل المجتمع الدولي وتواطئه، وسوف نحرم 'إسرائيل' من هدفها باقتلاع لبنانيين من أرضهم وتدمير نسيجنا الوطنيّ.»

إلّا أنّ تفاعلي مع سماح باستمرار وعن قُرب، كان من خلال حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان، التي شارك في تأسيسها سنة ٢٠٠٣، والتي انضممتُ إليها سنة ٢٠٠٥؛ فمن خلال توجيهاته وإرشاداته وبقيادته، نجحنا في بناء حملة ناجحة ومستدامة. لقد كنّا، وما زلنا، نجتمع مساء كلّ يوم اثنين. وقد سمعت من أشخاص لم يعرفوا سماح ولم يشاركوا في النشاطات معه، أنّه كان هو الحملة وأنّه الآمر والناهي. لم يعرفوا سماح؛ كان منفتحًا على الآراء المختلفة. كان يستمع لمن يخالفه الرأي حول استراتيجيّة الحملة وتكتيكاتها، وكان بالفعل مستمعًا جيّدًا. لقد جاهد كي لا تكون الحملة «حملتَه،» بل «حملتنا.» وشجّع الأعضاء المختلفين على أداء أدوار بارزة. ومتى برزت خلال اجتماعاتنا آراء متناقضة، كان يستمع إلى تلك الآراء ويدعو إلى التصويت عند الضرورة. وأحيانًا كان يتفادى الإدلاء بصوته لكي لا يؤثّر في الآخرين. لقد خلق بالفعل مساحةً في الاجتماعات ـ مساحةً لنا جميعًا. وكانت القيادة عنده القدوة في العمل لا في الأمر.

حتّى عندما دخل المستشفى خلال صراعه مع مرض السرطان، خلق مساحات من الحُبّ والتعاطف. كان يسأل عن رفاقه وأصدقائه. كان كذلك يسأل عن الممرّضات وعائلاتهم. كان يهتمّ بالإنسان كاهتمامه بالقضيّة والنضال. سوف أفتقد سماح كثيرًا.

عسى أن أستمرّ على النهج نفسه. أن أكتب، أن أفتح آفاقًا رحبةً، وطبعًا، أن أكمل الطريق لتحرير كامل أرضنا.

بيروت

* باحثة درّست سابقًا في جامعة البلمند والجامعة اللبنانية الأميركية.

الرّجل الكتيبة الذي قاوم الهزيمة بالإبداع

غسّان
بن خليفة*

«رحل سماح إدريس. رحل أستاذي ورفيقي وصديقي وقدوتي. الليلة من المحيط إلى الخليج، كثيرون سيبكون هذا الرّجل العظيم.» هكذا بدأتُ هذا النّصّ الّذي شرعتُ فيه إثر رحيل الحبيب سماح، لكنّي عجزت عن إتمامه... في الواقع، كنت أهرب منه. كنت تحديدًا أهرب يوميًّا من التّفكير في حقيقة أنّ سماح لم يعد بيننا... لكنّ سماح ما زال معنا، وباسترجاع سيرته العطرة يواصل كعادته إنارة طريقنا الوعرة. فسماح الّذي رحل في عزّ عطائه وهو لم يتجاوز السّتّين، لم يكن مجرّد كاتب أو مثقّف يساريّ. بل كان كتيبةً كاملةً من الجنود. كان مقاومًا مرابطًا بجسارة على جبهات لا تُحصى: مدير تحرير مجلّة *الآداب* العريقة، عضوًا مؤسّسًا بارزًا في الحملة اللبنانيّة للمقاطعة، كاتبًا مبدعًا لقصص الأطفال واليافعين، مترجمًا لامعًا، ناشرًا بدار الآداب، مدافعًا شرسًا عن اللغة العربيّة ومجدّدا لها (كان يُكمل عمل والده الأديب سهيل إدريس في إصدار قاموس عربيّ ـ عربيّ حديث).

وكان قبل كلّ ذلك وبعده، أمينًا حارسًا لأحد أهمّ تجارب النّضال اليساريّ الثّوريّ وأنقاها في الوطن العربيّ: مدرسة «الحكيم» جورج حبش، مؤسّس حركة القوميّين العرب والجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين وحزب العمل الاشتراكيّ العربيّ. من هنا، حتّى بعد أن ابتعد عن الجبهة (أو ربّما هي ابتعدت عن نفسها)، بقي دائمًا قريبًا من العناوين السّياسيّة الّتي تشبهها (حركة الشّعب في لبنان، ومؤخّرًا المسار الفلسطينيّ البديل). تعرّفت إلى قلم سماح الرائع سنة ٢٠٠٦ تقريبًا، وذلك من خلال اكتشافي أحد أعداد *الآداب* (الّتي كثيرًا ما كانت تُمنع من البيع في تونس وبلدان عربية أخرى عديدة). جذبني إليه خطّه السّياسيّ الجذريّ: مع العروبة، لكن ضدّ الشّوفينيّة القوميّة؛ مع فلسطين من النّهر إلى البحر وعبر المقاومة المسلّحة، لكن بعيدًا عن الخطاب المتعصّب دينيًّا؛ مع العلمانيّة وضدّ الطّائفيّة، لكن من دون السّقوط في مستنقع الليبراليّة. بوصلته كانت فلسطين وانتماؤه كانت، كما كتب في إحدى افتتاحيّاته لـ«الوعي النّقديّ.» حصل لي شرف التّواصل معه في مطلع سنة ٢٠٠٨، في سياق مشاركتي في معركة ثقافيّة/سياسيّة شرسة دارت رحاها على أعمدة صحف ومجلّات ومواقع عربيّة كثيرة. وقد انطلقت إثر افتتاحيّة لسماح في *الآداب*، انتقد فيها تهافت بعض المثقّفين الليبراليّين العرب على موائد أمراء النّفط وعملاء الاحتلال الأميركيّ في العراق. وذكر في هذا الإطار وزيرًا عراقيًّا سابقًا، كان في ما مضى شيوعيًّا قبل أن يتحوّل إلى ليبراليٍّ ثريٍّ يشتري ذمم المثقّفين (بأموال الحزب الشّيوعيّ العراقيّ التي استولى عليها، كما ذكر رفاقه السّابقون). فادّعى الأخير قضائيًّا على سماح بتهمة الثّلب، لتشتعل معركة دامت أسابيع طويلةً، كان محورها ازدواجيّة معايير «الليبراليّين العرب» في ما يخصّ حرّية التّعبير. شاركتُ في هذا الجدال بمقال في جريدة **القدس العربيّ** (عندما كانت جريدةً محترمةً قبل أن يبتاعها القطريّون)، أعاد سماح نشره في *الآداب*، إلى جانب غيره من المقالات المساندة للمجلّة.

بذلك بدأت علاقة رفاقيّة وطيدة بيننا. من جهتي، كانت إلى حدٍّ كبير علاقة تلميذ بأستاذه. فرغم قلّة عدد لقاءاتنا المباشرة (لم تتجاوز الأربع مرّات بين دمشق ومونتريال وتونس، وأخيرًا في بيروت قبيل وفاته)، إلّا أنّني تعلّمت الكثير من هذا الرجل: مركزيّة قضيّة فلسطين لكلّ شعوب المنطقة؛ والدّفاع عنها من زاوية تقدّميّة عقلانيّة؛ وتجديد فكرة الوحدة العربيّة وتنقيتها؛ والدّفاع عن اللغة العربيّة كإحدى أدوات تحرّرنا عبر تطويرها وتثويرها لا تحنيطها (لو تقرؤون مثلًا قصص سماح للأطفال، ستلاحظون جرأته في انتقاء مفردات من العربيّة تخالها عامّيّة يستخدمها الأطفال كلّ يوم، وأحيانًا استعمال ألفاظ من لغات أخرى، صارت جزءًا من الكلام اليوميّ للطّفل)؛ وقدرته المدهشة على مقاومة الإحباط واليأس عبر العمل والجهد الدّؤوب (أذكر نقاشًا بيني وبينه حول مقولة غرامشي الشّهيرة الّتي عدّلها إلى «تشاؤم العقل، واجب الالتزام» على ما أذكر)؛ وولَعُه بالعمل المُتقَن (عندما يحرّر لك مقالك تشعر أنّه صار أفضل وأجمل وأكثر رشاقةً وسلاسةً لغويّةً، بعيدًا عن الحشو والتّكرار والأخطاء اللغويّة المخجلة أحيانًا). ولا أنسى سمات التّواضع، وحبّ النّكتة...

سماح إدريس، الواحد المتعدّد. كان كمن سبقه من مثقّفين مشتبكين (من غسّان كنفاني إلى باسل الأعرج) مقاومًا على عديد الجبهات. كان كتيبةً لا فردًا. وهذا تحديدًا ما نحتاج إليه في هذا الزّمن الصّعب. فلنكن رفاقًا وتلامذةً أوفياء للعظيم سماح إدريس.

تونس

* صحفي، مترجم، ومناضل اشتراكيّ ثوريّ من تونس.

علوية صبح*

رسالة إلى سماح

عزيزي سماح،
سأسرّك بما لم أقله لك سابقًا ـ ولن أقول في حياتك ـ لأنّك لم تمت؛ فأنت حيّ فينا: أنت جزءٌ من حياة كلّ منّا، من أهلك وأحبابك ورفاقك، سواء من عرفك منهم شخصيًّا، أو من قرأ ما كتبته، أو تواصل معك من العالم أجمع.

سماح، لقد كنتَ، وما زلت، مثال المثقّف الذي نفتقده في هذا الزمن المتلاشي. المثقّف الحقيقيّ، صاحب الموقف والرؤية، سلوكًا وممارسة. أنت مثالٌ حيث الثقافة عند كثيرين باتت تسوّلًا أو مقاولةً أو ترويجًا لماركات سياسيّة تقبض على عنق الثقافة حتّى خنقها.

عزيزي، على المستوى الشخصيّ لم أعرفك بما يكفي، برغم أنّني ابنة دار الآداب حيث وُلدتُ كروائيّة. كنت أعبر من أمام غرفة مكتبك، وألقي عليك التحيّة. وأحيانًا أعرّج على غرفتك لنتبادل أطراف الحديث، قبل انتقالي إلى الغرفة المجاورة للقاء مديرة دار الآداب، رنا، أختك التي كنتَ حبيبَ قلبها ورفيقها وصديقها والأغلى في حياتها.

كانت ابتسامتك دائمةً على وجهك الوسيم. بل لا تزال ابتسامتك حاضرةً أمامي، كما لو كانت بطاقة هويّتك. ما زالت تنطق بحيويّتك، كما لو أنّها تخرج من شفاهٍ حيّة، ومن عينين تلمعان بالضوء.

حين عبرتُ من أمام مكتبك إلى غرفة رنا، بعد غيابك، ونظرتُ إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بك وسائر محتويات غرفتك، شعرت كم أنَّ المكان يحنّ إلى صاحبه. كانت رائحة الشوق إليك تضجّ به. واللغة التي كانت تخفق حياةً بين أصابعك تتوق إليك. فيما الكمبيوتر المغلقة شاشته، ذاك العالم الممتلئ بالكلمات التي أبحرت فيها، بدا غافيًا، أو ربما غارقًا في حدادٍ موجع. بلعت دمعتي وولجت غرفة رنا بصلابة، إذ كان همّي أن أواسيها، ولو قليلًا.

أنت مثالٌ حيث الثقافة عند كثيرين باتت تسوّلًا أو مقاولةً أو ترويجًا لماركات سياسيّة تقبض على عنق الثقافة حتّى خنقها

سمعتُ صوتك في أذنيّ، ولا شكّ في أنَّ رنا تسمعه باستمرار، يقول إنّ روحك لا تريد لها أن تغرق في الحزن، وأن تبقى كعادتها قويّةً ومثابرةً ومكافحةً لاستمرار مسيرة دار الآداب. سمعته يقول لها إنّك لم ترحل، وإنّك تطلب منها ألّا تصدّق الموت؛ فالغياب وهم. وحيُّ الضمير لا يموت.

في فترة مرضك زادت معرفتي فيك. توطّدت صداقتنا في جلسة طويلة في المستشفى، حيث كنتَ ترقد. تحادثنا كما لو كنّا نتابع أحاديث جرت بيننا طويلًا. خضنا في السياسة والأدب وخلافهما، وضحكنا كثيرًا. ابتسامتك كانت تشعّ وأنت ممدّد على السرير. قلت لي: «انظري إليّ، جسدي متعب فقط، إنّما عقلي في كامل توهّجه.» وكنتَ فعلًا كما قلت.

في لقاء الربع الساعة الأخير قبل رحيلك، كنتَ في كامل اتّقادك الذهنيّ، والحوار معك كان ممتعًا.

لم أقل لك بل قلت لنفسي، وأنا خارجة من المستشفى: «ليتني عرفتك أكثر.» وندمت على قلّة اللقاءات بيننا، علمًا بأنّ الصداقة تكون أوثق وأعمق مع من نحبّ أن نقرأ لهم، حتّى لو كنّا بالكاد نعرفهم.

«أنا حيّ،» تقول لي ابتسامة صورتك. وأنا أصدّقك وأصدّق ابتسامتك. وأعرف أنّ قضايانا ما زالت حيّةً، لأنّك ما زلت حيًّا فينا.

بيروت

* روائية لبنانية. صدرت لها أربع روايات عن دار الآداب: **مريم الحكايا**، **دنيا**، **اسمه الغرام**، و**أن تعشق الحياة**. نالت العديد من الجوائز الأدبيّة العربيّة وتُرجمت أعمالها إلى عدّة لغات.

نجيب
صفي الدين*

خير جليس في الغربة

كان بيني وبين العزيز سماح إدريس علاقة وُدِّية عن بُعد. أنا في تورونتو وهو في بيروت، نلتقي ولو لمامًا متى سنحت الظروف. وبحكم مهنتي كطبيب، علمت بمرض سماح باكرًا، فتواصلنا علّني أساهم في بلورة خطّة للعلاج. وقد ترك خبر مرضه والتدهور السريع لصحّته، ومن ثمّ وفاته، في نفسي أثرًا أكبر ممّا كنت أتوقّع. ذلك أنّ الخسارة أفدح من خسارة سماح الإنسان الدمث والوفي، بل سماح الموقف وسماح *الآداب* وسماح المقاطعة. عند أوّل تواصل، فور اطّلاعي على التشخيص، تحدّثنا وبأمل عن سُبل العلاج الأنجع. لكن، بعد انتهاء الفحوصات واكتمال الصورة، تلاشى الأمل بالتعافي. هنا

ففي زمن تُشترى وتباع فيه أغلب الأقلام والمنابر، أَبَتِ *الآداب* إلّا أن تبقى على نهجها؛ لم تُثنها الضغوط كافّة، ولا سيّما الماديّة منها.

واجهت موقفا صعبًا: ماذا عساي أقول لصديق آمن وانخرط في معركة تحرير فلسطين في ظروف تكاد تكون عصيّة على النصر، وهو يخوض الآن معركة للبقاء باتت خسارتها حتميّة. كم كان ثقيلًا هذا الإحساس بالعجز.

عند رحيله، عادت بي الذاكرة الى حوالي ١٥ سنة خلت. تواصلتُ حينذاك معه للمرّة الأولى بهدف شراء اشتراك سنوي لمجلة *الآداب*، كي تصلني شهريًّا في تورونتو. وحدُه من يقيم في الغرب، أي في بيئة وثقافة معادية ـ بِمعظمها ـ للعرب عمومًا، ولفلسطين خصوصًا، يعرف جيّدًا معنى أن تصل إلى البيت، وتجد في صندوق البريد مجلةً عربيّةً ثقافيّة متميّزة وملتزمة قضيّة فلسطين، ومدى السعادة الذي تحمله إليك في طيّاتها. في تلك الفترة، كان الشعور بالغربة، وخصوصًا في شمال أميركا، مضاعفًا؛ فلم تكن الصحف اللبنانيّة متوفّرة بسهولة عبر الإنترنت، كما هي اليوم. وكانت منصّات التواصل الاجتماعيّ شبه معدومة، عدا عن ندرة المكتبات أو مخازن البقالة التي تقتني إصدارات بالعربيّة مقارنةً بأوروبا. وبأيّة حال، معظم تلك الإصدارات لم تعالج قضايا أدبيّة وثقافيّة بعمق وتنوّع والتزام، كما عالجتها *الآداب*. وللحقّ أقول، إنّك وخلال ساعات معدودة تقضيها في قراءة المجلّة أثناء يوم العطلة أو بعد نهار عمل طويل، تشعر بغربتك تنفكّ، وبتواصل حقيقيّ مع الوطن.

وقد زاد تقديري لـ *الآداب* في السنوات الأخيرة. ففي زمن تُشترى وتباع فيه أغلب الأقلام والمنابر، أَبَتِ *الآداب* إلّا أن تبقى على نهجها؛ لم تُثنها الضغوط كافّة، ولا سيّما الماديّة منها. لا بل قام سماح وقلّة من رفاقه، وبإمكانيّات محدودة، بتجديد *الآداب* لتصبح مجلّة رقميّة تواكب العصر، تصل الى قرّائها أينما كانوا وبدون مقابل، وتبقى على ثوابتها منبرًا لثقافة أصيلة ومساحةً لأقلام عربيّةٍ شابّةٍ. سأفتقد حقًا ذلك الإعلان من سماح على الفايسبوك بأنّ العدد الجديد من *الآداب* قد صدر. وأملي أن تستمرّ *الآداب*، حتّى لو أنّني سأبقى أفتقد ذلك الإعلان من سماح وافتتاحيّته.

العزيز سماح، شكرًا لك. شكرًا لأنّك بقيتَ حتّى الرمق الأخير ـ وفي بلدٍ تنخر في نخبه الطائفيّة والتبعيّة، وفي وطن عربيّ يتشظّى ـ تقدّميًّا لا طائفيًّا ووحدويًّا جامعًا، قولًا وممارسةً.

تورونتو ـ كندا

* طبيب واختصاصي في جراحة الصدر. أستاذ مساعد في جامعة تورنتو، كندا.

المناضل الصلب والأديب المرهف

لبيب قمحاوي*

الكتابة عن سماح إدريس، وبِغضّ النظر عن عمق الإحساس بالخسارة الشخصيّة والأدبيّة والوطنيّة والقوميّة، هي كتابة عن السهل الممتنع. فالمزيج بين إحساس الأديب المرهف وصلابة المناضل العنيد، أمرٌ نادرٌ. وسماح جمع الاثنين معًا بانسجام وعفويّة طوال مسيرته الأدبيّة والنضاليّة، ومن ضمنها رئاسة تحرير *الآداب*؛ فاستمرار مجلّةٍ بعراقتها والتزامها، في زمن الانحطاط الذي تعيشه أمّتنا العربيّة، هو نضال بحدّ ذاته.

عاش سماح عدّة حيوات في حياة واحدة، تجمع الأديب الواعي والوطنيّ الملتزم و المناضل الصلب من أجل القضايا التي آمن بها. كان سماح أديبًا واعيًا ملتزمًا، ومن هنا كان دوره المبكّر في الاهتمام بأدب الأطفال تقديرًا منه لدور أجيال المستقبل. وهذا في الواقع يعكس مزيجًا من الرؤية الاستراتيجيّة الصائبة، والنضال في سبيل تحقيقها وعدم الاكتفاء بالمناداة بها.

كما أنّ اهتمامه بالترجمة عَكَسَ تقديره لأهميّة التواصل مع العالم الخارجيّ، والاطّلاع على منجزات الشعوب الأخرى، باعتبار الانفتاح على تلك المنجزات مفتاحًا للتطوّر والتفاعل لخدمة المصلحة الوطنيّة والقوميّة.

أمّا بالنسبة إلى فلسطين، فحدّث ولا حرج. وإذا كان من الطبيعيّ أن يعتنق كلّ عربي فلسطينَ وقضيّتها، فإنّ العرب ليسوا كلّهم عربًا. من ناحية أخرى، ليس كلّ من اعتنق فلسطين وقضيّتها من العرب أذاب نفسه وقلبه وعقله وروحه وجسده في فلسطين، كما فعل سماح بأدبِ المقاومِ المفكّر، وصلابة المناضل الملتزم بالشفافيّة ونكران الذات. كان سماح فلسطينيًّا عربيًّا في لبنانيّته. وكان من الصعب عنده، فصل أيّ قضيّة تتعلّق بفلسطين أو لبنان أو العروبة عن امتداداتها المترابطة؛ فالنضال من أجل لبنان عربيّ هو نضال من أجل فلسطين والعروبة. والنضال من أجل فلسطين كان نضالاً من أجل لبنان والعروبة، وهكذا. كانت هذه الرؤيا المتكاملة التي اعتبرت كلّ هذه القضايا قضيّةً واحدة، هي البوصلة الحقيقيّة لصحّة المسار. وقد انعكس حرص سماح على ذلك على مسار حياته وعلاقاته الشخصيّة؛ فقبول سماح لأيّ شخص كان محكومًا بمدى التزام ذلك الشخص بفلسطين وبالقضيّة الوطنيّة والعربيّة. فلسطين كانت بوصلة سماح إدريس. وقد عَبّر عن هذا الالتزام بالقضيّة الفلسطينيّة في مختلف مراحل حياته القصيرة زمنيًّا، والطويلة بإنجازاتها. ولعلّ أهمّ محطّة في ذلك الالتزام كان سنة ٢٠٠٢، عندما أسهم في تأسيس «حملة مقاطعة داعمي 'إسرائيل'» في لبنان، كامتداد للحملة العربيّة لمقاومة أيّ توجُّه للتطبيع مع الكيان الإسرائيليّ ودعمه. شكّلت الحملة مؤشّرًا مبكّرًا ، عمليًّا وأخلاقيًّا، لحملة المقاطعة الدوليّة (BDS) التي تأسّست سنة ٢٠٠٥ لمقاطعة نظام التمييز العنصريّ الإسرائيليّ واضطهاده الشعب الفلسطينيّ ومقاومته.

كان سماح مثقّفًا مشتبكًا. لم يقتصر دوره على طرح قضايا وشعاراتٍ، بل كان يتفاعل معها بشكل يوميّ. كانت قناعاته السياسيّة والنضاليّة منطلقة من داخله، وليست استجابة لأيّ انتماء سياسيّ أو تنظيميّ. وهنا مكمن القوّة في مواقفه السياسيّة والوطنيّة، والتي رافقته حتّى لحظاته الأخيرة.

عندما نُكرّم سماح إدريس، فإنّنا نُكرّم الأدب والنضال والصمود والوعي. كما نكرّم الإنسان فينا، والمناضل بيننا والأديب منّا. عندما نكرّم سماح إدريس، فإنّنا نكرّم فلسطين ولبنان العربيّ والعرب والعروبة... نكرّم أنفسنا، ونُحلّق معه وبه «من الأرض إلى السماء.»

عمان ـ الأردن

* حائز دكتوراه في العلوم السياسيّة من جامعة لندن. أستاذ العلوم السياسيّة في الجامعة الأردنيّة سابقًا، عضو اللجنة الملكيّة لصياغة الميثاق الوطنيّ الأردني، رئيس المنظمة العربيّة لحقوق الانسان في الأردن سابقًا، العضو المؤسّس والناطق باسم الجبهة الوطنيّة للإصلاح في الأردن. عضو مجلس الأمناء في مركز دراسات الوحدة العربيّة، وفي المنظمة العربيّة لمكافحة الفساد، وفي منظّمة المساعدة القانونيّة للفلسطينيين، وفي المنتدى العربيّ. له عدّة مؤلّفات ومقالات ومحاضرات في القضيّة الفلسطينيّة والقضايا العربيّة والدوليّة.

خريستو المر*

قصيدتان إلى عُبادة وسماح

قصيدة أولى وجهكَ يَبعُدُ

والأصابعُ تبكي،
ولا حُفرةٌ في قُماشةِ هذا المدى
كي يُخاطبَني ثِقَلُ الجسدِ

تغادرُني قدمايَ،
متاهاتُ عتمٍ يولّدها شارعٌ
اختفى منه صوتك،
لا جرسٌ يهتفُ اليوم باسمي
ولا وعدُ أرجوحةٍ
يترقبّها العيدُ
في مهرجاناتِ جسمي،
فنجمي بعيدٌ
وروحي تُغادرُني
والأصابعُ تبكي.

قصيدة ثانية حزنٌ واسع الأفق

في الحزنِ،
حزني،
مَنجَمٌ يستدرج الحبَّ إلى الأعماقِ
كي أتضوّرَ شوقًا وأفنى،
هو مَنجَمٌ سِحريٌّ يتكلّمُ الألغازَ
يَجرحني ويُشعلني
ويدلُّني نحو الطريقِ الضائعِ
كي أولدَ أحلى وأعلى.

* حائز دكتوراه في المعلوماتيّة الصحّيّة (١٩٩٧)، وإجازةً في اللاهوت (٢٠١٣)، أستاذ في جامعة يورك، كندا. يغطّي بحثُه مجالَ العدالة الصحّيّة في ميادين الصحّة النفسيّة، وحقوق الإنسان، وحقوق الأشخاص المعوّقين. نشرَ عدّة كتب في اللاهوت وصدر له ديوانان شعريّان. مُساهم في مجلّة **النور الأرثوذكسيّة**، ومجلّة **تيلوس اللاهوتيّة**، وفي الصحف اللبنانيّة، وفي مجلّة *الآداب*. عضو في حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة، وفي حركة أساتذة من أجل فلسطين ـ كندا، والمنتدى الأكاديميّ الكنديّ ـ اللبنانيّ.

رسالة الأسرى في رثاء سماح إدريس*

في صباحٍ غير عادي، حيث خبر الرحيل يغرز أنيابه في رهافة الحبّ والاحساس، فرحيل الصباح يحيله إلى غروب، تغرب روحك هناك يا سماح ونبقى نحن نستظلّ بفيئها وهي ترفرف وتملأ الفضاء، صباحٌ استثنائيّ حيث الخبر بفاجعة رحيلك حلّ مكان تفكّرنا في التحرّر والانعتاق، ولأنّ غيابك يفتك بقدرتنا ويسمّرنا في محطّات الزمن، ننظر من حولنا نتفقدك، نتذكّرك؛ فنحن ما زلنا نحتاج إلى كلماتك، مواقفك المبدئيّة المنحازة، ما زلنا في خضمّ المشوار يا سماح، لقد ارتحلت ووصلنا خبرك مع تسامي قطرات الندى، مع تساميها من على أشباك السجن وقد تسامت معها وتسلّلت أحاسيسنا المجروحة، ووجعنا الصارخ بفقدانك علّنا نُهوّن على أنفسنا قليلًا، وعسانا نُسمعك صرختنا الأخيرة، أنت الذي اعتدت الانتماء لصوتنا وصرخاتنا، أو لعلّنا نريد أن نودعك بهمس الصراخ.

فكلماتنا حتمًا ستصلك، نحن القابعين في سجون الاستعمار الصهيونيّ، وكنّا نودُّ التحرّر واللقاء بك، فكما ترى وكما علّمتنا أن المشوار ما زال طويلًا، وأنّ قنديلنا ما زال يحتاج الكثير من الزيت، فلماذا بربك رحلت الآن؟!

سماح نحن نعرفك أنّك لا تغادر الجبل، فأنت جبلٌ في مواقفك وخطواتك مرسومة بل محفورة في المشوار الطويل، فأنت عزيزنا ورفيقنا، رفيق نضال مرير، رفيق درب طويل. ولكنّك رحلت وتركتنا، بل رحلت عنّا بجسدك وستبقى روحك إلهامًا لنا وكلماتك ومواقفك نبراسًا نستحضره ونحاوره ونحادثه ونحن نسير، سنبقى نمشي ونسير يا رفيقنا حتّى نصل.

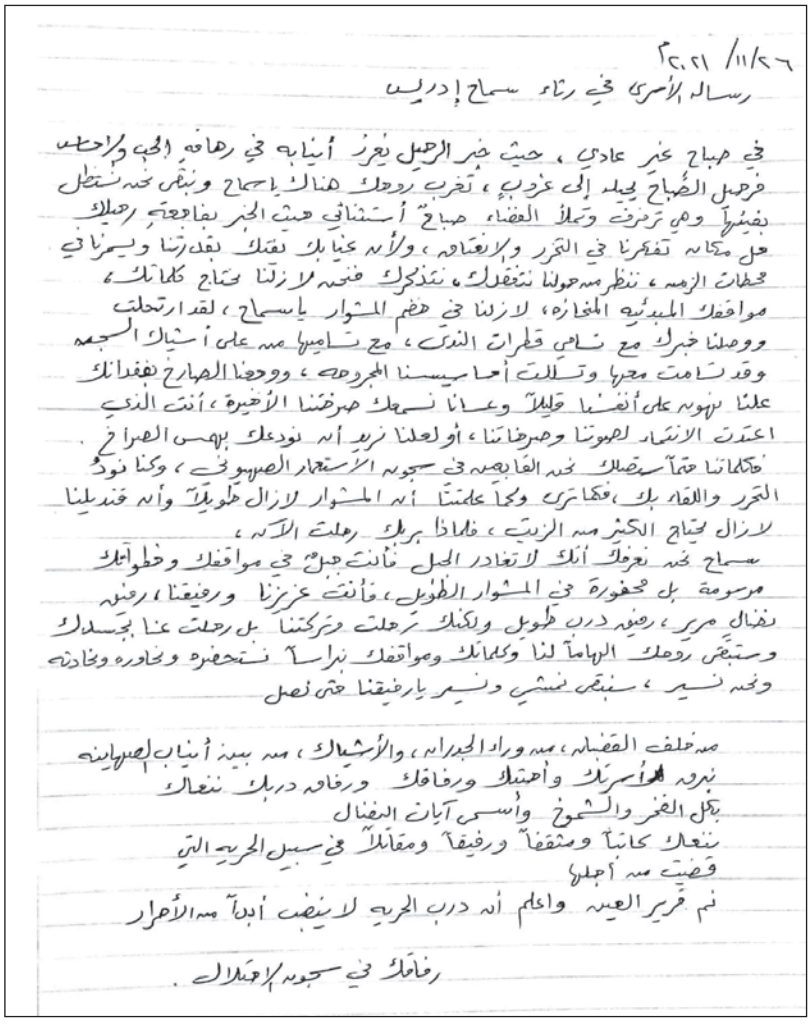

٢٠٢١/١١/٢٦

رسالة الأسرى في رثاء سماح إدريس

في صباح غير عادي، حيث خبر الرحيل يغرز أنيابه في رهافة الحب والإحساس، فرحيل الصباح يحيله إلى غروب، تغرب روحك هناك يا سماح ونبقى نحن نستظل بفيئها وهي ترفرف وتملأ الفضاء صباحٌ استثنائي حيث الخبر بفاجعة رحيلك حل مكان تفكرنا في التحرر والانعتاق، ولأنه غيابك يفتك بقدرتنا ويسمرنا في محطات الزمن، ننظر من حولنا نتفقدك، نتذكرك فنحن ما زلنا نحتاج كلماتك، مواقفك المبدئية المنحازة، لا زلنا في خضم المشوار يا سماح، لقد ارتحلت ووصلنا خبرك مع تسامي قطرات الندى، مع تساميها من على أشباك السجن وقد تسامت معها وتسللت أحاسيسنا المجروحة، ووجعنا الصارخ بفقدانك علنا نهون على أنفسنا قليلاً وعسانا نسمعك صرختنا الأخيرة، أنت الذي اعتدت الانتماء لصوتنا وصرخاتنا، أو لعلنا نريد أن نودعك بهمس الصراخ.

فكلماتنا حتماً ستصلك نحن القابعين في سجون الاستعمار الصهيوني، وكنا نود التحرر واللقاء بك، فكما ترى وكما علمتنا أن المشوار ما زال طويلاً وأن قنديلنا لا زال يحتاج الكثير من الزيت، فلماذا بربك رحلت الآن؟!

سماح نحن نعرفك أنك لا تغادر الجبل فأنت جبل في مواقفك وخطواتك مرسومة بل محفورة في المشوار الطويل، فأنت عزيزنا ورفيقنا، رفيق نضال مرير، رفيق درب طويل ولكنك رحلت وتركتنا بل رحلت عنا بجسدك وستبقى روحك الهاماً لنا وكلماتك ومواقفك نبراساً نستحضره ونحاوره ونحادثه ونحن نسير، سنبقى نمشي ونسير يا رفيقنا حتى نصل

من خلف القضبان، من وراء الجدران، والأشباك، من بين أنياب الصهاينة نبرق لأسرتك وأحبتك ورفاقك ورفاق دربك، ننعاك بكل الفخر والشموخ وأسمى آيات النضال ننعاك كاتباً ومثقفاً ورفيقاً ومقاتلاً في سبيل الحرية التي قضيت من أجلها

نم قرير العين واعلم أن درب الحرية لا ينضب أبداً من الأحرار

رفاقك في سجون الاحتلال.

من خلف القضبان، من وراء الجدران، والأشباك، من بين أنياب الصهاينة نبرق لأسرتك وأحبّتك ورفاقك ورفاق دربك، ننعاك بكلّ الفخر والشموخ وأسمى آيات النضال، ننعاك كاتبًا ومثقّفًا ورفيقًا ومقاتلًا في سبيل الحرّيّة التي قضيت من أجلها.

نم قرير العين، واعلم أنَّ درب الحرية لا ينضب أبدًا من الأحرار.

الرفاق في سجون الاحتلال

* موقع **صامدون**، https://tinyurl.com/yf4cf64t.

من الأحبَّة*

رائدة إدريس**

أصدقائي وأصدقاء سماح

ماذا عساي أخبركم عن سماح الأخ الصغير والطفل المدلّل بعد ابنتيْن؟

كان محطّ حبّ الجميع. وكان شديدَ الحَراك، والنباهةُ بادية في ردود أفعاله. وكان كثيرَ الأسئلة: وأذكرُ أنَّهُ وهو في الثامنة من عمره، في أحد الدروس الدينيَّة التي كان يتلقَّاها في المقاصد الإسلاميَّة، سأل المدرِّسَ: ماذا تعني كلمة النِّفاس؟ فلم يُجبه الأستاذ، ولم يعطِ تفسيرًا لها. فظلّ سماح بعِناده يُصرُّ على معنى هذه الكلمة، فكيف يحفظُها إذا لم يفهم معناها؟ فأخرجه الأستاذ من الصفّ غاضبًا باحتقار. وعندما عاد إلى البيت باكيًا، قرَّر بعناد عدم العودة إلى المدرسة، برغم إصرار الوالد على إنهاء سنته الدراسيَّة، مصرًّا على إتقانه اللغة العربيَّة نُطقًا ومعنًى.

أمَّا في البيت، فأذكر جيِّدًا أنّني كنت أركض وراءه من غرفةٍ إلى أخرى لكي أحوز قبلةً صغيرة من خدَّيْه الطريَّيْن. كانت القبلة صعبة المنال إلَّا عندما يطلب منِّي طلبًا عليّ أن أحقِّقه له. كان انتهازيًّا، معي تحديدًا، في كلِّ مواقفه (هو الذي كرهَ الوصوليَّة

* كلمات ألقيت في تكريم سماح إدريس في مناسبة نظّمتها حملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان وحركة الشعب، بعد مرور عشرة أيام على وفاته.

** من أصحاب دار الآداب، حائزة شهادة ليسانس أدب عربي من الجامعة الأميركية في بيروت. تعمل محرّرة في الدار ومديرة للعلاقات العامة فيها. شاركت في العديد من الندوات حول النشر في العالم العربي.

والانتهازيَّة في ما بعد): «بخلِّيكي تبوسيني على شرط تعطيني بونبون على شكل صبّاط.***» آه يا سماح، كنت أخطف منك القبلة خطفًا، وها أنت تحرمني منها الآن!

كنتُ، كلَّما أضيِّعه، أجده تحت الطاولة يقرأ كتب الأطفال. كان قارئًا نهمًا، يُنهي الكتابَ بسرعة ويطلب آخر. وبقدر ما كان يحبّ القراءة كان يكره الطعام، وخصوصًا الموزة التي كانت أمِّي تلحق به في المنزل لإجباره على أكلها. فانعكس ذلك في ما بعد في كتبه للأطفال. واشترط أن تكون كلّ لقمةٍ بكتاب، فنفِدَت كلّ «المكتبة الخضراء» التي كان يحبّها، و«مكتبة الكيالي.» وكنّا نعوِّض ذلك بقراءتنا لكتبٍ أجنبيَّة نقصّها عليه. وحين كَبُر ونضج، تذكّر هذه المرحلةَ الصعبة التي تفصل بين كتب الأطفال وكتب المراهقين، لذلك كان اهتمامه بكتب الناشئة. كتب الأطفال التي كتبَها كانت مستمدّةً من واقعٍ عاشه، كـ **قصَّة الكوسى** التي كانت من صميم حياتنا اليوميَّة. أذكر يومًا أنّنا ذهبنا إلى متجرٍ للألعاب، فنظر سماح إلى أحد الرفوف، ورأى لعبةً شقراء زرقاءَ العينيْن، فأُعجب بها وأنزلناها عن الرفّ لشرائها. وإذ ببنتٍ شقراء زرقاءَ العينيْن تدخل المتجر ممسكةً بيد أمّها، فترك اللعبةَ وأراد أن يشتريَ هذه الفتاة الشقراء. تعالى صراخ الفتاة، وازداد إصرارًا على شرائها، متنازلًا عمّا كان لديه من نقودٍ لشراء حذاءٍ له للعيد، مقابل تلك الفتاة.

كان سماح منذ صغره يكره المناسبات الرسميَّة التي تُجبره على ارتداء الطقم و«البابيون.» وكان يقلِّد بشكلٍ هزليّ رفيقَهُ الذي ينشد «صاح الديك في الصباحِ الباكرِ،» بطريقةٍ جديّة مفخِّمًا حرف الصاد، وملوِّحًا بيديْه يمينًا ويسارًا. وهذه الروح الهزليَّة كبُرت معه وانعكست في شخصيّته وأدبه في ما بعد.

لم يعتبر نفسه يومًا أنَّه «الذكر» الذي عليه أن يمارس سطوته أو سلطته على أختيْه. لا لكونه أصغر منهما، بل لطبيعةٍ تحرُّريَّةٍ عنده. لم يُحسِّسني مرَّةً أنَّه يُراقب هاتفي أو رسائلَ تُرسل إليَّ أو يلاحقني في تحرُّكاتي. إلَّا أنَّه عندما نضج، وتشرَّب فكرة العروبة والنضال، أذكر أنَّه أصبح يراقب كلّ عريسٍ يأتي لخطبتي (أنا التي كنت أكره هذه الطريقة التقليديَّة في الزواج). أذكر مرَّةً، وبعد إلحاح إحدى قريبات عائلتنا على أن تزورنا مع أخيها، وصودف الحديث عن فلسطين وعن جورج حبش بالذات، أن العريس قال: «يهتمّ بفلسطين ويتركنا، شو بدنا بفلسطين؟» فانتصب سماح واقفًا غاضبًا: «فلسطين أهمّ مِنَّك ومِنْ غَيْرَك!» فانسحب العريس هو وأختُهُ مذعورَيْن. وأصابتني موجةٌ من الضحكِ، وقلتُ له: «هرّبتلي العريس.» وبعد ذلك، تعلَّمت الدرس: أن أسأل كلّ عريسٍ، قبل أن يتقدَّمَ إليّ، إذا كان يحبّ فلسطين.

في هذه الفترة، وكان في السادسة عشرة من عمره، أذكر أنَّه كان يغيب ليوميْن أو ثلاثة، متحجِّجًا بأنَّه يدرس عند صديقٍ له، قريبٍ من منزلنا. إلَّا أنَّنا اكتشفنا في ما بعد، أنَّه كان يتدرَّب على حمل السلاح في أحد أزقَّة بيروت القريبة من الجامعة العربيَّة ومخيَّمات صبرا وشاتيلا. وعندما علمت أمِّي بالأمر، لحقت به في يوم قيل إنَّ إسرائيل دخلت فيه بيروت. فركضت خلفه باكيةً، وقالت له: «ارجع، تستطيع أن تحارب بالقلم.» وكان يردِّد دائمًا، بيتًا من قصيدة حسن عبد الله: «أجمل الأمّهات التي انتظرتْ ابنها... أجملُ الأمّهات التي انتظرتْهُ، وعاد... عاد مستشهدًا،» فيُجنّ جنونها.

أمَّا أبي سهيل، فكان له الدور الأبرز في تنشئة سماح على الروح النضاليَّة والمواقف الصلبة والدفاع عن الحرّيّات. فتأثّر سماح بها، وانعكست على تصرُّفاته. كذلك كان سهيل يزرع دومًا في نفس سماح، حبَّ

اللغة العربيّة، حتّى أضحى سماح من أفضل المحرِّرين العرب. فمن نسأل من بعدك يا سماح ـ في دار الآداب ـ مثلًا، عن مكان الهمزة في جملةِ «كانت مساوئهم،» أعَلى الواو أو على الكرسيّ؟ هل يُقال «متوافرة» أم «متوفِّرة» أم يجوز الاثنان؟ مَنْ لنا أن نسأل، على صعيدٍ آخرَ، عن اختيار أعضاء لجنة القراءة وقدراتهم التقييميَّة وتوجُّهاتهم الفكريَّة؟ ومَن سيُساعدنا في اعتماد هذا المترجم أو ذاك؟ ومن سيُكمل تأليف المعجم العربيّ ـ العربيّ الذي كنت تعمل عليه؟ وكما كنتَ أمينًا يا سماح، حتى آخر لحظات حياتك، على وصايا الوالد في الاستمرار بالعمل على المعجم، ورئاسة تحرير مجلَّة *الآداب*، نتعهَّد لكم، أنا ورنا والجيل الثالث، بالاستمرار وحفظ الوعد، لكي لا تُغلَق القواميس التي ما زالت مفتوحةً في مكتبك، فيما أنت تخطّ حروفَ لغتِنا نحو السماء.

ناي إدريس*

آخر رواية قرأتُها معك يا بابا، كانت الرجل الذي لم يمت لغسّان كنفاني.

بدأنا قراءتها قبل أن نعلم، أنت وأنا، عن العدوّ الذي كان قد بدأ يستوطن معدتَك.

كنت تجلس على الكرسيّ الأحمر، فتتدحرج الكلمات على لسانك كنغمة ناي.

كنت أجلس أنا قبالتك على «الصوفا،» وأنا أغنّج كَبْكيك أو قمر أو سيما،** تلمع عيناك، وتطلق نظرة خاطفة نحوي كلّما قرأتَ جملة عرفتَ أنَّها ستعجبني. كنت تقرأ أفكاري قبل أن أعرف ما كنتُ أفكِّر فيه.

تُكمل القراءة، فتشرد عيناي نحو عالمنا الصغير الذي خلقناه من خلال ابتساماتنا المتواطئة.

انشغلتُ بما لذَّ وطاب من الصيف، ولم نكمل القراءة، أصبح العالم بين الكرسي و«الصوفا» أكثر بعدًا مع كلّ غروب شمس.

---

* نالت شهادةَ البكالوريوس في الأدب المقارن وعلم الإنسان من جامعة كولومبيا في نيويورك. هي بصدد تحضير رسالة الماجيستير في الدراسات الشرق أوسطيّة في جامعة نيويورك تتناول فيها الحركات اليسارية في لبنان وعلاقتها بالمقاومة الفلسطينية.

** أسماء قططنا.

بعد شهرين، وجدت نفسي أقرأ الرواية لكَ. حدّدَت آلةُ غسيل الكلى الإيقاعَ، وتهاوَت الكلمات من فمي مثل الحجارة. مرّ شهران فقط، وأصبح جسمك هزيلًا، فلم تعد تستطيع حتّى أن تُمسك الكتاب. تغيَّر صوتك الرنّان والمُريح بسبب العلاج الكيماويّ، واستُبدلت نظرتُك الحنون بعبسة خفيفة.

ماذا تصبح الحكاية عندما يغيب الراوي؟

ماذا تصبح الحكاية عندما يصمت الصوت الذي أحياها؟

الطفل العنيد في داخلي، والذي عاش في صفحات كتاباتك، يتطلّب ويصرخ: «بابا أكمِل، أخبرني ماذا حصل للحكاية؟ لا يمكنك التوقّف الآن!» ماذا يحصل للبنت التي خسرت أباها، ومعه عالمها بأسره؟ كيف تستمرّ في النضوج والتعلّم والحبّ؟ أكمل الحكاية يا بابا! لا تتوقَّف في نصف الحكاية...

أعود إلى تلك اللحظات في غرفة غسيل الكلى. أسترجع أفكاري؛ كنت أفكِّر بمقطع من عائد إلى حيفا، في نهاية الرواية عندما تتملَّك صيدون الرغبة بالعودة إلى ابنه ليبكي على كتفيه، عاكسًا دورَي الأب والابن بطريقة فريدة لا يمكن تفسيرها.

هذا ما أحببته في تلك اللحظات؛ أنّنا رسمنا دائرة كاملة: أنت تقرأ لي الحكاية، لأعود أنا وأقرأها لك.

لن ترحل يا بابا، فأنت تحيا من خلال الحكايات والحكايات لا تنتهي.

أنت «الرجل الذي لم يمت،» أليس هذا تعريف الراوي؟

سارية إدريس*

بابا، علّمتني كيفيَّة معالجة كلّ شيء أشعُرُ به من خلال الكتابة.

ولطالما شعرت أنَّ ما أستطيع الكتابة عنهُ، أستطيعُ تحمُّلَه.

ولكن، عندما بدأتُ بكتابة هذا الخطاب تغلَّب عليّ الضياعُ. أصبَحَت كلّ كلمة فارغة من جوْهَرِها.

هل تعرفُ هذا الألم الذي أتحدَّث عنه؟ ألم البحث عن كلماتٍ بعيدة المنال؟

أنا متأكِّدة من أنَّك كنتَ لتقِف هنا، وتعلَم تحديدًا ماذا ستقول. تقولَه بلغةٍ جميلة تخفِّف الألم. كلَّما زاد قلقي من عدمِ العثور على الكلمات المناسبة لهذا الخطاب، زاد حزني، لأنَّني أدرك أنَّني لا أستطيع الاستعانةَ بك.

هكذا، يتفاقَم حزني ويتجسَّد بالصمت. كانت كلماتك الجميلة وحكاياتُك، لِتُنعِش هذه القاعة. لقد رافَقَتْنا حكاياتُكَ خلال كلّ اللحظات العابِرة والمفصليَّة منذ الطفولة، سِواء كنَّا على مائدة الطعام أو في السيارة عالقين في الزحام.

«بابا خبِّرنا حكاية...»

* معالِجةٌ نفسيّةٌ من لبنان. تعمل مع الأطفال والبالغين في كامبريدج (ماساتشوستس) في الولايات المتحدة. نالت البكالوريوس في علم النفس من جامعة ماكغيل (كندا)، والماجستير في العلاج النفسيّ من جامعة بوسطن (الولايات المتحدة). وهي متخصّصة في العلاج العابر للثقافات (cross-cultural therapy)، وفي معالجةِ الرضوض النفسيّة.

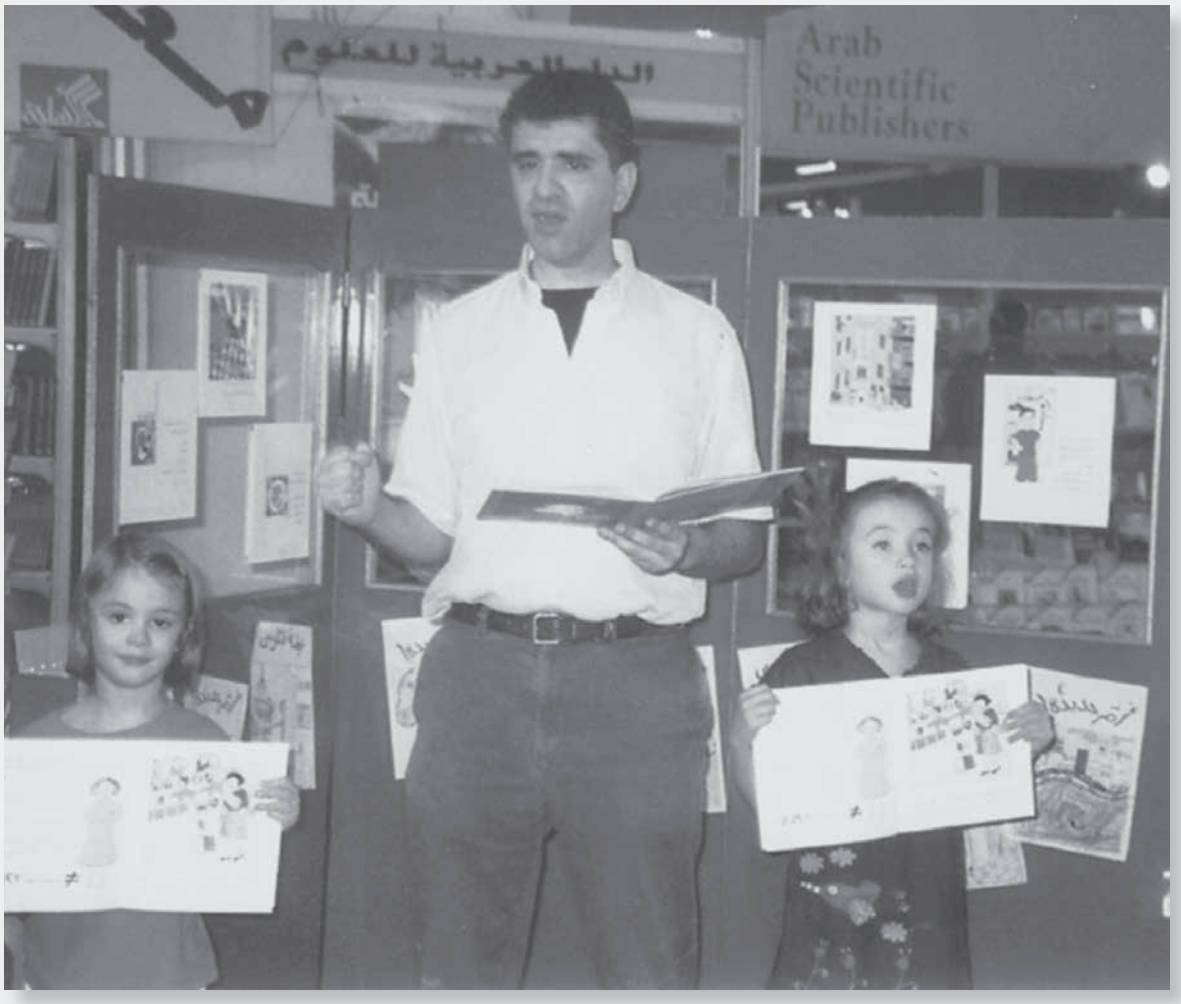

أوّل فكرة واضحة خطرت لي خلال جنازَتِك، كانت: «أريد أن أذهب إلى البيت لأخبر بابا عن كلِّ هذا.» أنت فقط يمكنك أن تُحيي جنازةً بتعليقاتِكَ الذّكيَّة.

في إحدى الليالي الطويلة في غرفة المستشفى، سألتُك كيف تعاملت مع خَسارة جدّو، طبعًا كنتُ فعليًّا أسأل كيف سأتعامل مع خسارتِك؟ أجبتني بحكاية.

لقد تعلّمتُ كلّ شيء في حياتي من خلال حكاياتِك.

هي حكاية أحلام مستغانمي وهي تسألُكَ عن الشطرِ الثاني من بيت شعر للمتنبي يبدأ:

«مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيهِ (الشطر الأول)

ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ (الشطر الثاني الذي كانت تبحث عنه أحلام)

فنظرتَ إلى القاموس الذي كان جدّو يؤلِفُه، وهو مفتوح أمامك على المكتب، فرأيتَ هذا البيتَ نفسَهُ، من بين ٨٠٠٠ صفحة. فقلت لي إنَّك لم تشتَق لجدّو، فهو لم يغادرك يومًا. هو ظهر لك كلّما احتجتَ إليه، ظهر لك في كلّ كلمة كتبتَها.

بابا، أتمنّى أن تبقى معي كما بقي جدّو معك.

لقد علّمتني أنّ هناك رابطًا أبديًّا بين الأحبّاء، رابطًا يتجاوز عالَمَنا المادّي من خلال الحكاية.
لقد حان الوقت لنحكي لك نحن الحكايات.
سأكمِل بالكتابة، وسأبحث عنك في كلّ كلمة. أعدّك بأن أعيش حياة مليئة بحكايات تستحق المشاركة. آمل أنّك تسمعني أينما كنت.
ستحيا من خلال حكاياتنا، وكتبك، وفي كلّ قلبٍ لامسته.
ستحيا. فأنت نقيض الموت.

عُبادة كَسَر*

مرحبًا يا سماح، أعرفُ اليومَ أنّك تَغفرُ لي ذنوبيَ اللغويّة. فأنت تعرفُ تمامًا أنّ القلبَ قد أضناهُ هذا الفراق، والصّدر قد ضاق بما لا يطاق.
الرّفاق والرّفيقات، وقفتي اليوم في حضرة الرّفيق الحبيب سماح، سأختصرها في ثلاثةِ مواقعَ تُخبركُم عن علاقتي به: ما قبل العمر؛ خلال العمر؛ وما بعد العمر.

ما قبل العمر

تعرّفت إلى سماح قبلَ ولادتي، كنت أرنو إلى أبي، «الرّفيق حسن» كما يناديه سماح، ليقِصَّ عليّ حكايا قبل النّوم، قصصًا محمّلةً بالسّلاح والألغام والمعاركِ وخطفِ الطّائرات، قصصَ الثّورة وحقّ العودة وتحرير فلسطين، كامل فلسطين.
تعرّفتُ إلى سماح عندما حاضر الشّهيد غسّان كنفاني بالـ«رفيق حسن» وزملائه في المرحلة المتوسّطة، في مقرّ مجلّة **الهدف** في كورنيش المزرعة.
تعرّفت إلى سماح عندما شارك «الرّفيق حسن» مع زملائِه بتهريب السّلاحِ للفدائيّين في رحلةٍ مدرسيّةٍ إلى الجنوب.
تعرّفت إلى سماح عندما التقى «الرّفيق حسن» بوديع حدّاد في منزل جدّي لأبي.
تعرّفت إلى سماح عندما دفنَ «الرّفيق حسن» في التّراب رسائلَ الحكيم جورج حبش، خوفًا من الملاحقات والمطاردات الأمنيّة.

* أستاذة في الجامعة اللبنانية، مديرة موقع *الآداب* سابقًا، باحثة في مركز دراسات الوحدة العربية.

تعرّفت إلى سماح في مرحلة ما قبل العمر، يوم كُنتُ أبحثُ عن وطنٍ وعن هُويّة.

خلال العمر، وهي رحلتي مع شقيق الروح من جسدي

بروحيَ تلكَ الأرضِ ما أطيبَ الرُّبى

ومـا أحسنَ المُصطافَ والمُترَبَّعا

وأذكـــرُ أيّامَ الحِمى ثــم أنثنـي

على كبدي من خَشـيةٍ أن تصدّعا

وليســت عشيّاتُ الحِمى برواجعٍ

إليك ولكن خلِّ عينيك تدمَعا

كـأنّا خُلقنــا لـلـنــوى وكـأنّما

حـرامٌ على الأيّـامِ أن نتجمّعا

(للشاعر الصِّمَّة القُشَيري)

الرّفاق والرّفيقات، ماذا يعني الحبُّ لسماح؟ الحبُّ عند سماح هو غرسٌ طيّبٌ نقيٌّ في القلوب. هو مدرسةٌ كلُّ علومِها تبدأ من الحبّ وتنتهي به؛ حبّ القضيّةِ، حبّ الحرّيّةِ وكلِّ القيم الوطنيّة الرّفيعة. من يعرِفهُ، يعرف أنّه «رجلٌ بحجم الأرضِ والسّماء،» كما يصفه أبناءُ الملتقى الفلسطينيّ للشّطرنج في مخيّم شاتيلا. حتّى فعلُ المقاومة قال فيه معلّمي سماح: «هو فعلٌ فرديٌّ يستند إلى حبِّ النّاس.»

أن تكون زميلًا له في *الآداب*، يعني أنّك تورّطتَ بهمّهِ الوطنيّ، وعلى رأسه حبُّ اللغةِ العربيّةِ واحترامها، ونضاله الثّقافيّ المشتبِك. هو عملٌ شاقٌّ من الحفر والنّحت، يستندُ إلى إفراطه في التّفاؤلِ بعدالة القضيّة والإرادة. عُنوانه الوحيد: المشروع القوميّ التّقدميّ النّهضويّ الذي تشكّل فلسطينُ أحدَ عناوينِه الواضحة.

ماذا يعني الحبُّ لسماح؟ يعني أن يرى في سيّدةِ *الآداب* الأولى، والأمِّ صانعةِ الثّقافةِ، «أجملَ نساء الأرض.» هنيئًا لك يا «عيّود» كما يناديكِ سماح. هنيئًا لكِ بحبّه الّذي لم تحظَ به امرأةٌ على وجهِ الأرض.

رفيق ما بعد العمر

يا رفيقَ ما بعد العمر، يا سماحُ حان الوقتُ لتبتسمَ: ما تركتَه لنا هو الحبُّ والحياةُ في أبهى صورها وأشدِّها التزامًا وتحدّيًا للموت. يا رفيق ما قبل العمرِ وما بعد العمرِ، إلى اللقاء في كلّ بيتٍ عربيٍّ حرٍّ، إلى اللقاء في فلسطين الحبيبة.

رسالة الأمين العام للجبهة الشعبيّة
لتحرير فلسطين أحمد سعدات

السيّدة والمناضلة العزيزة عايدة إدريس المحترمة
الأعزّاء عائلة إدريس الكرام
العزيزتان سارية وناي
الرفيقات والرفاق الأعزّاء
تلقّينا بحزنٍ وألمٍ بالغ خبر تدهور الحالة الصحّيّة للعزيز الدكتور سماح، وكأنّ ما أصابه أصابنا جميعًا؛ فالدكتور سماح العزيز على قلوبنا والغنيّ عن التعريف، كنّا نتابع من داخل السجون كتاباته ونشاطاته كأحد أهمّ المفكّرين والمثقّفين التقدّميين الثوريين العرب الذين سخّروا قلمهم وعملهم في خدمة فلسطين. لذلك وقع علينا الخبر كالصاعقة، وما يهّمنا جميعًا أن يخرج من هذه الكبوة المرضِيّة سريعًا، ليعود لنا رفيقًا جذريًّا منتميًا لقضايا شعبه، ولأمّتنا العربيّة، وللقضايا التحرّريّة حول العالم.
ما نستطيع أن نقدّمه لكم في هذه المحنة، أن نُعرب عن تضامننا الكامل معكم، آملين أن يخرج الرفيق العزيز سماح سريعًا من هذه المحنة ويتماثل للشفاء.
مع خالص تضامني الكامل

الرفيق أحمد سعدات
الأمين العام للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين.
سجن ريمون الصحراويّ ١٥-١٠-٢٠٢١

رسالة الرفيق المناضل جورج عبدالله

الرفيق العزيز سماح،
تحيّة الصمود والنضال المستمرّ،
تحيّة حارة مِلؤها الأمل بِلقائك وأنت مُعافًى بشكلٍ تامّ. والأحبّة والغوالي في وجودك يعزّزون الإرادة الصلبة بما يكنّون لك من مشاعر الحبّ والتقدير والمودّة.
دكتور سماح... صدى هذه الكبوة الصحّيّة ثقيل الوطأة في زنازين الاعتقال، لكنّ الثقة كبيرة. دُم سالمًا أيّها الرفيق العنيد، ومنارةً لمسارات تحرير فلسطين وجماهير أمّتنا العربيّة.
مع صادق التضامن والتقدير لك ولكلّ أفراد العائلة الكريمة.
دُمت للنضال والثورة المستمرّة،

الرفيق جورج عبد الله
سجن لانميزان

سماح إدريس (١٩٦١ - ٢٠٢١)

وُلد في منطقة الجامعة العربيّة في بيروت، بتاريخ ١٤ أكتوبر / تشرين الأوّل ١٩٦١، لوالدين مثقّفين مهمومَين بقضايا الشعب العربيّ، هما الأديبان سهيل إدريس، وعايدة مطرجي إدريس. وكان الأخ الأصغر لرنا ورائدة.

أصرّ والده على أن يبدأ سماح تعليمه الابتدائيّ في مدرسة المقاصد الإسلاميّة، حرصًا على تمكّن ابنه من العربيّة: لغةً وثقافةً وانتماءً. وكان سماح، بحسب أساتذته، طفلًا «مشاغبًا»، لكثرة أسئلته في اللغة العربيّة والمفاهيم الدينيّة.

ارتبط سماح بالنضال من أجل القضيّة الفلسطينيّة منذ نعومة أظفاره؛ فشارك ونظّم المظاهرات، وسطّر البيانات الداعمة. وتأثّر بنهج الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين وهو في المرحلة الثانويّة، التي أمضاها في مدرسة International College (IC).

درس الاقتصاد في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ونال شهادة البكالوريوس فيه. ثمّ «انحرف» إلى حيث هواه الأوّل، فتخصّص في اللغة العربيّة وآدابها، ونال شهادة الماجيستير من الجامعة نفسها. وفي صيف ١٩٨٥، شدّ الرّحال إلى نيويورك، حيث نال الدكتوراه من جامعة كولومبيا، متخصّصًا في دراسات الشرق الأوسط. ترجم أطروحته لاحقًا إلى العربيّة، وأصدرها في كتابٍ بعنوان: **المثقف العربيّ والسلطة: بحثٌ في روايات التجربة الناصريّة**. خلال دراسته في نيويورك، أسّس سماح مع رفاق له «النادي العربي» في جامعة كولومبيا، سنة ١٩٨٣. عمل النادي على استنهاض الوعي العالميّ بأهمّيّة الحضارة العربيّة وثقافتها وقضاياها، وعلى رأسها قضيّة فلسطين التي ربطها بالإمبرياليّة والاستعمار.

كان يزور لبنان سنويًا، ويقضي شهور الإجازة في الإسهام في إعداد معجم عربيّ ـ عربيّ ضخم، كان والده والشهيد صبحي الصالح قد باشرا العملَ عليه أواخر السبعينات. واظب سماح، رغم مشاغله الكثيرة، على العمل على المعجم، لكنّ رحيله المبكر حال دون إنجازه.

مع عودته من الدراسة سنة ١٩٩١، حمّله والده رايتيه: إدارة مجلّة *الآداب*، وهمّ النضال لغد عربيّ أفضل. وكان لسماح منكبان يحتملان، ولا ينوءان حتّى بالمزيد؛ فانخرط في تجديد المجلّة التي وُلدت سنة ١٩٥٣، وساهم في إدارة دار الآداب، وشارك في أشكال النضال المختلفة ـ والتي كان يراها دربا واحدًا ـ في سبيل فلسطين حرّة، ووطن ديمقراطيّ علمانيّ، وثقافة متنوّرة تتّسع للنقد، ولغة عربيّة تزدهر وتتطوّر وتجمع حولها أبناءها.

كرّس *الآداب* لهذه القضايا، في مقالاتها وملفّاتها ولغتها. وشارك في ما رأى فيه ثغرات تُفتح في جُدُر اليأس والقنوط والاستسلام لـ«واقعيّة» الهزيمة؛ فساهم في تأسيس نادي الساحة الثقافيّ، وحركة الشعب في لبنان، وحملة مقاطعة داعمي «إسرائيل» في لبنان، والمسار الثوريّ الفلسطينيّ البديل.

له، إضافة إلى عشرات المقالات المنشورة في *الآداب* وصحف ومجلّات مختلفة، كتابان في النقد الأدبي، هما: **رئيف خوري وتراث العرب** (١٩٨٦) و**المثقّف العربيّ والسلطة: بحث في روايات التجربة الناصريّة** (١٩٩٢) ـ فاز بجائزة النادي الثقافيّ العربيّ ـ لبنان كأفضل كتاب في النقد الأدبيّ). وكان تقريب العربيّة إلى ابنتيه، سارية وناي، سببًا في توجّهه إلى الكتابة للأطفال. فصدرت له أربعُ رواياتٍ للناشئة (الرواية الخامسة **شمس وقمر** لم ينته من إعداد الفصل الأخير منها): **الملجأ، النصّاب، فلافل النازحين** (حازت جائزة مؤسّسة الفكر العربي ٢٠١٣، عن أفضل كتاب للفتيان والفتيات)، **خلف الأبواب المقفلة**. إضافةً إلى إحدى عشرة قصّةً للأطفال (صدرتْ بين العامين ٢٠٠٣ و٢٠١٧): **قصّة الكوسى، أمّ جديدة، البنت الشقراء، تحت السرير** (فائزة بجائزة آنا ليندت ـ السويد، سنة ٢٠٠٧)، **الكلّ مشغول، الموزة، طابتي الذكيّة، عالَم يسعُ الجميع، قصّتي، حين قرّر أبي، الشباك**.

كما ترجم كتب صادرة عن دار الآداب، هي: **النزعة الإنسانيّة العسكريّة الجديدة لنعوم تشومسكي** (٢٠٠١، مع أيمن حدّاد)؛ و**صناعة الهولوكوست** لنورمن فنكلستين (٢٠٠١، مع أيمن حدّاد)؛ و**الإمبرياليّة والمقاومة** لطارق علي (٢٠٠٦)؛ و**لبنان وإسرائيل وفلسطين** لنورمن فنكلستين (٢٠٠٨)؛ و**الماركسيّة والدين والاستشراق** لجلبير الأشقر (٢٠١٦).

أصابه المرض الخبيث في معدته، ولم يمهله، فتوفي في ٢٥ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٢١. تاركًا وراءه إرثًا عصيًّا على النسيان.